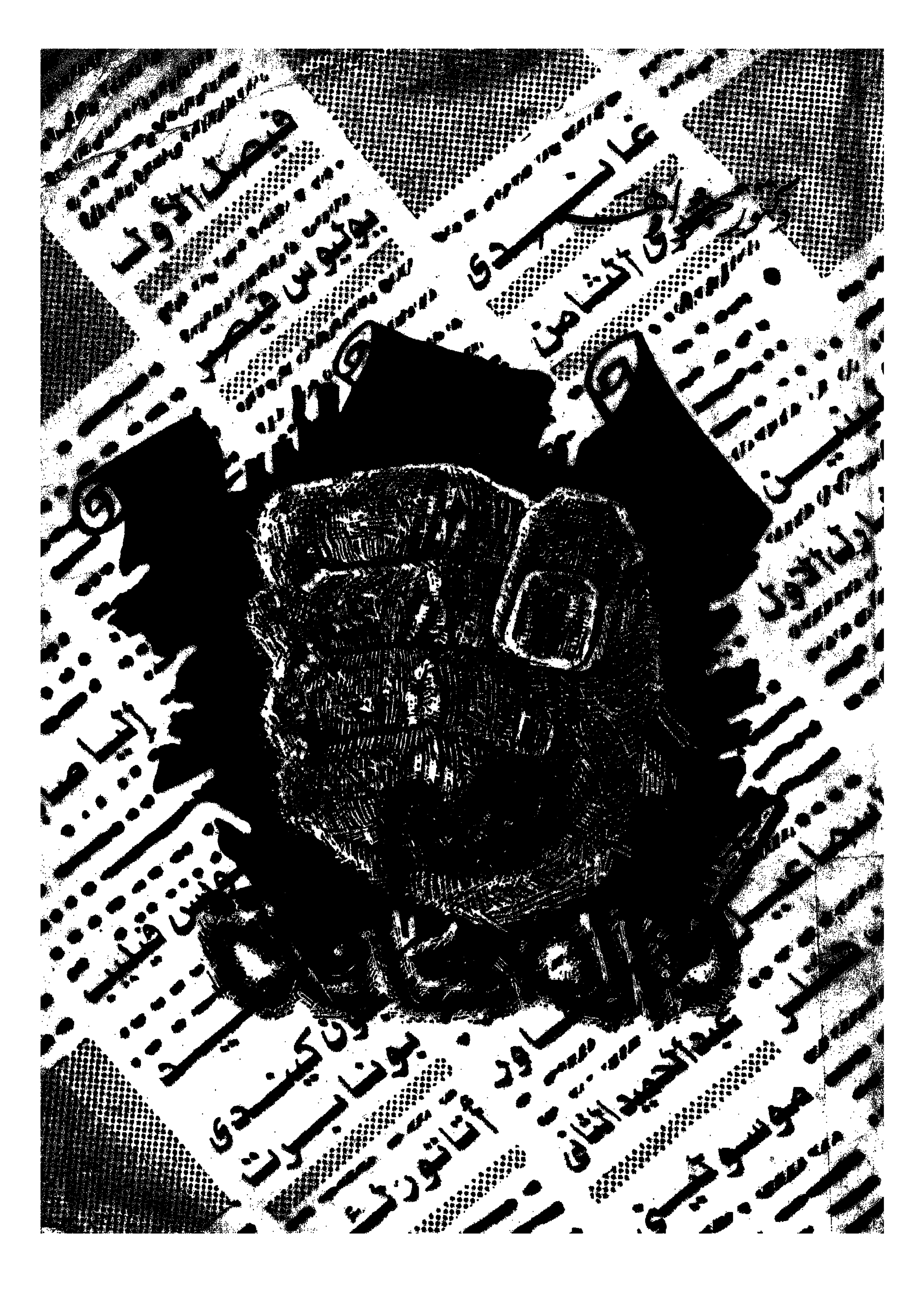

فيصل الأول
يوليوس قيصر
جون كينيدي
بونابرت
أتاتورك
عبد الحميد الثاني
موسوليني



دكتور محمود أدهم



(الطبعة الأولى)

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الغلاف من تصميم الفنان

حسن أحمد خليل

الإهـــــــداء

الى أسـاتذتى الاجـلاء

وزملائى الأعـــزاء

من العـــــاملين

فى بلاط صاحبة الجلالة

د . محمود ادهم



تقديم

جذبتنى اليها بشدة ، تلك العلاقة بين رجال القمة السياسية ، وسيداتها أيضا من ملوك وملكات وأباطرة ورؤساء جمهوريات وحكام .. وبين رجال القمة الصحفية .. أو بين هؤلاء من جانب ، وبين صحافة بلادهم من جانب آخر .. ذلك لأنها تتصل عن قرب بالتاريخ العام لدولهم ، وبحياة هؤلاء ، وأفكارهم ، ومواقفهم .. كما تتصل عن قرب أيضا بتاريخ الصحافة العالمية والعربية ، وبقوانين الاعلام فى بلد وآخر ، وبالفنون الصحفية نفسها فى نهاية الأمر .. وجميعها ذات أهمية بالغة تنطلق من تلك الأهمية المعقودة على الصحافة نفسها .. تلك التى تكون مرآة للشعوب ، تماما كما يصح أن تصبح مقياسا لتقدمها ، ووعيها ، ذلك لأن من الثابت أيضا أن لكل شعب صحافته التى يستحقها .

ومن هنا ، فقد رأيت أن أكتب عن بعض من صور هذه العلاقة نفسها ، وبكل أبعادها ، وتفصيلاتها ، وبوجهيها أيضا ، وحتى تلك الصور التى غلبت عليها الطرافة بما يؤكد أنها لم تكن علاقة صدام ومعارك ، أو سلطة وتقييد فقط ، بل كانت كذلك وفى أحوال عديدة علاقة حب.

وود ، وتفاهم مشترك ، ودور تؤديه الصحافة ويؤديه الصحفيون خدمة لأوطانهم ، ومجتمعاتهم ، تأييدا ، وتعضيدا للدور السياسى أو العسكرى الذى تقوم به القيادة السياسية .. وبصرف النظر عن النزعات المتطرفة ، سياسية كانت ، أم صحفية .

على أنه قد يثور بشأن مادة هذا الكتاب وسبب اختيار هؤلاء الأشخاص دون غيرهم ، وتلك اللقطات أو الصور نفسها أكثر من سؤال .. أقول بشأنها أننى لم أهدف الى أكثر من بيان بعض صور هذه العلاقة ، وطبيعتها ، وأما عن هؤلاء فقد وجدت أنه قد تجمع لدى عنهم وعن صحافة عهودهم ومواقفهم منها الشيء الذى يمكن أن أستند اليه فى كتابة هذه المجموعة المتنوعة من المقالات التى ترتكز الى الحقائق العلمية وحقائق التاريخ وحدها ، وما أمكننى الحصول عليه منهما .. دون أن يغيب عن بالى الكتابة عن آخرين أجمع الآن شتات المعلومات والحقائق عنهم وعن صحافتهم .. ومن بينهم :

« أوليفر كرومويل ــ لويس السادس عشر ــ فيكتوريا ــ جورج واشنطن ــ محمد على ــ رودلف الثانى ــ بسمارك ــ فرانكو ــ ماكينللى ــ هارى ترومان ــ ماوتسى تونج ــ نهرو ــ نلسون روكفلر ــ خروشوف ــ جمال عبد الناصر ــ أحمد سوكارنو ــ محمد الخامس » ... وغيرهم ..

كذلك فاننى لم أقصد أن أحيط بتاريخ جميع هؤلاء الرجال ، ولا كان باستطاعتى ذلك .. وانما قصدت الى وجهات نظرهم بشأن مرآة شعوبهم ، ودورها ، ومواقفهم منها . دون أن يمنع ذلك ــ بالطبع ــ من ذكر شيء عن حياتهم كمدخل الى الحديث عن مواقع الصحافة من اهتمامهم ..

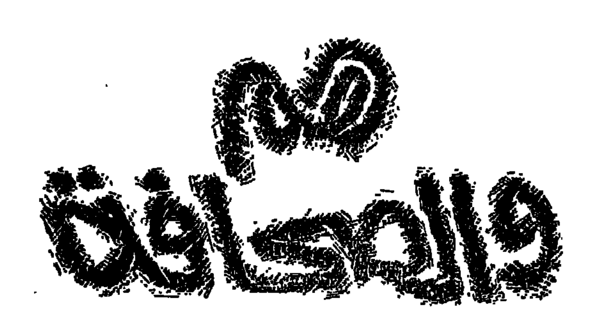
وأما عن بعض الأسماء الأخرى من الأحياء الذين كانت لهم مواقف

مشهودة من الصحـافة ، أو هؤلاء الذين تأثر حكمهم بالفضائح التى أثارتها صحف بلادهم .. وحتى السقوط أو الاستقالة .. أقول ان الكتاب لا يقدم رجال الحكم الأحياء ، كما أنه لم يكتب بهدف تسقط الأخطاء أو متـابعة الفضـائح أو الكشف عن المثالب فى عهـد زعيم أو رئيس أو ملك ، ومن ثم فان مقياس الفضـائح المثارة ، أو التى أثيرت ، ليس هو المقياس المتبع بالنسبة لهـذا الكتاب ، ولا بالنسـبة للكتاب الذى سوف يليه باذن الله .. دون أن يمنع ذلك كله من الاشـارة الى بعض المثالب ، أو الطـرائف ، أو الغـــرائب .. لأن الشىء بالشىء يذكـر ، والحكام بشر ..

والله أسأل أن تتحقق به الفائدة المرجوة .

محمود أدهم

القاهرة ــ أغسطس ١٩٨٠


مصر
والصحافة

يوليوس قيصر

صحيفة كاملة

من ٢٠٠٠ سنة !

يوليوس قيصر :

صحيفة كاملة
من
٢٠٠٠ سنة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : هل تحدثنى هذه المرة عن احدى الصحف القديمة قدم الدهر ؟ وعن الرجل الذى أصدرها ، والغاية من اصدارها ؟

أجاب الشيخ : أما الصحف القديمة قدم الدهر فهى كثيرة ، وتجل عن الحصر ، وكل أمة من الأمم تعتقد أن لها فضل السبق فى هذا المجال ، خاصة مصر والصين والعراق والشام وفارس وجزيرة العرب فلندع هؤلاء جميعا ، ولنول وجهنا شطر الغرب ، لنعبر البحر أيضا ، ولنقرأ قصة هذه الصحيفة ، وحكاية هذا الرجل ..

الزمان : المائة سنة الأخيرة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام .

والمكان : روما ... سيدة العالم فى ذلك الوقت ، وعدد من مدن الدولة الرومانية الشامخة .

والحدث : صور عديدة من صور صراع قادة الامبراطورية ، بعد أن قفز هذا الصراع نفسه من ميدان السياسة ، الى ساحات المعارك الدموية ، أما أطرافه فهم أمراء جيوش طالما انتصرت .. لوكولوس وبومبى الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر وسبارتاكوس .. أما الأخير ــ قائد ثورة العبيد الكبرى فقد هزم على يد الأول الذى واصل تقدمه ليقضم

ما يستطيع أن يقضمه من التفاحة الرومانية المتنازع عليها .. فكان له ما أراد وأكثر ، حيث فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ثم تقاعد مكتفيا بما حققه من ثراء عريض .. وأما ثالثهم — كراسوس — فقد رأى أن يغزو بلاد فارس .. ثم هزمه البارثيون وقتلوه شر قتله .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وماذا عن الآخرين بومبى ويوليوس قيصر ؟

أجاب الشيخ : فرغت الساحة من غيرهما .. وبدأت المناوشات فورا .. واستمرت وقتا طويلا ، بل وانتقلت الى أكثر من مكان من أرجاء الامبراطورية الشاسعة .. وأخيرا هزم قيصر بومبى ، الذى قتل بمصر التابعة لدولتهما .. فأصبح الرجل بذلك — يوليوس قيصر — البطل الوحيد فى الساحة ، بعد أن اختفى الجميع .. أو بتعبير آخر أصبح وحده سيدا على العالم الرومانى ..

ذلك أنه بعد أن قضى على منافسه الوحيد ، نودى به « ديكتاتورا » لمدة عشر سنوات .. ثم مدى الحياة .. وهى الفترة التى قصدنا اليها من حديثنا هذا كله .

قال الشيخ المؤرخ : ذلك أن الرجل ما كاد يستتب له الأمر ، بعد أن أكلت الحرب أصحابه ، حتى بدأ يلفت الأنظار اليه ، ليس بالسيف وحده ، وانما بالعقل والمنطق .. وقد دفعانه الى أن يكون رجل اعلام من الطراز الأول .. بالاضافة الى أنه كان بطلا حربيا مرموقا ، وقائدا خبيرا .. وسياسيا داهية ..

أما اعلامه فظهر على أكثر من صورة ، كانت بعضها تمثل مقدمات عديدة لمكونات شخصيته الاعلامية عامة ، الصحفية خاصة ، حتى وان لم تظهر الموهبة الثانية الا متأخرا ، ولكنها على كل حال جاءت فى مرحلة من النضج السياسى والاعلامى .. معا ..

وقد تمثلت هذه المقدمات الاعلامية ، أو تلك التى تقف لتدل على جانب الاعلام فى شخصه فى أكثر من صورة ، وبأكثر من أسلوب ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر أنه كان يركز الاعلام عن أفكاره ومبادئه فى المواقع الحساسة ، كالمعابد والأسواق وحلبات السباق والمصارعة ، وأثناء عروض المسرح الرومانى .. منتهزا فرصة هذه الجماهير المحتشدة التى نجح فى تجنيدها — الى حين — لصالحه ، وغرس بين عقولها أفكاره ، كما نجح كذلك فى أن يدخل بهذا الجانب الدعائى الضخم الى قاعة مجلس الشيوخ الرومانى نفسه — السيناتو — منتهزا فرصة الانتصارات العديدة التى أحرزها .. مستغلا لها كل الاستغلال ، بل انه نجح كذلك فى ادخال الرهبة الى قلوب هؤلاء وهؤلاء .. فى ساحات المصارعة والتحدى ، وجنوده يتقاذفون جماجم أعدائه بأيديهم وبأرجلهم أيضا ، مما يصح اعتباره أساسا للعبة كرة القدم ، وان كان أساسا دمويا .. ومصارعوه ينتصرون على غيرهم بعد أن نجح فى استمالة عدد من العبيد المصارعين اليه .. وكذا فى ساحة مجلس الشيوخ عن طريق الترغيب والتهديد معا ..

كذلك يعزى الى هذا الرجل ، أنه ابتكر نوعا جديدا من الخطب التى لم تكن معروفة من قبله ، ذلك أن الخطباء كانوا يتجهون بخطابتهم الى الموعظة والحكمة ، واعطاء المثل ، والقصص الهادفة التى يأخذ منها المستمع بعض العبر .. وهكذا كانت الخطابة اليونانية .. ولكن الرجل أدخل عنصر رواية أخبار المعارك التى يخوضها جنوده ، ضمن خطبه ، فجاءت بذلك خطابة « اعلامية » أو خطابة « اخبارية » لأنها كانت تروى بطولات هؤلاء ، ومواقع انتصاراتهم ..

وأما عن نهضة الخطابات الاخبارية التى كان يتبادلها كبار القادة وأثرياء روما ، فقد بلغت فى عهده مالم تبلغه فى عهد غيره من القادة ، أو الأباطرة .. وكتبت فى كل شىء وكان لكتابها من سعة الموضوعات وشمولها وتنوع الأغراض ما جعلها تتفوق عددا ونوعا ...

وجميع هذه الصور والمشاهد تقف فى جانب الرجـل ، والقـائد ، والسياسى والاعـلامى ولكنها ــ جميعها أيضـا ــ تعتبر مقـدمات أو ارهاصات للعمل الصحفى الكبير الذى تم فى عهده .. والذى جعل منه ، وبشهادة أكثر المراجع التى تناولت تاريخ الصحافة العالمية .. من أوائـل هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على ذلك الدور الكبير الذى يمكن أن تؤديه الصحافة ..

وصحيح أن معرفة روما بالخطابات الاخبارية كانت تعود الى ما قبل عهده بمئات السنين .. وأن دولتها الكبرى ، أو امبراطوريتها قد عرفت وكما يقول د . ابراهيم امام ، الصورة الأولى لاذاعة الأنباء منسوخة باليد فى أوربا ، ممثلة فى تلك النشرات الحكومية التى يكتبها النسـاخون وتوضع فى الميادين الهامة(١) .. كل ذلك صحيح ولكن ما أحدثه الرجل يجعل له مكانا بارزا ، استحقه عن جدارة ، فى تاريخ الاعلام .. وذلـك عندما رأى بحصافته أن يقوم بتحويل مثل هذه النشرات الى صـحيفة كاملة صدرت منذ ٢٠٠٠ سنة ، وعلى وجه التحديد خلال شهر يناير عام ٥٩ • ق•م • وأطلق عليها اسم « الوقائع أو الأحـداث اليومية »(١) وهو الاسم الذى أصبح يحفظه عن ظهر قلب جميع طلاب الصحافة وهواتها فى العـالم كله .. ويتحدثون عنها وعن صاحبها حديثا محببا الى قلوبهم حيث تمثل هذه « الجـذور » الصحفية ، الضـاربة فى أعمـاق التربة البشرية .. كذلك ولعنايتها باعلام الشعب الرومانى واخبـاره فقد أطلق عليها المؤرخون اسم « أحداث الشعب أو الأحداث الشعبية »(٢) .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : انها لقصة عجيبة حقا .. فهـل تحدثنى بالمزيد عن هذه الصحيفة « الجدة » ..

قال الشيخ : فى بداية صدورها لم تكن تختلف كثيرا عن هذه الأوراق الاخبارية الأولى التى كانت روما مركزا لصناعتها وتجارتها وتبـادلها . وباستثناء الانتظام فى الصدور وتناولها للاحداث يوما بيوم ــ كما يؤخذ

ذلك من اسمها ــ فانها لم تكن تختلف كثيرا عن النشرات الحكومية التى كانت سائدة فى هذا العهد ، بمعرفة الناسخين والتجار ، أو بمعنى أكثر دقة كانت الأحداث اليومية أو الشعبية تطويراً لهذين الوسيلتين .. ولكن ذلك لم يكن يشفى غليل الرجل ــ يوليوس قيصر ــ أو يتناسب مع حجم طموحاته ، وما يريد لنفسه ولأبرز أدوات الدعاية له ولعهده ، ولصورة مجتمع روما بمن فيه ، وما فيه .. كما أراد لها .. ومن هنا ، فقد بدأ يدخل اصلاحاته « التحريرية » و « الادارية » عليها .. فزاد من عدد ناسخيها واختار لها بنفسه المواقع الهامة كالميادين ومفترق الطرق والأسواق والشوارع المؤدية الى الملاعب الرومانية القديمة ، وجدران المسارح وبيوت القادة والأثرياء وكبار التجار .. حيث كانوا يلصقونها على جدرانها ، كما كانت تقدم الى من يطلبها من الرجال والنساء على حد سواء .. حيث يحكى بعض مؤرخى هذه الفترة ، أن البيوت الرومانية كانت تزدان بها .. وأن سيدات المجتمع الرومانى كن يقدمنها الى ضيوفهن كدليل على حب المعرفة والمعاصرة فى آن واحد ..

ذلك كله من حيث الطفرة التى حدثت فى توزيع الصحيفة ، والتى استندت الى قاعدة تحريرية كبيرة ، تمثل ثورة فى مضمونها الاخبارى ، تحققت من ورائها الفائدة التى كان يريدها مصدرها ، وربما أكثر منها .. وعلى وجه الخصوص من نشرها لوقائع جلسات مجلس الشيوخ الرومانى، الذى كان يقرر مصائر القضايا الشعبية والسياسية والعسكرية الهامة .. فساهمت بذلك فى إطلاع الشعب عليها .. ودخلت محاورات ومناقشات وجدل الأعضاء الى البيوت. ثم بدت هذه الثورة التحريرية كذلك فى التنويع الكبير الذى أدخل على مادتها الاخبارية ، حيث مارست مهمتها الجديدة فى نشر الأخبار والأحكام القضائية والقوانين الجديدة ، وأخبار حملات الرجل العسكرية شرقا وغربا .. واذا بها تنتقل من ذلك الى نشر أخبار المجتمع العادية من مواليد ووفيات وزيجات جديدة ، وحتى ما يقول

به علماء الفلك والمنجمون الأوائل ، مما يعتبر أساسا للنشرة الجوية ، كما أبدت اهتماما بالأخبار المثيرة كتلك التى تتناول الجرائم وفضائح العائلات وقصص الغرائب والظواهر الشاذة ...

ويقال أن يوليوس قيصر قد حول من بعض أعمدتها مادة توجيهية كبرى لتحقيق أكثر من هدف من بينها ـ بل فى مقدمتها مواجهة أتباع القادة الآخرين الذين سقطوا فى الطريق ، بينما تابع هو مهمته الى الحكم ولتهدئة بعض مشاعر الثورة التى كانت تتجدد من حين لآخر بين العبيد من جانب، والقوى المعارضة له فى مجلس الشيوخ نفسه .. تلك التى كانت ترى أنه ما وصل الى الحكم الا فوق مئات وألوف الجثث الرومانية ، وفى مقدمتها جثة غريمه « بومبى » الذى كان بعض أتباعه من ذوى الأصوات المرتفعة فى مجلس الشيوخ ..

ويقال أيضا ـ وكدليل قوى على اهتمام الرجل بها ـ أنه كان لهذه الصحيفة بعض المراسلين فى المدن الرومانية ، من هؤلاء الذين كانوا يوافونها بالأنباء أولا بأول ..

قال الشيخ المؤرخ : وكم كانت تلك تجربة فريدة ، وتدل على عقلية اعلامية وتنظيمية كبيرة لا شك أن الرجل قد اكتسبها خلال معاركه العديدة ، وفى ساحات القتال نفسها ..

على أن الرجل بعد أن واصل زحفه الى مصر ، حيث وقع فى غرام « كليوباترة » ملكتها وآخر البطالمة عاد الى روما حاملا معه تلك الأفكار العديدة التى ركبت رأسه على ضفاف النيل ، وعلى شاطىء الاسكندرية، خاصة وهو يتنزه مع الملكة فى المكان الذى ما يزال يعرف باسمه حتى اليوم ـ كامب سيزار ـ أو معسكر قيصر .. كما حمل معه أيضا وكما يقول هـ . ج ديلز فى كتابه « موجز تاريخ العالم » فكرة الملك المؤله

وهى فكرة مصرية أصلا(٤) .. وفى روما .. أثار عبثه ومجونه بوادى النيل ، وأثارت هذه الفكرة نفسها ، ونسيانه لبلده ، ثائرة الثائرين عليه ، خاصة هذه البقايا المعارضة من أتباع بومبى الذين نجحوا فى استمالة عدد آخر من أعضاء مجلس الشيوخ اليهم .. كان من بينهم صديقه الحميم وتلميذه وابن زوجته « بروتس » وانتهى الأمر بأن اجتمع هؤلاء عليه ، وطعنوه فى ساحة المجلس بالخناجر ، فوقع صريعا تحت أقدام تمثال منافسه المصروع « بومبى » ..

وبينما كان الرجل يلفظ آخر أنفاسه ، ويحاول أن يتمالك نفسه ، لينظر بعينيه الى قاتليه .. فيجد وسطهم صديقه ، وخليله ، فتكون آخر كلماته تلك الكلمات المعاتبة المريرة ، التى جرت مجرى الأمثال : « حتى أنت يا بروتس » .

كان الناسخون يستعدون لاصدار عدد جديد من الصحيفة التى أنشأها ، ومئات الأعداد من الخطابات والنشرات الاخبارية ، التى تحمل الى أرجاء الامبراطورية خبر نهاية الرجل .. القائد .. الصحفى العاشق أيضا .. يوليوس قيصر .. لتبحث روما عن سيد جديد لها ..

نجح هو الآخر فى استغلال هذه الصحيفة الى أقصى حد ..

ولكن تلك كانت قصة أخرى .

---

(١) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٥

(٢) Acta Diurna

(٣) Acta Populi

(٤) هـ . E . ويلز – ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد : « موجز تاريخ العالم » ص : ١٥٢ – ١٥٣

هنرى الثامن

اضرموا النار فورا .. فى هذه الأوراق الخطرة .. !

هنرى الثامن :

اضرموا النـــار فــورا
فى هـذه الأوراق الخطرة

كان الأصدقاء من أثرياء الانجليــز وتجارهم قد وقعــوا فى غرام « فابى » أو هكذا كانوا يسمون الرجل ..

ولم يعدم « ا . ب . فابيان » وجود عدد من المعجبين به ، وبعمله ، وبضاعته حتى بين صفوف رجال البلاط الملكى والأمراء وكبار القادة ..

أما الذين كانوا يعملون تحت امرته من « مراكبية » وجامعى أخبار وعبيد فقد كان هؤلاء من أشد الناس اعجابا به .. ولم لا ؟ ، وهو يعاملهم جميعهم ــ على قدم المساواة ولم يحدث أن ألقى على أحــدهم بكلمــة جارحة .. ممن يعمل عنده من العبيد من هم أقل عددا ..

ولذلك فعندما عاد الرجل من جولته اليومية مبكرا .. ولاحظ رجاله تجهم وجهه .. وأن حمرة غير عادية تعلو هذا الوجه الهادىء .. أسقط فى أيديهم جميعا ، ونظر كل واحد منهم الى صاحبه وقد ارتسمت فوق وجهه علامة استفهام كبيرة .. بينما ألقى الرجل بقبعته على كرسى عتيق ، ومال برأسه على طرف مكتبته وذهب بعيدا ..

أسرع رئيس العبيد « أماندو » يستدعى الشاب « جاكى » فقــد كان هو الوحيد الذى يستطيع أن يأتى بالخبر اليقين ، وأن يسرى عن فابى ويهون عليه أيضا ..

وجاء « جاكى » ونظر اليه « فابى » كمن كان يتوقع مقدمه أو يريد ذلك ، ثم قال له : اغلق باب المكتب واجلس هنا الى جوارى .. فلبى جاكى

أمر صديقه الكبير ووالده الروحي فورا ثم انطلق فابى محدثا تلميــذه وصديقه .

ــ اسمع ياجاك .. لقد فعلها الرجل

ــ من هو ؟ .. وماذا فعل ؟

ــ ومن الذى يستطيع أن يفعلها غيره ؟ .. لقد نفذ تهديده السابق، الذى سبق أن هدد به خلال الشهر الماضى ، ومر الشهر على خير ، ولكننى أبلعت شخصيا وأبلغ غيرى كذلك ، بأن علينا جميعا أن نجمــع أوراقنا ونذهب بها الى ضابط الشرطة .. والا فان الحرس الملكى بنفسه سيقوم بجمعها واحراقها .. ثم يكون السجن مصيرنا .

نظر جاكى الى الرجل .. وقال له .. ألم أقل لك ذلك ؟ ألم أحاول لفت نظرك الى أن الملك « هنرى » ينفذ تهديداته دائما .. ؟ ولكنك كنت تقول لى أن أصدقاءك من رجال البلاط سوف يقفون الى جوارك ، وأن الأمراء سوف ينتصرون لك ..

ويرد فابيان : حدث ذلك فعلا .. لقد وعدونى بالوقوف الى جوارى أكثر من مرة .. بل ان أحدهم طمأننى ، وقال لى أنه لا داعى للحصول على أذن من الملك شخصيا مادامت هذه الأوراق التى تبيعهــا لا تكتب الا ما يريده الملك ، وما يريده الأمراء ، والأميرات وكبار القــادة .. فلماذا سكتوا جميعا ؟!

ــ جاك : اسمع يا عزيزى .. انه لا يستطيع أن يبقى عليك وحدك .. واذا فعل ذلك ، فماذا يقول الآخرون عنه ؟ ..

ــ فابيان : ألا يذكر لى وقفاتى الطويلة معه ، فى معارضة العديد من أعدائه ؟ .. ألا يذكر لى أن رسائلى كانت تأتى من ميادين المعارك ، حاملة أخبار انتصاراته العظيمة فى اسكتلندا حتى أننى كنت أجهد عبيدى أكثر من مرة فى نسخ المئات منها ؟ .. ألا يذكر لى أنه هو شخصيا قد استدعانى

وطلب منى اعادة نسخ بعض هذه الأوراق ؟ .. لقد ربت هنرى يومها على كتفى .. وقال لى : أيها الصديق .. لقد دعانى بصديقه .. وقدم لى بيده الكأس الملكية ..

ـ جاك : ذلك شيء .. ورغبته فى امتلاك هذه الأوراق شيء آخر .

ـ فابيان : آه .. اننى أعلم من هـو وراء هذه الثـورة فى رأس مليكى ؟ .. أعرف تماما من هو صاحب هذه الأفكار السوداء ؟ .. انه لن يخرج عن واحد من ثلاثة .. اما أنه ذلك اليهودى المخادع الذى يعمـل مستشاره الخاص ، ويريد منى أن أدفع له ، واما أنه البرنس أوف شيفيلد الذى تجاهلت دوره فى المعارك الأخـيرة .. لأنه كان دورا حقـيرا مثله ولكنه .. بعد كل معركة صغيرة ، يأتى الى منزلى ويطلبنى ليملى عـلى ما يؤكد بطولته الأسطورية .. لقد مللت ذلك الرجل الذى يريد أن ينتزع وحـده دور البطولة .. حتى عبيدى ضاقوا ذرعا بثقـل دمه .. وبنكاته الحقيرة التى يطلقها عليهم ، وهو يمر بينهم مختالا كما الطاووس .

ـ جاك : والثالث ؟

ـ فابيان ـ انك تعرفه حتما .. انه قسيس الكنيسة المجاورة لقصر الملك ، والذى بدأت زياراته لهنرى تتوالى حتى كاد أن يصبح نديمه ، وناصحه الأمين ، وان هذا القس الأرعن لا ينسى لى ملاحظة أبديتها عندما جاء ـ فى حضرة المليك ـ وعلى مشهد من عدد من الأمراء ليبدى رأيا عجيبا ، ينم عن قصر نظر غريب ، وعن فكر عجيب يمكن أن تعاقبه عليه الكنيسة ذاتها .. وكان لابد أن أتدخل .. ومن يومها والرجل يحقد على جميع تجار الأخبار .

.. وانتهت المحاورة بأن طلب فابى ، تاجر الأخبار الشهير فى لندن ، من تلميذه وصـديقه الذى قام بتربيته ، منذ توفى والده .. طلب منه أن يحمل كل النسخ الموجودة فى منزله ، وفى الكوخ الخشبى الكبير الذى يوجد به الناسخين ، وكذا النسخ الموجودة فى مكتبه ، والتى يمكن أن

تكون عند جاكى نفسه .. يحملها جميعا الى مقر الشرطة ، ويسلمها لهم ، ويتسلم منهم ما يفيد تسليمها .. كما أوصاه بأن يفعل ذلك على وجـــه السرعة ، حتى لا يدهم المكان الحرس الملكى ويقوم أفراده بحمل النساخ عنوة ، الى حيث ينفذ الملك تهديده باحراقها وسجن أصحابها .. ذلـك التهديد الذى يسرى مع الخيوط الأولى لصباح اليوم التالى ..

حدث ذلك كله ، عندما كانت تجارة الأخبــار قد بدأت تروج فى انجلترا ، وبشكل منقطع النظير .. جعل العديد من الأذكياء يقبلون عليها، اما برغبة كامنة فى أنفسهم واما يعملون كممثلين لعدد من كبار الأثرياء ، أو التجار ، أو رجال البلاط أنفسهم ..

وكان قوام هذا العمل الاخبارى ، الذى كان يدر على صاحبه ربحا كبيرا ، قاربا يقــوده أحد مندوبى التاجر الكبير ، يذهب به الى السفن القادمة ، قبل أن تدخل الى الموانىء الانجليزية حيث يقوم بجمع الأخبار الهامة ، التى يرسلها مع آخر يركب جوادا سريعا ، ليقوم هــذا بدوره بتسليم الرسالة الاخبــارية ، الى آخر .. وهكذا حتى يصــل الجــواد وراكبه ، وفى جعبته ما حصل عليه الأول من أخبار .. كما كان يبعث بها أحيانا تحت أجنحة الحمام الزاجل ، من الموانى ، أو السفن نفسها ، أو ميادين المعارك ، حيث كان « المخبر » يحمل معه حمامة يخفيها فى سترته حتى اذا وصلت الى مقر العمل ، قام أحد العبيد المتخصصين ، والذى كان يجلس فى انتظار حمائمه التى يبعث بها المندوبون تحمل رسائلهم ــ قام بامساك الحمامة وتقديم الحب والماء المعطر لها .. أما الرسالة نفسها فتمضى الى حيث يجلس عدد من العبيد وأمامهم أوراق « الصحيفة » ــ مــع التجاوز ــ والأحبار ، وأقلام البوص ، أو ريش الطيور ، حيث يقومون بنسخ العشرات من هذه الرسائل الاخبارية المتجمعة لديهم .. ليبدأ بعد ذلك عبيد آخرون فى توزيعها على المشتركين ومن يدفع .. وأحيــانا من يدفع أكثر ..

أما فابيان نفسه ، فكان « متخصصا » فى نشر أخبار الملك ، والقصر الملكى والأمراء ، وأحيانا الأميرات ، وكبار الجند ، والاثرياء ، ولذلك فقد أصاب شهرة عريضة خاصة عندما أقبل على مساعدته عدد من أفراد عائلته الذين كانوا يملكون الجياد ، وعندما نجح فى نقل أخبار انتصارات الملك هنرى الثامن ، ووقف الى جانبه كثيرا ..

ولكن .. عندما بدأت الفتن تعمل عملها فى المجتمع الانجليزى ، على أثر الانتصارات العديدة التى أحرزها الانجليز على غيرهم ، خاصة الفرنسيين ، وعندما بدأ الملك نفسه يتحلل من قيود الكنيسة الكاثوليكية التى أراد رجالها تكبيله بها .. وقرر هو — وهو القائد المنتصر — أن يواجه رجال الدين الكاثوليكى الذين نجحوا فى اثارة الناس ضده ، وكذا عندما بدأت بعض الصحف المنسوخة أو « الرسائل الاخبارية » كما كان يطلق عليها — تهاجمه وتهاجم أفراد عائلته وحاشيته ، كان لابد من اجراء ما .. وصدر هذا الاجراء فى صورة مرسوم ملكى يطلب من أصحاب هذه الرسائل الحصول على اذن منه شخصيا قبل اصدارها ..

ولكن المرسوم لم يفعل شيئا كثيرا .. فقد كانت الرسائل تصدر أحيانا بدون اذنه ، وعندما أحكم الحرس الملكى سيطرته على بعضها صارت هذه الرسائل تصدر خفية ، مما زاد فى اقبال القراء عليها وقفز بأسعارها الى أرقام خيالية فى هذا العهد .. وهذا بدوره ضاعف من عدد « تجار الأخبار » الذين كانوا يعملون فى ميدانها ، حيث بدأ هؤلاء يستأجرون الفنانين لاضفاء بعض اللمسات الفنية عليها ، كما اشتروا العبيد وقاموا بتعليمهم على نفقتهم الخاصة ، ثم استخدموهم كناسخين .. تماما كما كان يفعل فابيان ، وكما سبق وأن فعل ذلك والده نفسه .. ومع مرور كل يوم ، كان الملك ومن خلفه عدد كبير من المؤيدين الذين بدأت هذه الصحف المنسوخة تثير ثائرتهم لسبب ما .. حتى وان كان هذا السبب هو تجاهل أخبارهم .. كان هؤلاء جميعا يزدادون اقتناعا بأن من الأهمية

السيطرة الكاملة على هذه الأوراق الخطيرة ، التى ترفع من تشاء ، وتخسف بمن تشاء ... فماذا لو انها التفتت الى ما ينويه الملك من الخروج الكامل على الكنيسة الكاثوليكية .. أو اذا وقعت أخبارها فى أيدى الأعداء ، أو اذا استطاع محركو الفتن فى عهده استمالة عدد من العاملين فى ميدانها ..

أضف الى ذلك كله أن « هنرى الثامن » كان قد بدأ يقتنع بالرأى الذى نادى به عدد من أسلافه ، كبحا لجماح هذه الرسائل وامعانا فى السيطرة عليها .. وحتى لا يصبح الجميع سواسية بالنسبة لها ، أو تكون هى بكل ما أتيح لهـا من قوة ، فى خدمة الأفراد العـاديين ، أو يكون باستطاعة « الرعاع » قراءة أخبار الطبقات العليا ، وأصحاب الدم الملكى وكبار القادة .. على صفحاتها .. ان الحل هو فى احتكار الحكومة ، أو القصر لها ، وجعلها تحت سيطرة التاج ، أو بتعبير آخر .. رسائل ملكية تحتكرها الحكومة ، تماما كما كانت تحتكر فى هذه الأوقات تجارة الصوف وفرض الضرائب ، وكما تحتكر الحكومات الآن تجارة البتـرول ، أو المحصول الزراعى الأول كالقطن أو القمح ويحرم على العاديين من الناس التجارة فيه ..

أضف الى ذلك أيضا ، أن سيطرة هنرى عليها ، تعنى أن تكون فى يده سلطة نشر أو عـدم نشر أية مادة من موادها ، فيتحكم بذلك فيمـا يعرفه الناس ، ومالا ينبغى أن يعرفوه ..

ومادام الاجراء السابق ـ الحصول على اذن من الملك شخصيا ـ لم يعد مجديا ، أمام هذا السيل المتدفق من الرسائل والكتب الاخبارية ، وأمام هذا السيل المتدفق أيضا من الأخبار المتنوعة التى تجد فيها هـذه وتلك مادة مقروءة تماما .. ويقبل عليها الجميع .. وأمام هذه المكاسب العديدة التى يحققها تجار الأخبار .. مادام ذلك كله قد أصبح واقعا تعيشه البلاد فلابد من المفاجأة .. والقضاء على جميع الرسـائل الخارجة على سيطرة الملك .. وبعدها يسهل عليه أن يفعـل بها ما يشاء ، وأن يجعلها

تكتب ما يريده هو .. وليس أحدا غيره ومن هنا فقد عاد « فابيان » الى عماله متجهما على غير عادته .. تعلو وجهه حمرة محيرة ، وغريبة فقد كان أول من علم من التجار بالنبأ الغريب ، بالقرار الخطير الذى أصدره هنرى الثامن أو بالأمر الملكى الشهير بجمع جميع الرسائل الاخبارية التى صدرت بدون اذن منه ، واحراقها فى ظرف ٢٤ ساعة فقط .. أو أن يتعرض أصحابها للسجن .. لقد صاح الملك فى رجال الشرطة وحرسه .. عليكم أن تجمعوا هذه الأوراق الخطرة التى باتت تؤرق الملك ، والحاشية والأمراء ، والأميرات .. وأن تضرموا فيها النار فورا .. والويل لاصحابها الذين يحاولون المراوغة ، كما راوغوا فى الشهر الماضى .. ان السجن الطويل فى انتظارهم ..

ولم ينس الملك أن يهدد رجاله أيضا فأردف قائلا .. والويل لكم اذا تهاونتم فى تنفيذ ذلك ..

جمع جاكى النسخ الموجودة من رسائل فابيان الاخبارية .. بينما كان صاحبها يجلس منهارا على كرسيه الذى طالما جلس عليه وهو يكتب المدائح الملكية ، ويدبج المقالات ويحرر الأخبار التى تؤكد عظمة مليكه .

وبينما انطلق جاكى بكل النسخ الموجودة .. كان نحيب العبيد يعلو .. فقد كانت مصيبتهم أعظم .. عبر عنها أحدهم بقوله والدموع تملأ عينيه .. من أين لنا اذن أن نعيش ؟ .. وهذا هو الملك يأمر باحراق بضاعتنا ؟ .. لقد كان أجدر به أن يحرقنا نحن أيضا .. أليس كذلك يا صديقى أماندو ؟ ..

ولكن أماندو لم يجب .. فقد كان مشغولا بعمل آخر .. لقد كلفه فابيان بأن يخرج الى السوق مع عدد من أعوانه التصرف بالبيع فى جميع الجياد الموجودة فى الأسطبل ، وجميع الحمام الزاجل الموجود طرفه .. فلم تصبح هناك حاجة لها .. أو له .

اليصابات

اقطعوا يده
حتى لا يكتب
مقالة أخرى ..

اليصـــابات :

اقطعــوا يده
حتى لا يكتب
مقالة أخرى

يقولون أنها « من العظيمات فى التاريخ » .

ويقولون أيضا أنها قادت انجلترا بشجاعة عشرة ملوك من الرجال .

ويقولون كذلك .. أن عصرها يعتبر من أفضـــل عصـــور التاريخ الانجليزى ..

وكلمات .. وقصائد ، وروايات وكتب .. آلاف مؤلفة .. جميعهـــا تكيل لها وللباقتها وشجاعتها وحكمتها وحسن تصرفها عبارات المديح ، وسطور الثناء ، كما لم يحدث بالنسبة لامرأة قبلها تلك هى ملكة الانجليز الشهيرة اسما ، وعصرا ، وسلطانا « اليزابث الأولى » أو « اليصابات »..

ابنة « هنرى الثامن » ـــ مضرم النار فى الأوراق الخطرة ـــ من زوجتــه « آن بولين » .. واخت الملك « ادوارد السادس » والملكة « مارى » .. أى أنها ملكة ابنة ملك .. وأخت ملك .. وأخت ملكة .. وبقية العائلة من ملوك أسرة « تيودور » .

وماذا أيضا ؟

لقد ولدت الملكة فى ٧ سبتمبر ١٥٣٣ فى قصر جرينتش .. وعنــدما كانت أختها « مارى » تتولى عرش انجلترا .. اشتركت اليصـــابات فى ثورة قامت ضد شقيقتها .. فما كان من هذه الأخيرة ، وقد اتضح لها

الدور القيادى الذى لعبته أختها فى هذه الثورة .. الا أن تأمر بسجنها فى برج لندن ..

أى أنها منذ ريعان شبابها كانت فتـاة « متمردة » و « ثورية » .. فما الذى تنتظره البلاد منها ؟ وما الذى يحدث على يديها ؟

.. ها هى تتولى العرش الانجليزى فى الخامسة والعشرين من عمرها ـ عام ١٥٥٨ م ـ فما الذى فعلته هذه المرأة .. الثائرة .. الملكة ؟

لقد كان لها فى البـداية أكثر من اجـراء ثائر متمرد اتخذته فور جلوسها على العـرش .. لعل أبرزها أنها أمرت ـ لأول مرة ـ باقامة الشعائر والصلوات فى كنائس انجلترا باللغـة الانجليزية .. كما اتبعت ذلك باجـراء ثائر متمرد آخر عندما أعلنت أن المذهب البروتستنتى .. هو مذهب بلادها الرسمى .. ويالهما من قرارين أثارا عليها كثيرا من الهجوم ، وفجرا عـددا من الأحقـاد الكامنة ، ووصلا الى حد اعلان الحرب ، ولكنها كانت مثلا أعلى للثقة ، ورباطة الجأش .. فى الأوقات العصيبة .. رغم اندفاعهـا وثوريتها .. ومن هنا فقـد اجتازت ببلادها أزمات عديدة .. بل وحققت بلادها فى عهدها ما لم تحققه فى عهـد قبل عهدها .. اللهم الا نادرا ..

ومن ذلك مثلا .. بل فى مقـدمة هذه الانجازات نفسها مد النفوذ الانجليزى الى أماكن لم يصل اليها من قبل ، وتوسيع التجارة فى القارة الأوربية والشرق .. وانشاء الشركات العمـــلاقة وفى مقدمتها الشركة الاستعمارية العتيدة المسماه بشركة « الهند الشرقية » .. كما أن ذلك العهد نفسه هو الذى شهد الانتصار البحرى الكبير للأسطول الانجليزى على الأسطول الأسبانى الأشهر المسـمى « الأرمادا » وذلك فى يوليو ١٥٨٨ .. كما أن من مفاخر هذا الحكم نفسه استعمار أمريكا ..

وقد ساعد ذلك كله على توفير المناخ الملائم الذى ساعد ليس على ظهور العبقريات العلميـة والأدبيـة فقط .. كعبقرية بيكون وشكسبير وغيرهما .. ولكنه ـ وكمـا كان من المنتظر ـ سـاهم أيضا ومساهمة فعالة فى مزيد من الانتشار للرسائل والكتب الاخبـارية المنسوخة بعد أن وجد أصحابها فى أحداث هذا العهد كلها معينا لا ينضب من المـادة الاخبـارية التى تمـلأ هذه الأوراق .. وجميعهـا كانت تعكس هذه التطورات كلها .. فى ميادين المعـارك مع الأعداء ، أو الميادين العلمية أو الأدبية أو الدينية الأخرى ..

بل ان بعض الأثرياء نجـدهم فى هذا العصر وقـد بدأ توظيفهـم لجامعى الأخبار من هذه الأماكن كلها ، فكانوا يختارونهم من بين الرجال الأقوياء الذين يستطيعون متابعة المعارك فى ميادينها الحقيقية ، كما لم يبخـل عـدد من العـاملين بالجنـدية أو البحـرية بأخبـارهما على هؤلاء .. أضف الى ذلك أنهم كانوا يتسللون الى الكنائس والمقـاهى والصالونات .. ويفتحون آذانهم جيـدا لكل كلمـة تقال .. حتى نمت المادة الاخبارية نموا هائلا على صفحات هذه الرسائل والكتب .. وبدأ عدد من الناس يترك تجارته الحقيقية للاشتغال بها ..

كذلك .. فان عددا من أعوان الملكة ـ اليصابات ـ نفسها ، كان يعمل فى هذه التجارة المربحة .. تجارة الأخبار .. ضاربا أكثر من عصفور بحجر واحد .. فهو من ناحية يعمل على كسب ود مليكته بالدعاية لها ، وتسجيل ازدهار فترة حكمها الطويلة ، وانتصاراتها ، وهو من جهة ثانية يدخل تجارة لا بأس بها ، وتدر عائدا مناسبا ، وأصبحت لها تقاليدها ، ومجالات أنشطتها المعروفة .. وذلك بالاضافة الى تمكنه من اشباع بعض هواياته ، والكتابة عن نفسه ، وعن أفكاره ..

وكان فى مقـدمة هؤلاء الأعـوان وصيف الملكة نفســه المســمى « الايرل أوف اسكس » (١) ذلك الذى كان من أكبر الدعـاة لهـا ..

ولانتصاراتها الحـربية ، وجهـوده هو أيضا ، حتى قيل أنه كان يشرف بنفسه على اصدار عدد من هذه الرسائل والكتب الاخبارية المنسوخة ، كما كان يوظف عددا كبيرا من جامعى الأخبـار ومحرريها الذين كانوا يتولون جمع مادتها وكتابتها .. ويقال أن هذه الرسائل بالذات كان لها الفضل الكبير فى تسجيل كثير مما عرفه المؤرخون والدارسون والقراء عن عهد هذه الملكة ، بعد أن عثروا على عدد كبير منها فى أماكن متفرقة .. ذلك كله على الرغم من أنهـا كانت رسـائل وكتب ونشرات منسوخة أو مخطوطة ـ بخط اليد ـ وليست مطبوعة ..

على أن هذا الانتشـار الكبير نفسـه والذى تحقق لهذه الوسيلة الاعلامية الناجحة نجاحا منقطع النظير .. كان يغرى الأعداد الكبيرة من المغامرين بالدخول فى حلبتها .. أو التسلل للعمـل بها ومن هنا ، ولأن الكسب السريع عن طريقها كان هو هدفهـم الأول ، وانتهازا لفترات انشغال الملكة بألوان الصراع العديدة التى كانت تخوضها ، فان بعض هؤلاء عندما كانت تعوزهم الأخبار الجادة من عسكرية وسياسية وعلمية وأدبيـة ، على الرغم من كثرتها ، فان من يتبعولهم من جامعى الأخبـار كانوا يولون وجوههم شطر أحاديث المقاهى ، والصالونات ، وما تلوكه الألسنة فيهما وفى غيرهما من المجتمعـات من أحاديث يقطع بها السمار أوقاتهم .. وما يتردد خلال هذه كلها ، من حقائق ، وشائعات ، وأكاذيب ونحوها .. كانوا ينقلونها الى صفحاتهم ، بعضهم ينقلهـا كمـا هى .. والبعض الآخر يضيف اليها كثيرا من عندياته ، ويلبسها الاطار الصحفى المثير .. ولا بأس أيضا من قليل من المشهيات « المصنوعة » أو تلك التى تقوم بنات أفكار جامع الأخبـار ، وربما تاجرها أيضا ، بالدور الأكبر فى « فبركتها » فكانت تتحـدث فى أحـوال كثيرة عن بعض الجـرائم المثيرة ، وعن قصص الحب والزواج والطـلاق وفضـائح العـائلات

الانجليزية ، مما ساهم فى اقبـال جمهرة كبيرة من القراء عليها .. كأية صحافة مثيرة أخرى ..

ولأن الانتشـار يدفع الى مزيد من الانتشـار ، والكسب ، ولأن النجاح عند هؤلاء كان لا يخرج عن هذه الحدود .. فقد تجرأ أصحاب هذه الرسائل وبدأ عـدد منهم يقتحم بأذنه وأنفه عـددا من الأسوار العالية .. أسوار بيوت العائلات الانجليزية الكبرى .. ليتسمع ويتشمم أخبارها ومضى يقدمها على صفحاته .. حتى اذا أصاب مزيدا من الذيوع دفعته جرأته الى أن يقتحم هذه المرة معاقل قصص الحب ، والطـلاق ، وحكايات العـلاقات العديدة التى تنشأ بين الأميرات والأمراء من أسرة تيودور نفسها ، وفى بلاط اليصابات أيضا ..

وعندما وصل هؤلاء حتى العائلة المالكة ، والبلاط والحاشية .. كان من السهل أن تلتقط آذانهم بعض الأخبار المتطايرة من هنا ومن هناك .. عن الملكة نفسها ..

ويبدو ــ بل هو الواقع فعلا ــ أن الملكة الحاكمة القوية .. وعلى الرغم من كل ما تحقق لها من سـطوة ونفـوذ ، وما تحقق لبلدها على عهدها .. يبـدو أنه كانت لها ــ كبشر ــ علاقاتها الخاصة جـدا .. بل ونزواتها المتمـردة أيضا .. تلك الى نسجت حولها العـديد من قصص الغموض والتشويق التى يختلط فيها الحب ، بالمغامرة ، وبالقتل أيضا .. حتى أنه يقـال كثيرا عن قتلها لابنـة عمها « مارى » ملكة أيقوسيا .. ثم تدبيرها لمقتل وصيفها تاجر الأخبـار الشهير ، الصحفى ، العسكرى « الايرل اوف اسكس » بعد كل ما قدمه لها ..

وأما عن « عاطفياتها » فقد كانت حديث المجتمعات نفسها ، وزاد من حدة فضول الناس حول هذه المسألة ، ورجال الأخبار فى مقدمتهم .. أنها بكل ما تحقق لها ، لم تتزوج خـلال فترة حكمها التى امتدت الى

خمس وأربعين سنة .. قرابة نصف قرن كامل .. بل ان عددا من المؤرخين يؤكدون أنه كان فى مقدمة أسباب الجفوة الانجليزية الأسبانية التى حدثت فى عهدها وانتهت بالحرب بين الطرفين وتدمير الأرمادا .. ذلك الدلال الذي أبدته في علاقتها بفيليب الأسبانى ، ومراوغته أكثر من مرة ، واستمرار هذه المراوغات له طويلا .. ثم رفضها له فى النهاية كزوج لها .. مما عجل بالحرب بينهما .. كما يشير عدد من « الخبثاء » الى أكثر من علاقة كانت قائمة بينها وبين عدد من رجال حاشيتها .. ويربطون بين مقتل « ايرل اوف اسكس » .. وبين هذه النزوات نفسها بشكل أو بآخر .. حتى وان لم يكن ذلك هو السبب المعلن على الملأ لقتل وصيفها ..

كان ذلك هو بعض ما يدور حول هذه الملكة الثائرة ، المتمردة ، القوية ، التى كانت تبدى فى أحيان كثيرة نفس ما تبديه من صور الضعف ، أية امرأة أخرى تقبع فى ركن قصى من كوخها الحقير .. فى الريف الانجليزى .. أو أية خادمة من خادمات قصرها ، أو قصر احدى الأميرات من التابعات لها .. أو أحد أفراد حاشيتها ..

وقصص مثل هذه ، لا يمكن أن تفوت على رجال الصحافة ، بحال من الأحوال ، حتى وان كان هؤلاء ، من صحفيي القرن السادس فقط ، وليس النصف الثانى من القرن السادس عشر وبكل هذا الحجم من الرسائل والكتب الاخبارية ، وبكل هذه المادة المثيرة .. ان هؤلاء كانوا يجوبون المقاهى والصالونات والحدائق والكنائس والبيوت أيضا ، حتى يمكنهم العثور على قصة من هذا النوع لانجليزى عادى ، أو انجليزية مهملة .. فكيف اذا كانت هذه القصة تختص بأحد الأمراء ، أو احدى الأميرات ؟ .. ثم كيف اذا كانت هذه القصة تتصل بأكبر رأس فى البلاد ؟.

ودون أن ينتظم هؤلاء فى مقاعد معاهد الصحافة وكلياتها ، بل وقبل

أن تنشأ مثل هذه المعاهد بأكثر من ثلاثة قرون ، وكذلك دون أن يقرأ هؤلاء كتابا من كتب التحرير الصحفى .. فقد كان الرواد يعرفون بحواسهم الصحفية ، أى قدر من النجاح ذلك الذى يمكن أن يتوافر تلك القصص الغرامية التى تكون بطلتها الملكة نفسها .. وبالتالى ، يتوافر للصحيفة — مع الاحتراز — التى تقدمها على صفحاتها .. ان جميع أركان وعناصر الاثارة والأهمية تتوافر لأخبار الملكة الشخصية ، أو على حد تعبير الصحفى الضحية « ستيبياس » .. تتوافر لهذه « النزوات الملوكية » أو الملكية ..

كان ا . ستيبياس مخبرا لامعا خلال عهد هذه الملكة ، مما دفع بالكثيرين من الذين كانوا يصدرون الرسائل والكتب الاخبارية الى محاولة جذبه ، والتعاقد معه ليعمل لهم وحدهم ، ولكنه كان يفضل أن يعمل مخبرا حرا ، يجوس خلال مواقع الأخبار الهامة ، يجمع منها بعض ما يستطيع جمعه ، ثم يقدمه لمن يدفع أكثر ، لتخرج الرسالة الاخبارية ، أو الكتاب بعد ذلك وهى تحمل — كأغلبها — خبرا واحدا فقط ، يكون عنوانه هو عنوانها أيضا .

على أنه أبدى فى بعض الأوقات معرفة كاملة بأدق ما كان يحدث داخل عدد من بيوت الأمراء ورجال الحاشية .. ثم داخل جدران القصر الملكى نفسه ..

البعض يقول أن السبب فى ذلك هو موهبته الصحفية الفذة ، البعض الآخر يقول أن عددا من رجال الحاشية كانوا فى حربهم من أجل المزيد من النفوذ والتقرب من الملكة أو بعض الأميرات كان يقوم « بتسريب » هذه الأخبار اليه حتى يضع منافسيه فى مركز محرج ، أو يساهم فى افساد العلاقة بينه وبين الملكة .. البعض الثالث يقول أن صداقته وعلاقته القوية بهؤلاء كانت هى السبب ، كما لم يعدم الصحفى القديم من يشير الى وجود علاقة حب متينة بينه وبين احدى أميرات القصر الملكى ممن

كن يخالطن الملكة ويصحبنها فى جولاتها ، ويجلسن معها ، بل وتتحدث الملكة اليهن بأدق أسرار حياتها ليحتفظن بها فى قرار مكين .. فقد كان لابد لها من أن تتحدث الى واحدة منهن .. لأنها امرأة أولا .. وقبل أن تكون ملكة ..

المهم أنه ذات صباح ، خرج على الناس فى لندن العاصمة ، كتاب اخبارى يحمل الى القراء ويؤكد أن المرأة الملكة .. أن سيدة العرش الانجليزى .. سليلة المجد والكرم من أسرة تيودور .. قد بدأت قصة غرام جديدة .. وأن بطل القصة هذه المرة ليس انجليزيا ولا هو من رجال البلاط ، ولا من الأسرة الحاكمة كلها ..

وجن جنون الملكة ..

وفكرت كثيرا فى الطريقة التى تواجه بها مثل هذه العين التى ترقبها ، وكيف لها بهذه القصة الوليدة ؟ ولم تمض غير أيام فقط على هذا الحب الجديد .. هل تصدر مرسوما ملكيا يمنع تداول هذه النشرات مرة واحدة ؟.. هل تأمر مثلما أمر غيرها بعدم الكتابة عن أية موضوعات تتصل بالقصر أو الحاشية ؟.. أم هى تفعل مثلما فعل والدها نفسه ، عندما أمر بأن تجمع جميع هذه الأوراق ، ويصب فوقها الزيت وتضرم فيها النيران فورا ؟

وصحيح أنها لم تكن المشكلة العاطفية الأولى التى تواجهها ، ولكنها جاءت فى وقت غير ملائم بالمرة ، كما أن السرعة التى انتشر بها الخبر جعلها تفرر أن تطلب آراء عدد من الأمراء أنفسهم .. وكان هؤلاء قد بلغ الضيق بهم مبلغه ، وأحس كل منهم أن ما كان يبنيه من أحلام ، قد ذهب أدراج الرياح ، لا سيما والكتاب الاخبارى يؤكد أن البطل هذه المرة ليس هو أحدهم ..

وبينما الملكة والأمراء فى شغلهم الشاغل ، وبينما عدد منهم يقرر البحث بنفسه عن جامع الأخبار الذى تجرأ بالتطفل حتى على هوى الملكة ، بينما وضع جميع الأمراء فى موقف لا يحسدون عليه .. مما دفع

التي أن يتحد هؤلاء في مواجهة هذا الغريم الذي يتهددهم جميعا .. بينما يحدث ذلك كله .. اذ بنشرة أخرى « ملحق » تخرج لتعلن على الناس : أن هذا الغريم الجديد للأمراء الانجليز هو أمير فرنسي شاب وأن الملكة قد التقت به أكثر من مرة .. وأنها خلال اللقاء الأخير به عرضت عليه صراحة وبدون مواربة رغبتها في الزواج منه .

لم يكن هذا المنشور الجديد كافيا لاثارة جميع الأمراء فقط ، ولنسيانهم خصوماتهم السياسية والعاطفية ، بل انه أثار الشعب الانجليزي نفسه فكثرت المنشورات التي خرجت تعارض هذه النزوة الملكية الجديدة ، وتحدث الجميع بمعارضتها في كل مكان ، وأصبحت المعارضة لها هي حديث الساعة .. وكل ساعة .. وخشي الجميع من أن يؤدي هذا الزواج الى كارثة سياسية تحل بالبلاد .. وخلال أيام قليلة من صدور هذا المنشور ، وتتيجة لكل جهود البحث عن كاتبه ، فقد عرف من هو ، وتحددت هويته تماما .. وأسرع بعض الأمراء الفرنسيين بالقبض عليه .. وانتظر الجميع أن تأمر الملكة بقتله جزاء ما اقترف من جريمة نكراء في حق هواها ، وقلبها ، وفي حق أمراء البيت المالك ، وكل من كان يمني نفسه بالزواج منها .. بل وفي حق الشعب الانجليزي نفسه ..

ولكن الملكة ــ وكعادتها في الأوقات العصيبة ــ تعود فتتذرع ببعض الحكمة .. وتقرر أن يكون الحكم هو قطع يد هذا المخبر الصحفي فقط .. حتى لا يعود هو أو يعود غيره الى فعلتها مرة أخرى ..

ترى .. هل كان السبب خشيتها من ثورة شعبية ، بعد أن أصبحت حكايتها مفتضحة وبعد أن وجدت الضحية بعض العطف عليها ، من جانب عدد من أفراد الشعب الانجليزي ، وبعض النشرات الأخرى !! أم أن الأميرة العاشقة صديقة ونديمة وسميرة الملكة .. هي السبب ؟

(١) Earl of Essex

شارل الأول :

اليومية الكاملة
تروى أبرز أحداث
القرن السابع عشر

شـــارل الأول :

اليومية الكاملة تروى

أبرز أحداث القرن ١٧

.. كم كان الصراع عنيفا حقا .. وكم كان متشابكا ومعقدا ..ويضرب فى أكثر من ميدان ، ويتخذ له أكثر من صورة .. ذلك الذى نشب بين ملك انجلترا شارل الأول ؛ وبين الشعب البريطانى ممثلا فى برلمانه ، وقادته ، وخطبائه .. وصحافته أيضا .

وصحيح أن الصراع يعود الى أكثر من جيل ، قبل ذلك الذى كان شاهدا عليه .. ولكن لم يحدث أن احتدم الصراع فى عهد من العهود .. حتى عهود أسرة « ستيوارت » نفسها بملوكها الذين وصفهم الشـــعب بالاستبداد وأطلق عليهم فى أحوال كثيرة عدة أقوال من مثل الطغـــاة ، القســاة ، وحتى وصفهم بأعدائه أيضا .. لم يحدث ان احتدم الصراع كما احتدم فى عهد هذا الرجل ..

ويبدو أن الكيل كان قد طفح .. وأن الغليان الشعبى كان قد بلغ أشده ومن سوء حظه أن يحدث ذلك فى عهده هو .. وليس فى عهد ملك آخر غيره ، وأن يبلغ الضيق والتبرم بالأسرة كلها مبلغه على أيامه أيضا .

ولكننا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا أرجعنا ما حدث الى سوء طالع الرجل وحده ، والى أن أيامه كانت أيام نحس على انجلترا كلها .. فمن المؤكد أن هذا السوء قد لازمه أيضا قصر ــ بكسر القاف ــ فى النظر ، وسوء فى التقدير والتدبير والتصرف ، لازمه فى أوقات كثيرة .. ومن هنا،

فانه اذا كان من حقه أن يلعن الظروف « العائلية » ، لبعض الوقت ، وأن يردد مرة قول الشاعر « هذا جناه أبي على » .. فان عليه ــ أقصد كان عليه ــ أن يلعن أيضا سوء تدبيره وتقديره لكل الوقت ، وألا يحاول أن يكمل الشطر الثانى من بيت الشاعر « وما جنيت على أحد » .. فلقد جنى على الكثيرين وكان هو أول من جنى على نفسه ..

ويقولون أن الأسرة كلها ــ أسرة ستيوارت ــ كان قد أورثها أصلها الاسكتلندى حدة وشراهة ، كانت درجتهما تزيد ارتفاعا من ملك الى ملك كما أنهم كانوا من المتعصبين لمذهبهم البروتستنتى حتى أنهم كانوا يقدمون أتباعه على غيرهم ويقلدونهم الوظائف الكبرى فى الدولة .. تماما كما كانت تفعل بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمان أسرة « محمد على » فى مصر .. من تقديمهم للشراكسة على غيرهم خاصة فى وظائف الحربية أو الجندية .. وما اليهما ..

وزاد من حدة الصراع ، وحساسية المواقف المتأزمة أصلا أن الرجل بالغ فى تقديم هؤلاء كما زاد من مخصصات الأسرة المالكة المالية ، ويقال أنه انتزع عددا من القصور الريفية ، وأعطاها لهؤلاء .. ثم أوقع نفسه فى سلسلة من المنازعات مع البرلمان نفسه حول عدد من المسائل المالية والسياسية .. حتى زاد الطين بلة عندما أقدم على ما عبر عنه أحد أعضاء البرلمان الانجليزى نفسه قائلا : « لقد طعن الانجليزيات فى الصميم عندما أدار لهن ظهره .. واتجه الى الفرنسيات » يقصد بذلك عندما أقدم على الزواج من « هنريتا » أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ولو ان هذا الزواج كان فى جانب منه « زواجا سياسيا » .. ولم يكن ذلك بمستغرب فى هذه الأوقات .. الا أنه أعطى لملك فرنسا بعض الحق فى التدخل فى شئون دولته ..

وهكذا احتدم الصراع كما لم يحتدم من قبل ، بعد أن دخل البرلمان نفسه حلبته . وتبعته الصحافة .. تلك التى كانت أشد منه قسوة ، وأقوى

هجوما على الملك .. حتى أنها راحت تفجر القضايا الملكية قضية فى اثر أخرى .. بل الحق يقال ، أن الصحافة قد شجعت البرلمان نفسه على مناقشة عدد من الأمور التى طرحتها على صفحاتها فى مواجهة الملك ، وأسرته وتاريخها ، أو على حد قول الصحفى « نيدهام » .. فى مواجهة ذلك الثعلب الضال الذى لا يريد من الشعب أن يحاسبه ..

بل ان هذه القضية نفسها ــ محاسبة الملك على أفعاله ــ تفجرت كما لم تنفجر من قبل .. وطرحت على الملأ تلك الفكرة التى كانت تدين بها أسرة ستيوارت كلها والتى تتمثل ــ فى رأيها ــ أن صاحب العرش يستمد حقه وسلطانه من قوة الهية .. أو من قداسة سماوية لا ينبغى أن تعترض أو تقاوم .. وأن حق الملك من حق الله ، وأنه يمثله على الأرض .. وأنه لا حق للامة ، أو لأفراد الشعب العاديين فى محاسبته ، أو حتى مراجعته ..

ثارت هذه الأمور كلها على صفحات الجرائد الانجليزية ، وتناولتها أقلام عدد كبير من الكتاب .. وصحيح أن شارل تمكن من كبح جماح بعضها ، ولكن الأمر كان قد سبقه الى البرلمان نفسه ، حيث بدأ عدد من أعضائه يعزفون نفس الأنغام الثائرة .. لتتضاعف الاصوات المعارضة ، وليعلو الضجيج هنا وهناك .. فلا يجد الملك أمامه بدا من تعطيل البرلمان .. الذى كان أعضاؤه يجمعون صفوفهم لاعلان الحرب على الملك .. مما سيتناوله مقال آخر باذن الله ..

عطل شارل البرلمان ، فما الذى يفعله مع الصحافة ؟..

لقد قام باحصاء عدد الصحف التى تهاجمه ، فوجد أنها تزيد على أربعين صحيفة .. بينما لا تقف فى صفه صحيفة واحدة ..

جرب أولا فكرة شراء بعض الصحف لحسابه الخاص .. فرفض أصحابها .

وجرب ثانية فكرة شراء بعض الصحفيين فرفض مجموعهم ..

وأخيرا.... وبعد مجهود عنيف من الملكيين عامة ، ومنه خاصة ، نجح فى العثور على صحفى واحد بذل له مالا كبيرا حتى يقوم باصدار صحيفة تدافع عن الملك والملكية والقصر والحاشية والأمراء .. وتاريخ الأسرة كلها .. وفعلا صدرت صحيفة « ميركوريوس أوليكوس »(1) .. التى كانت تمثل منشورا اخباريا ملكيا جاء فى افتتاحية العدد الأول منه قول محرره :

« لقد امتلأت الدنيا بالأكاذيب ، وفى كل أسبوع تصدر أكذوبه جديدة لخداع الناس الذين يدفعون من مالهم ثمن هذا الخداع .. ولكن القصر لا ينقصه الذكاء أو الفطنة ولا تعوزه العبقرية ، كما أن الحالة ليست على هذه الدرجة من السوء الذى تتحدث عنه هذه الصحف المخادعة .. لذلك فقد وجدنا أنه من الضرورى اطلاع الناس على حقيقة الأمور حتى لا تخدعهم الأباطيل .. وسوف نبدأ بنشر الحقائق فى هذا الكتاب الاخبارى »(2) .

ولكن .. على الرغم من الأموال الكثيرة التى جعلها الملك فى خدمة هذه النشرة ، وعلى الرغم من أنه اختار لها عددا من كبار كتاب ومحررى هذه الفترة على رأسهم الصحفى الانجليزى الشهير « جون بيركنهيد »(3) الا أن حجة الشعب والبرلمانيين كانت أقوى .. وصحفهم كانت أكثر سيطرة ومن هنا فقد فكر شارل الأول فى اجراء آخر .. أو على حد تعبير محمود سمهان : « أحس شارل خطورة ما فعل ــ تعطيل البرلمان ــ فرأى أن الأفواه يجب أن تكم .. ولكن هناك قوما يحترفون التطفل على كل شىء ويضعون أنوفهم فى كل شىء .. أولئك هم الصحفيون الذين استعاضوا عن الألسنة فى الأفواه بالاقلام فى الايدى ، اذن فمادامت الافواه يجب أن تكم .. كذلك الاقلام يجب أن تحطم »(4) .

.. وجلس شارل يتحين الفرص للانقضاض على غريمته .. خاصة بعد أن تحول عدد من أعضاء البرلمان نفسه الى صحفيين وكتاب ، يكتبون على الورق ، ما تسبب تعطيل البرلمان فى ايقاف التحدث به من على منبره.. وفى قاعاته .. وبينما كان البرلمانيون يدربون جيوشهم لحرب الملك وأعوانه .. اذ جاء سفير أسبانيا يشكو اليه أحد الصحفيين الذين تعرضوا لبلده وله شخصيا بما ينال من كرامتهما..أحس شارل أن الفرصة قدجاءته حتى قدميه ، أو هى قد هبطت عليه من السماء .. فأسرع هو بالقبض عليها .. وأصدر قرارا ملكيا بتحريم صدور شيء اسمه الصحف .. وهكذا ظن شارل ، أنه استراح من شر غريمته اللدود .

وبعد مناوشات عديدة بين الملكيين والبرلمانيين أحرز فيها الأخيرون بعض الانتصارات الصغيرة بدأ شارل يغير من أسلوبه ، فأعاد البرلمان وسمح لعدد من الصحفيين بالعودة الى نشاطهم بعد تنفيذ عدة شروط كان فى مقدمتها عدم نشر شيء من أنباء البلاد الداخلية ، أو أنباء الأسرة المالكة أو الأمراء أو الاميرات .. كما اشترط على الصحف التى تريد أن تصدر دفع ضريبة سنوية قدرها عشرة جنيهات انجليزية ..

ولكن على الرغم من ذلك كله فان أكثرية الصحفيين الانجليز رفضت العودة الى اصدار صحفها أو كتبها الاخبارية ، ونشراتها الأسبوعية ، حيث أحسوا أن فى تلك الشروط اجحافا بهم ، والحاقا للضرر بالمهنة ذاتها .. وذلك باستثناء صحفيين هما « نيقولا بورن وناتانيل بيتر » حيث شجعهما الملك نفسه على اعادة اصدار صحيفتيهما ..

وحتى البرلمان نفسه ، عادت المناوشات بينه وبين الملك ، وسرعان ما بدأ الهجوم يشتد عندما أدرك هؤلاء أن الملك يريد فقط أن يحنى رأسه للعاصفة ، وأنه يتحين الفرص لضرب جميع معارضيه ، ضربة لا قيام لهم بعدها .. فالتف هؤلاء حول « كرومويل » مرة أخرى .. حيث عاد الفريقان

الى الاحتكام الى السيف ، ونشبت الحرب الأهليـة تلك التى انتهزت الصحف فرصتها فعادت الى الصدور مرة أخرى .. وهى أصلب عودا ، وأشد ضجيجا ، وأكثر جرأة .

.. وبينما كانت رحى الحـرب تدور ، وتلقى بأثقالها عـلى رؤوس الملكيين .. وبينمـا كان البـرلمانيون ينتقلون من نصر الى نصر .. كانت الصحف تصف معارك هؤلاء ، وتشد أزرهم ، حتى اذا انتهت الحـرب وألحق « كرومويل » بالملكيين هزيمة نهائية .. وقبض على الملك نفسـه ـ رأس الأفعى ـ .. ورأى المعارضون أن يحاكموه .. وحكموا بادانته واعدامه .. فى ٣٠ يناير عام ١٦٤٩ .. خرجت على الناس صحيفة « اليومية الكاملة » لتروى قصة اعدام الملك .. تلك التى كانت من أبرز أحـداث القرن .. ان لم تكن أبرزها على الاطلاق تقول الصحيفة :

« فى هذا اليوم أعدم الملك شنقا فى مكان مواجه لقصر الاحتفالات عند هوايتهول .. وفيما يلى وصف لتنفيذ الاعدام وما سبق التنفيذ :

أحضر الملك من سنت جيمس حوالى العاشرة صباحا ، فجاء سائرا على قدميه خـلال حديقة القصر ، تحف به فرقة من الحرس المشـاة ، وقد شهرت أعلامها وأخذت تدق طبولها أما الحرس الخاص للملك فقد كان يسير أمامه بينما خلفه جمع من أصدقائه حاسرى الرؤوس وكان فى معيه الملك أيضا الدكتور جاكسون أسقف لندن والكولونيل توملنسن حارسه وهكذا مضى الموكب حتى وصل الى القاعة الكبرى فى هوايتهول ومنها الى حجرة الملك الخاصة التى كان يتعبد فيها .. وهناك أدى فريضة الصلاة ورفض تناول أى طعام . خاصة وأنه قد أخذ المناولة المقدسة .

ومضى الموكب بعد ذلك الى المكان الفسيح الذى نصبت فيه المشنقة ، وكانت متشحة بالسواد وتتوسطها بلطة وصخرة ، وهنا تجمع رجال المشاة والفرسان حول المشنقة ومن حولهم جمع غفير من المشاهدين الذين أتوا لرؤية تنفيذ الاعدام ..

واتجه الملك الى المشنقة .. وسأل الكولونيل هاكر عما اذا كانت هناك صخرة أكثر ارتفاعا .. ثم تحدث الى رجال المشنقة وخلع معطفه ورداءه ، وانحنى ليضع رقبته فوق الصخرة ، وبعد برهة مد كفيه وأهوى الجلاد بالبلطة فوق رقبته ففصلها عن جسده ..

ثم وضع جثمان الملك فى صندوق مغلف بالقطيفة السوداء .. ونقل الى حجرته فى هوايتهول » (٥) .

ترى هل كانت الصحافة هى السبب ؟

أم كان من حوله

أم كان هو نفسه الذى جنى على نفسه ..

بتصرفاته وتسرعه وقلة حكمته ..

فقضى على نفسه .. بسلاح الصحافة ؟!

---

(١) Mercurius Aulicus

(٢) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٣٩ .

(٣) Sir John Birkenhead

(٤) محمود سمهان : « الصحافة » ص : ٤٣ .

(٥) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٣٧ .

جون أدامز :

هل يعود الرئيس
الى قصره عاريا ٠٠ ؟

جون آدامز :

هل يعـود الرئيس الى قصره عاريا ؟

لا أعتقد أن أحـدا من الرؤساء الأمريكيين قـد قاسى من صحف بلاده ، ومن صحفييها ، قـدر ما قاساه ذلك الرجل الذى كان الرئيس الثانى للولايات المتحدة بعد جورج واشنطن .

ولو كان الرجل ديكتاتورا..أو حاكما قويا متسلطا..أو حتى رئيس قبيلة بدائية وفعـل به الصحفيون ما فعلوه .. لأمر بالقـائهم جميعا فى معتقلاته .. أو أمر بجلدهم عن بكرة أبيهم أو ــ على الأقـل ــ حكم بنفيهم وابعـادهم عن ديار القبيـلة ومنازلهـا الى تيه الصحـراء ، أو وحوش الغابة ..

ولكن الرجل ــ الرئيس الأمريكى جون آدامز ــ لم يفعل شيئا من ذلك كله .. وانما كان يكتفى باستخدام القدر الذى يتاح له من السلطات المعقـولة ، بل كان يحـاول التخفيف منها دائمـا .. وذلك باستثناء « قانون الخيانة » الذى صدر فى عهده ، كرد رسمى على شطط الصحافة والصحفيين وهو القانون الذى يقضى بسجن أى صحفى أمريكى يعرض كذبا بالحكومة الاتحـادية أو أحـد أعضائها أو بالكونجرس .. يقضى بسـجن هذا الصحفـى مدة لا تزيد على سـنتين ، وبغـرامة لا تزيد على ألفى دولار ..

وعلى الرغم من أن هذا القانون كان أقل بكثير من عـدد من تلك القوانين الجائرة التى صدرت بعد ذلك فى عدد من دول العالم .. وعلى الرغم من أن « قانون الخيـانة » لم يطبق — بحذافيره — ولم يحدث أن طبق الا على عدد قليل من الصحفيين ، وحتى الصحفيين الذين قبض عليهم على أثر صدوره — ٢٥ صحفيا — سرعان ما أفرج عن أكثرهم ، وبموافقته هو شخصيا .. على الرغم من ذلك كله ، فان « لعنة » هذا القانون ظلت تطارده منـذ أيام حكمه ١٧٩٧ — ١٨٠١ وبعد وفاته .. وحتى اليوم .. بل ان عـددا كبيرا من المؤرخين يربط بين سقوط هذا الرئيس الأمريكي نفسـه وسقوط حكم الاتحـاديين كله .. وبين هذا القانون أيضا .. بينما يقول المعتدلون أن هذا القانون كان بمثابة قبول من رئيس الولايات المتحـدة الأمريكية للتحدى الصحفى فالصحفيون كانوا دائما يلقون بالقفاز فى وجهـه ، بينما هو يدير لهم ظهره ، ويبدو وكأنه لا يرى ، ولا يقرأ ، ولا يسمع ما يدور من همهماتهم ، وصراخهم فوق الصفحات حتى كاد الرجل أن يضع أصابعه فى الشق ، وكما نقول نحن ، من كثرة الاتهامات والحملات الهجومية .. حتى قيل أنه لا يوجد صحفى أمريكى لم يهاجم الرئيس جون آدامز ، وقيل أيضا ، ان الهجوم عليه كان يمثل زيا موسـميا ارتداه جميع الصحفيين بدون استثناء .. وحتى القلة التى كانت تبدو مؤيدة له ، كانت تعود الى ارتدائه بمجرد أن تحين الفرصة ..

والواقع أن قانون الخيـانة ، وفى هذه الظروف كلها ، لم يكن من المنتظر أن يخفف من غلواء الحمـلة على الرجل ، أو يحـد من شطط الصحافة والصحفيين ، بل ان العكس هو الصحيح ، لقد فهم الصحفيون أن الرجل قد قبل التحدى ، وأنه بدوره سيرد الصاع صاعين .

والحق — كذلك — أن الصحفيين كانوا من الذكاء بحيث تمكنوا من السيطرة على ميدان المعركة ، وأكثر من ذلك ، فقد تمكنوا من فتح

عدة جبهات جديدة ما لبثت هي الأخرى أن فتحت النار الكلامية الهجومية على الرئيس ، وكان من أبرزها جبهة المعارضة في الكونجرس ، والتي نجحت الصحافة في استمالتها الى جانبها ، حتى لم تعد تعرف أيها الصحافة ، وأيها المعارضة ، بل تحول عدد من أعضاء الكونجرس الى كتاب منتظمين يتعقبون تصرفات الرئيس وحكومته ، بالاضافة الى عدد من الصحفيين الذين كانوا من أعضاء الكونجرس نفسه وفي مقدمتهم « ماثيوليون » الذي حمل حملة شعواء على الحكومة في شكل خطابات مفتوحة تنقد أعمالها وتفضح الأساليب التي تتبعها ، حتى لم تجد الحكومة نفسها مناصا من طلب اسقاط حماية الكونجرس عنه ومحاكمته ، وسجنه .. ولكن حتى السجن لم يوقف الرجل عن الكتابة .. فاستمر يكتب خطاباته التي كانت تتسلل من خلف الجدران بطريقة أو بأخرى لتصل الى أكثر من صحيفة أمريكية .. وبلغت دراما الصراع ذروتها عندما نشر « د . توماس كوبر » مقالة ينتقد فيه قانون الخيانة .. وخلص في نهايتها الى أن الرجل الذي أصدر هذا القانون — الرئيس — قد أكد باصداره له أنه غير كفء لتولى منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ..

وبسرعة ، تحركت السلطات ، وقبض على الرجل وقدم الى المحاكمة .. حيث طلب وهو يدافع عن نفسه أن تأمر المحكمة باحضار الرئيس أمامها ، لكي يثبت لهم بالأدلة القاطعة .. عجزه كرئيس ، وعدم جدارته بأن يكون رئيسا لهذه الدولة الفتية .. مما يؤكد — من وجهة نظره — كل كلمة جاءت في مقالته التي قبض عليه بسببها ويحاكم الآن من أجلها ..

وصحيح أن المحكمة رفضت استدعاء الرئيس ليمثل أمامها ، وحكمت بالسجن على كاتب المقالة .. الا أن المعركة لم تتوقف بين الصحافة والرئيس .

على أن هذه الحرب التى دارت بين الصحافة من جانب ، والرئيس جون آدامز من جانب آخر لا ينبغى أن تنسينا أنه كانت له عدة لفتات انسانية تتصل بالصحافة والصحفيين . فقد كان يرسل أحيانا طبيبه الخاص لعلاج صحفى مريض ، كما كان يدعو الصحفيين أحيانا الى جولاته بأنحاء البلاد ، ولم يعارض فى دخولهم الكونجرس ، كما لم يعرف عنه أنه عارض فى اصدار صحف جديدة الا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة وهى أمور — جميعها — تحسب له لا عليه ..

كذلك فقد حفل عهده بعدد من الطرائف التى كانت تحدث بينه وبين الصحفيين والصحفيات أيضا ، خاصة عندما كانت حالات الشد والارخاء ، والانتظار والترقب والكر والفر تعمل عملها ..

ولكن أكثر هذه الأحداث طرافة على الاطلاق ما حدث بينه وبين احدى الصحفيات الرائدات ، وكن قليلات جدا فى حقل الصحافة .. بل كانت تواجههن مشكلات عديدة لا يقدرون على حلها .. وكانت المشكلات تتضاعف اذا لم تكن الصحفية تملك المال اللازم الذى يعينها على مداومة الاصدار ، والاستمرار فى حلبة السباق بينها وبين غيرها ، أو بين صحيفتها ومجلتها وبين غيرها من الصحف والمجلات .. ناهيك عن متطلبات التجديد ، والمصروفات الأخرى المتصلة بعمليات البقاء ذاتها ..

المهم .. أنه ذات صباح من عام ١٨٠١ — وقبل انتهاء فترة رئاسته بأسابيع قليلة — فوجىء « الديانة » بأن الصحفية « آن رويال » تطرق أبوابهم .. وتسدد لهم جميعا ديونها .. لصاحبة الشقة الصغيرة المتواضعة التى كانت تستأجرها ، ولصاحب مصنع الحبر الذى لم تدفع له منذ ما يزيد عن نصف عام ولفابريقة الورق التى يملكها أحد الأثرياء ..

بل وأكثر من ذلك ، فوجىء الرجل بالصحفية نفسها ، صاحبة ورئيسة تحرير والمحررة الوحيدة لمجلة « بول براى » المتواضعة

المستوى ، الرديئة الورق والطباعة والتحرير أيضا .. فوجىء الرجل بها وهى تسأله أن يؤجر لها الشقة الكبيرة التى تعلو متجره ، أو أية شقة كبيرة أخـرى يملكها فى أنحاء المـدينة ، كما طالبته بأن يتوسط لها فى الحصول على مطبعة أخرى ..

ولم يصدق الرجل فى البداية كلام الصحفية التى كانت منذ لحظات مدينة له بمبلغ كبير من المـال ، بل واعتقد أنها تسخر منه ، على عادة بعض مسددى الديون .. ولكنه أراد أن يمضى معها فى الشـوط حتى النهاية .. بدافع من فضول التاجر الثرى ، وبتأثر بكلام زبونة قديمة ..

والواقع أن الصحفيـة « آن رويال » لم تكن تسـخر من أى من دائنيها .. بل كانت قد قررت فى حذق ومهارة أن تستغل الفرصـة التى أتاحها لها ذكاؤها ، ليس للخروج من ورطتها المالية فقط ، وانما لتغيير أسلوب حياتها وعملها تغييرا كاملا .. وكان عندها حق فى ذلك ، فالفرص قلما تتاح ، وقد لا تتكرر أيضا ..

كانت « آن رويال » تصـدر مجـلة « بول براى » فى واشنطن عام ١٨٠١ فى نهاية عهد رئاسة « جون آدامز » .. ولأنها كانت فقيرة فقد كانت تصدر المجلة من شقتها المتواضعة التى حولت مطبخها الى مطبعة تتمثل فى آلة قديمة من طراز عفا عليه الدهر ، ويذكر بمطبعة جوتنبرج الأولى نفسها .. بينما لم تكن ظروفها المادية تسمح لها بتشغيل أكثر من عامل طباعة واحد .. كان يقوم بجميع أعمال المطبعة بدءا بنظافة المكان والآلة وترتيب المسامير والتروس وحتى عمليـات القص والتدبيس ، وعندما بدأ الاجهـاد يتسلل الى هذا العـامل الوحيد بحثت آن عن مساعد له ولكنها فشلت فى العثور على مساعد مطبعجى يوافـق على العمل نظير اليومية ــ الأجـر ــ المتواضعة التى كانت تعرضها .. حتى جاءتها نجدة من السماء فى صـورة اقتراح من صديقة بأن تتبنى لقيطا أو أكثر من أحد الملاجىء ــ وهى كثيرة ــ ليقوم بالعمل بعد أن يشرف

عاملها على تدريبه .. وهكذا حصلت آن على لقيطين لا لقيط واحد .. واستمر العمل بتقطيع الأنفاس وتراكمت الديون عليها .. وأصبحت هى ومجلتها فى حاجة الى معجزة ..

نعم .. كان لابد من معجــزة .. كان لابد من عمــل كبير ومثير .. من ضربة معلم تنقذها وتنقذ مجلتها من التوقف .. من السقوط ..

وفكرت آن .. وفكرت كثيرا فى نوع هذا العمــل الذى ينبغى أن تقوم به ، وكأساس ألقت وراء ظهرها فكرة الاعلان عن بيع الصحيفة ، أو اشهار افلاسها ، أو بيع رخصــة اصــدارها ، بل لم تسمح لنفسها ـ مطلقا ـ بمجرد التفكير فى مثل هذه الحلول السلبية .. وهى تبحث عن الحل ، راودتها فكرة طلب معونة بعض أعضــاء الكونجرس ، ثم خطرت لها فكرة طلب المعونة من الرئيس الأمريكى نفسه .. ولماذا لا ؟.. وبينما هى تفكر فى طريقة ذلك ، بدأت أفكار أخرى تراودها .. صحفية هذه المرة .. أو تتصل بأعمال وخبطات صحفية .. فلماذا لا تبدأ بالرئيس نفسه .. باجــراء حديث هام معه يكسر حالة العقــم والجمود الصحفى الذى تعيشه مجلتها ..

وعنــدما يتحدث الرئيس .. فمن الطبيعى أن الصحف والمجــلات الأخرى سوف تنقل عنها حديثه .. وهذا وحــده يعتبر كافيــا للخروج بالمجلة ومحررتها الوحيدة وبعامل طباعتها وبلقيطيها الى دائرة الضوء .. بالاضافة الى أنها فى حالة نجاحها فى مقابلة الرئيس والحصول على حديث صحفى خاص منه .. فما أسهل مقابلة أى شخص آخر .. ما أسهل تكوين المصادر الكبرى التى ستمثل عندئذ رصيدا صحفيا ضخما لها ولمجلتها ..

خلال ساعات قليلة كانت فكرة مقابلة الرئيس والحصول على حديث منه قد استولت عليها تماما .. وأخذت الفكرة تلح على ذهنها وتسيطر على حركاتها وسكناتها .. حتى وجدت نفسها أسيرة لها ..

وبدأت آن تتحرك تحركا ايجابيا وفعالا من أجل الاقتراب خطوة أو خطوتين من الرئيس الأمريكى .. أصبح شغلها الشاغل أن تتابع أخباره فى الصحف الزميلة .. بل لقد ذهبت الى قرب منزله أكثر من مرة ، ودرست الطرق المؤدية اليه ، وجلست ذات مرة بالقرب من حديقته ، حتى أبعدها الحراس الذين درست مواعيد حضورهم وانصرافهم بدقة بل لقد شاهدته مرة وهو يتجه نحو الحديقة ، ويغيب فترة ثم يعود وحيدا .. بينما علمت من مصادرها الخاصة ، ومن احدى الصديقات وهى زوجة لأحد الحراس أن الرئيس كثيرا ما يتكرر تجواله بحديقة القصر وحده .. بل انه يذهب أيضا الى احدى البحيرات الصغيرة بدون حرس على الاطلاق .. وهناك يقضى أكثر أوقاته متعة فى ممارسة السباحة التى يفضلها ..

وذات صباح قررت آن أن تضرب ضربتها .. تركت شقتها ومطبعتها واسرعت الى منزل الرئيس ، انتظرت طويلا خلف جذع شجرة كبيرة ، تابعت الرئيس وهو يخرج وينطلق الى ممارسة هوايته ..

ما كاد الرئيس الأمريكى « جون آدامز » يخلع ملابسه ويلقى بنفسه فى مياه البحيرة الزرقاء .. وتبدأ ضرباته تشق صفحتها الهادئة .. حتى سمع صوتا يدعوه « ياسيادة الرئيس » .. لم يصدق الرجل لأول مرة ، ولكن النداء يتكرر « ياسيادة الرئيس » .. نظر الرئيس خلفه .. فاذا بسيدة تجلس فوق ملابسه كمن يحتجزها عنه .. وتدعوه .. أذهلته المفاجأة حتى أنه فكر فى الخروج من المياه .. وهم فعلا بالخروج منها .. ولكنه تذكر أنه عارى الجسد الا من لباسه الذى يستره فعاد .. وتذرع بالحكمة وقرر الاستماع الى شكواها .. انها حتما تريد معونة مالية أو تخفيف الضريبة المقررة عليها ، أو تخفيف حكم السجن على زوجها أو قريب لها .. ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما علم الرئيس أنها تريد حديثا صحفيا !!

حاول الرجل أن يناور .. أن يضرب لها موعدا بقصره أو مكتبه .. وعرض أن يذهب بنفسه حتى صحيفتها .. ولكن مع اصرار آن على الحصول على الحديث منه وهو على هذه الحالة .. ومع تهديدها بحمل الملابس والمضى بها .. ومع تفكيره فى صورته وهو يعود الى المنزل أمام حرسه وموظفيه وأفراد عائلته .. مع تفكير الرئيس فى كل ذلك .. اضطر ــ مرغمــا ــ أن يجيب على جميع أسئلة آن .. حتى الأسئلة الخاصــة جــــدا ..

آسرعت آن الى شقتها ومطبعتها وجلست بنفســها تجمــع حروف الحديث ، حتى يحضر عاملها ، وبعــد أقــل من يوم كانت المجــلة تحمل تفاصيل المقــابلة الى القراء .. بكل دقائقها حيث أثارت ضجة كبرى ، خاصة عندما أيد الرئيس ما جاء بها .. فاضطرت الى اعادة طبع العــدد أكثر من مرة .. حتى فاق ما وزع منه ، ما وزع من جميع الأعــداد السابقة .. كما حققت آن ربحــا ضخما وفوريا من عشرات من الصحف الأخــرى التى نقلت الحــديث عنها .. وكان أغــرب ما فيه قصــة المقابلة نفسها ..

ترى .. هل منكم من يستطيع .. أو تستطيع أن تكررها .. فى أى مكان . أم أن التاريخ لا يعيــد نفســه ، ولا يمكن أن يعيــد نفســه هذه المرة ؟!

نعود ــ مرة أخرى ــ الى قصة الرئيس الأمريكى جون أدمز مع صحافة بلاده .

ان الحال لم يدم كذلك للصحافة الأمريكية طويلا فى عهد ذلك الرجل فقد استمرأت الثورة عليه .. ولم تعد يهمها فى شىء قوانينه الجائرة .. وعلى وجه الخصوص قانون الخيانة ، لا سيما مادته التى تطالب بحذف

ما يتعرض بالمـدح أو القـدح لقـوانين الولايات المختلفة ، أو للمحاكم الفيدرالية .. ولقوانين الصحافة نفسها كما لم يعد يهم الصحفى فى شىء ، تلك المحاكمات العديدة التى سجن بسببها العشرات من زملاء المهنة .. وما يزال الآخرون ينتظرون السجن .. أو المحاكمة ..

على أن ذلك لم يدم أيضـا الى وقت طويل .. فقد كانت هناك فترة سياسية أخـرى أكثر انتعاشا .. وطمأنينة وأمنا للصحافة والصحفيين .. تتحدث عنها السطور القادمة .

توماس جيفرسون :

حكومة بدون صحف
أم صحف بدون حكومة ؟

توماس جيفرسون :

حكومة بدون صحف
أم صحف بدون حكومة ؟

كالجياد الجامحة .. انطلقت الصحف فى أواخر عهد الرئيس جون آدامز ..

وكان من الواضح أنه لا قانون الخيانة ، ولا المحاكمات العديدة .. يستطيعان ايقاف انطلاق هذه الجياد الصحفية .. التى كانت فى حاجة الى سائس قوى .. خبير ، أو الى أحد هؤلاء الذين يحسنون ترويضها .. تماما كما يحدث فى أفلام رعاة البقر ، أو هؤلاء الذين ينطلقون خلف الجياد البرية .. فاذا أطبقوا عليها قاموا بتوجيهها صوب مزارعهم الشاسعة .. حيث تبدأ عملية السيطرة عليها .. ويالها من عملية شاقة خاصة عندما يحس الجواد البرى .. أنه الأقوى .. وأنه المنتصر ، على الأقل ، طالما أن ترويضه لم يبدأ بعد .

ويبدو أن حاكم فرجينيا القوى ، المتعدد المواهب ، المكون من عدة رجال ، الخبير أيضا بترويض الجياد البرية ، والسيطرة على الجياد الجامحة .. يبدو أنه كان على موعد مع هذه الجياد الصحفية .. ليجرب معها ما دل على ذكاء قدير ، وحكمة خبير .

لقد رأى الرجل — توماس جيفرسون — بحصافته أن يتحسس فى البداية أسباب هذا الجموح ، غير العادى ، وما يلازمه من ضراوة

ووحشية ، تمثلت فى مهاجمة الصحافة الأمريكية لكل شيء ، حتى هو نفسه ، بل ان هذه الضراوة بلغت أشدها أثناء المعركة الانتخابية ، حيث اتهمته هذه الصحف بكل ما يعيب ، حتى تهمة الالحاد نفسها ، أقذع الاتهامات وأقواها .. حيث كتب صحفي يقول : « اذا انتخب الكافر جيفرسون للرئاسة فان حكم الاعدام سيكون من نصيب ديننا المقدس وستنهب كنائسنا » (١) .

أقول .. غفر الرجل للصحافة ذلك كله .. بل غفر أيضا لصحيفة « المسجل » دأبها على نشر القصص التى تتناول حياته الخاصة ، والتى كان أغلبها مختلقا ، ولا يقصد به سوى التشهير .. وبدأ وهو المهندس وعالم الزراعة والكاتب والمحامى والرياضى والمخترع والموسيقى واللغوى .. بدأ يبحث عن أسباب هذا الجموح ، وعن العوامل التى تختفى وراء هذه القسوة الصحفية ..

ذلك أنه كان يؤمن فى قرارة نفسه بما يمكن أن يقدمه هذا الجواد ، اذا أحسن ترويضه ، وأحسنت سياسته .. عندما يصبح أفضل ما يملكه الأمريكى عامة والفرجينى خاصة .. ويكون اعتماده كله عليه ..

ولم يكن مؤلف وثيقة اعلان الاستقلال الأمريكى فى حاجة الى استخدام نصف أو ربع ذكائه لكى يعلم أن سلفه (جون آدامز) لم يحسن التعامل مع الصحافة والصحفيين ، وبذلك نال المزيد من أحقادهم .. وحملت عليه وعلى ادارته حتى بعد وفاته .. وأن الأسباب كلها تكمن فى شيئين أولهما الغاء « قانون الخيانة » بمواده كلها .. وثانيهما ، التحول الى صفحة جديدة ، بيضاء ، نقية ، قوامها اعطاء الصحافة كامل حريتها ..

وسبحان مغير الأحوال !

رجل تبدأ الصحافة تهاجمه ، حتى قبل انتخابه لأول مرة ، ثم تمضى فى الهجوم عليه حتي دفعته الى أن يقول ذات مرة ، وبالحرف الواحد

وكما جاء فى أوراقه : « لم يعد أحد يستطيع أن يصدق شيئا يراه فى أية صحيفة .. ان الحقيقة ذاتها تصبح مهددة ومحل ارتياب عندما توضع فى تلك الأداة الفاسدة لنقل الأفكار » .. وبعد ذلك بعدة شهور فقط ، يقف الرجل ، وقد عرف الداء ، ليطلب من الكونجرس تقديم الدواء فورا .. ألا وهو الموافقة الكاملة على ابطال العمل بقانون الخيانة .. بل انه لم ينتظر اتمام المناقشات التى احتدمت حول هذا الموضوع ، لا سيما وأن بعض الأعضاء كانوا ممن أصابتهم الصحافة بسهامها أو من موتورى الصحف طويلة اللسان .. وانما أصدر بما تتيحه له سلطاته قرارا رئاسيا يتضمن العفو الشامل عن كل من صدرت ضده تهمة يتضمنها « قانون الخيانة » .

وأما عن حرية الصحافة ، فقد أدرك الرجل أنها والحقيقة التى يبحث الجميع عنها وجهان لعملة واحدة .. وأنه من الخير له ، وللدولة الناشئة أن تكون صحافتها حرة تماما .. ومن هنا ، فقد راح يعمل على تدعيم كل ما يتصل بهذه الحرية ، بل راح يتناولها فى مناقشاته وجلساته ويحاول قدر جهده أن يجعلها سيدة الموقف ، كما أدرك بحصافته أن هذه الحرية سيكون لها فعل السحر فى مجتمع جديد ، ينمو ، ويتكون ومن السهولة بمكان أن تتسلل اليها المشكلات وأن يندس بين صفوفه العاملة الكاذبون والأفاقون والمرتشون ، وأن يعرقل ذلك البناء الكبير الذى يعلو فى كل مكان ..

وكلما كانت الأيام تتقدم بالرجل ، وتمضى بالولايات المتحدة الأمريكية ، كان ايمانه بهذه الحرية يزداد .. حتى أنه أرجع اليها جميع الانتصارات السياسية التى تحققت فى عهده ، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك كله على موقفه من الصحافة ، وموقفها منه ، تلك التى رأى أن يقدمها حتى على حكومته أو ادارته نفسها .. بل تعددت أقواله

التى تتناول أو تشير الى هذه العــلامات المضيئة على طريق الصحافة ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر .. جميع هذه الأقوال :

* « الوسيلة لمنع الأوضاع المتضاربة غير المنتظمة للشعب هى أن تمده بالاعلام الكامل عن شئونه بواسطة الصحف الشعبية » (٢) .

* « لما كان أساس حكومتنا هو رأى الشعب فان أول هدف يجب أن يكون هــو جعــل هذا الرأى صحيحــا .. ولن يكون ذلك بغــير صحافة حرة » (٣) .

* « ان الضمـــان الوحيد لنا جميعــا .. انما يكمن فى وجــود صحافة حرة » (٤) .

* « حيثما كانت الصحافة حرة .. وكل انسان قادرا على القراءة ، فكل شىء فى أمان » (٥) .

* « الصحافة خير أداة لتنوير عقل الانسان ولتقدمه ككائن عاقل أخلاقى واجتماعى » (٦) .

وأخيرا .. فان من أشهر أقــواله تلك التى قالهــا وهم يطلبون منه ترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية للمرة الثالثة ، ورفض ذلك وفضل اعطاء الفرصة لغيره « اذا خيرت بين أن تكون لنا حكومة بدون صحف أو صحف بدون حكومة فانى لا أتردد لحظة فى تفضيــل الحالة الأخيرة » (٧) .

ألا يستحق الرجل تمثالا صغيرا .. فى قلب كل صحفى ؟!

ألا .. ما أبعد المسافة بين عهدين .

عهد جون آدمز بقانون خيانته ومحاكماته وسجونه .

وعبد ت . جيفرسون بكل ما أحاط به من احترام وتقدير للسلطة الرابعة يفسران هما جميع تصرفاته الصحفية ..

بل أكثر من ذلك .. يؤكد عهد هذا الرجل ، أو تؤكد الفترات التى تولى خلالها رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .. أن الحاكم القوى المتمكن الواثق من نفسه ومن قدرته ومن حكمته .. المتأكد من سلامة قراراته .. أن هذا الحاكم لا يمكن — بحال من الأحوال — أن يقف فى مواجهة الصحافة ، أو أن يدير ظهره لها .. أو أن يحاول كسر الأقلام وتكميم الأفواه .. بل انه يتجه اليها لتمارس مهامها فى دعم ديموقراطيته .. وأصالة حكمه وحتى عندما تنتقد ، فان ذلك يعنى عنده ذلك الخلاف الذى لابد منه من أجل الوصول الى الحقيقة ..

والحقيقة دائما هى الهدف
وهى أيضا .. سيدة الموقف .
أليس كذلك ؟!

---

(١) ابراهيم عبده : « الصحافة فى الولايات المتحدة الامريكية » ص : ٧٦ .

(٢ — ٣ — ٤ — ٥ — ٦ — ٧) حسنين عبد القادر : « الصحافة كمصدر للتاريخ » ص : ١٩ .

بونابرت :

أيهما الأقوى ..
الجيوش .. أم
الصحـــافة .. ؟

بونابرت :

أيهمــا الأقـــوى
الجيوش أم الصحافة ؟

لم يكن من المعقــول ، ولا من المقبول ، أن يدير رجل مثله ظهره للصحــافة .. أو أن يتجاهلهــا أو يتجاهل قوتهــا ، وأثرهــا ، بحال من الأحوال .

ولم يكن من المعقول أيضا ، ولا من المقبول كذلك أن تدير الصحافة لرجل مثله ظهــرها ، وأن تتجاهله ، أو تتجاهل قــوته وأثره .. وبحال من الأحوال .

كان كلاهما يعرف للآخر قدره ، ويقدره ، ويعترف له به أيضا .
وكان كلاهما يعرف أن التفاهم واللقــاء والتعــاون بينهما سيكون مفيدا للغاية ..

والا ، فمن غير الصحــافة يستطيع أن يتحدث قوته ، وأن يحمــل فكره ، ودعايته ، وينقل للناس أخبــار معاركه ، وأنبــاء انتصاراته .. وحتى هزائمه أيضا ؟

ومن كذلك غيره يستطيع أن يمــدها بالكثير من المــواد التى تملأ صفحاتها ، وجميعها من النوع الهام .. أو الأخبــار صانعة المانشيتات ، والمقــالات النــارية التى تقيم الشعوب وتقعدها .. وتبقى هى للتاريخ تتحدث عن الرجل نفسه ؟

بل لمن تكتب الأقلام ، وتدور المطابع ، وماذا يقرأ الناس .. اذا لم يكن عن القائد العسكرى الفذ ، والرجل الخارق ، الذى صارت شجاعته وطموحه مضرب الأمثال ، وانتقلت قصص انتصاراته وغزواته .. حتى لقلوب النساء ، من جيل الى جيل ..

ذلك هو النسر الفرنسى ، الامبراطور نابليون بونابرت والذى قيل بشأنه الكثير ، والكثير جدا .. وكان مما قيل عنه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

« لقد كان نابليون بلا ريب رجلا خارقا فى حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله أن يشق طريقه الى أسمى المناصب تحت أى ظروف وفى أى بلد ، فقد كان يتميز بجلده على العمل ، وقدرته الهائلة فى التنظيم ، وبصيرته الحاضرة ، وشجاعته الفائقة واستعداده الكامل لتحمل المسئولية ، ومضائه فى تنفيذ آية خطة يأخذ على عاتقة تنفيذها ، أى أن جميع صفات الجندى قد اكتملت فى أعلى صورها، وكان يملك الى هذا كله موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل »[1]..

أقول .. هذا قليل جدا مما قيل عن الرجل وفيه .. منذ آخذ نجمه فى الصعود ، بعد أن نجح فى قيادة جنوده فى حصار طولون عام ١٧٩٣ ، على الرغم من مساعدةالأسطول البريطانى لأهلها ونجاحه كذلك فىالقضاء على ثورة أهالى باريس ضد حكومة الادارة ــ الديركتوار ــ مما أدى الى اسناد قيادة جيش العاصمة الفرنسية له .. ثم ليبدى نجاحا أكبر يلفت الأنظار الى عبقريته العسكرية عندما بعثت حكومة الادارة بجيشين لحرب النمسا أحدهما ثانوى بقيادته ، ولكنه جعل هجومه يكون الرئيسى والفعال ، فعزل بين السردنيين والنمسويين وأنزل بالأولين هزيمة فى موقعه موندوفى ، ثم بالنمسويين عند لودى فى ١٠ مايو ١٧٩٦ ودخل ميلانو ، وحاصر الحصن النمسوى ، وأنزل بالنمسويين هزيمة ساحقة فى موقعة ريفولى ــ ١٤ يناير ١٧٩٧ ــ ثم استسلم الحصن .. وتوالت انتصاراته

الأوربية ، حتى عاد الى فرنسا ليعهد اليه مجلس الشيوخ مرة أخرى بقيادة قوات باريس .. وتتتابع الحوادث حتى تصل الى الحملة الفرنسية على مصر تلك التى كان الهدف منها انجلترا ، ومستعمراتها وخطوطها البحرية أو على حد تعبير بعض الكتاب « لقد خيل لأعضاء حكومة الادارة أنهم قد يجدون فى مصر كعب أخيل الذى يمكن أن تهزم منه بريطانيا المنيعة . ولم يكن لدى فرنسا فعلا أى سبب وجيه لمحاربة مصر — كانت أول نقطة فى التعليمات التى أعطيت لنابليون عند ارساله الى مصر هى : طرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التى يستطيع بلوغها »(٢) .

وتوالى الحوادث مسيرتها ويدمر ولسون الأسطول الفرنسى فى خليج أبى قير ويفشل حصار عكا ثم يعود نابليون الىفرنسا ، حيث يسطع نجمه بشدة عندما يصوت أعضاء مجلس الشيوخ لصالح تعديل الدستور ويقوم هؤلاء باختيار ثلاثة قناصل ، أحدهم نابليون الذى يفوز بالسلطة أخيرا ، ليصير بعد ذلك امبراطورا فى ١٨ مايو ١٨٠٤ ، وبعد حياة تذكر بقصص ألف ليلة يطلق زوجته « جوزفين » لأنها لم تنجب له ولدا يكون وليا لعهده ، ويتزوج من « مارى لويز » ابنة امبراطور النمسا .. ولكن الأحداث تسرع فى اتجاه مغاير له ، فبعد عدة انتصارات على الأرض الأوربية تتحالف الدول ضده ، وتهزمه جيوشها وتجبره على التنازل عن عرشه فى ١١ أبريل ١٨١٤ ، ولكنه يهرب من أسره فى جزيرة البا ويواصل الحرب حتى يهزمه « بلوخر » و « ولنجتون » فى « ووترلو » — ١٨ يونيو ١٨١٥ — وتبعث به الى منفاه فى « سنت هيلانة » حتى يموت بها وحيدا مقهورا مهموما فى ٥ مايو ١٨٢١ .

ويالها من حياة حافلة للنسر الفرنسى ، وميتة غير لائقة به ، ولكنها سنة الحياة ..

فاذا كانت هذه هى حياته .. فماذا عن موقف الرجل من الصحافة ،

أو مواقفه منها ؟ ، وكيف كانت علاقته بها ، وبرجالها ، ودولتها كلها ؟ .. ذلك ما تجيب عليه السطور القادمة ...

ان أول ما يدهش له القارىء ، عندما يعرف أن نابليون ومنذ كان ضابطا صغيرا ، كان يبدو عليه طابع القارىء الممتاز ، والنهم أيضا ، ويؤكد أكثر من مؤرخ أن فترة عمله الأولى بالجيش – ٧ سنوات – قد أتاحت له أكثر من فرصة ممتازة للقراءة والمتابعة ، خاصة فى كتب التاريخ والجغرافيا ولا شك أن ذلك قد أفاده كثيرا،وعندما بدأ نجمه فى الارتفاع، كان حريصا على تدوين أفكاره ومذكراته الخاصة ، كما كان يبعث من آن لآخر ، بتعليقات وشذرات وخواطر الى عدد من الصحف الفرنسيه .. وقد تناول ذات مرة فى احدى هذه الكتابات موضوع الصحافة والسلطه، معلقا بذلك على هجوم الصحف الفرنسية على اعضاء مجلس الشيوخ ، وكان مما أثاره فى هذه الكتابات بعض الموضوعات التى تتعلق بتبعية الصحافة فى فرنسا ، وهل هى الأقوى أم مجلس الشيوخ ؟.. وهل الصحفى فى مثل هذه الظروف التى تجتازها البلاد يعتبر حرا فى كتاباته ؟ وما هى حدود هذه الحرية ؟ ... الى غير ذلك كله من أسئلة عديدة ، وموضوعات مختلفة كانت تتجه اليها أفكاره بما يؤكد أن موضوع الصحافة كان يشغل باله ، وهو يخطو خطواته الأولى .. على طريق المجد الكبير الذى حققه ..

بل ان عددا من المؤرخين ، والذين اهتموا بشخصيته وأفكاره وآرائه وحياته عامة لاحظوا أن الرجل كان يريد وهو فى منتصف طريق المجد ألا يبدو وكأنه القائد العسكرى الشاب الذى يمتلىء رأسه بفنون العسكرية والحرب وحدها ، والذى يعتمد على سيفه وخططه الحربية التى بهرت الناس فقط ، لا سيما خططه فى تخفيف حركة القوات ، والمخاطرة واجتياز الصعب والتقدم من القلب والالتفاف وغيرها ، مما شغل الناس زمنا ، وما يزال يشغل العسكريين حتى اليوم ، ولكن بونابرت وبالاضافة الى ذلك كله كان يريد أن يلفت الأنظار اليه كقائد عسكرى ،

ومثقف وذواقة للفن والأدب ، وأديب وناقد أيضا « بل هو كذلك الرجل الضليع فى فنون الحياة السلمية المتعطش للعلم المجل لطبقة المفكرين »(٣).. بل يقال أيضا أنه فى هذه الفترة من حياته ، وبعد ذلك أيضا ، وحتى عندما ارتفع نجمه كما لم يرتفع من قبل ، كان دائم الحرص على ارتياد الصالونات الأدبية التى كانت منتشرة فى فرنسا فى ذلك الوقت ، وكان يساهم فيها ليس كمستمع عادى ، وانما كناقد وذواقة ، كما كان حرصه بالغا على زيارة المجمع العلمى الفرنسى واللقاء برجاله ، وكذا حضور المعارض الفنية العديدة ، والاتصال بنجوم الفن والأدب فى العاصمة الفرنسية ، ويقولون أنه كان يحرص على ارتداء الزى الموسمى السائد ، وكان هذا الزى هو الظهور بمظهر المهتم بمثل هذه الأمور كلها .. كما يقولون أيضا أنه كان فى أغلب أوقات حياته يعيش « متمثلا بالمثل اللاتينى القائل ... القلم أفضل من السيف »(٤) .

وقد يفسر ذلك كله الاهتمام الكبير الذى أبداه الرجل للصحافة ، والذى أسفر عن اعتبارها سلاحا من بين أسلحته الماضية والفتاكة أيضا وذلك قبل أن يتولى الحكم ويصرح لأحد أصدقائه قائلا فى نفس يوم توليته امبراطورا — ١٨ مايو ١٨٠٤ « ينبغى على الحاكم القوى أن يجعل الصحافة فى خدمته » .. فبالاضافة الى كتاباته التى ظهرت على صفحات الجرائد الباريسية فى بداية حياته العسكرية ، فان من الثابت أنه أثناء حملته الايطالية الشهيرة والتى سبق التنويه بها ، عنى عناية بالغة بالاعلام الصحفى أسفرت عن اصدار صحيفتى « وجهة النظر الفرنسية »(٥) « بريد الجيش »(٦) .. كما كان يأمر بطباعة أخبار الحملة ، وأوامره العسكرية الى جنوده ، وكذا بعض المواد الدعائية ، فى منشورات يوزع بعضها على الجنود ، وبعضها على الايطاليين ، كما يقول أحد مؤرخى صحافته (٧) أن الرجل كان يبعث أحيانا ببعض المقالات التى يكتبها من مقر قيادته فى ايطاليا لتنشرها الصحف الباريسية ، وكانت أكثرها مقالات

سياسية ، تتناول أحداث العصر نفسه عامة ، وأحـداث فرنسا الداخلية خاصة ..

على أن هذه الاتجاهات الصحفية نفسها ، ورغبة الرجل فى أن تؤازر الصحافة جنوده ، كانت أقوى ظهورا ، بشأن الحملة الفرنسية على مصر، تلك التى وضح منذ بدء الاعداد لها ، ثم خلال اتجاهها نحو الشـواطىء المصرية ، وفى تعامله مع المصريين ، ومع جنوده أيضا ، هذه الرابطة القوية بينه وبين الصحافة ، وذلك الدور الكبير الذى كان يرى أن على الاعلام الصحفى أن يلعبه .

ذلك لأن من الثابت أن « بونابرت » كان شـديد الاهتمام بتزويد حملته بمطبعة أشرف بنفسه على اسـتكمال معداتها وجهازها البشرى ، ويروى د . أحمد حسين الصاوى عدة صور من جهوده فى هذا السبيل ، ومن ذلك اتخاذ حـكومة الادارة فى ١٦ مارس ١٧٩٨ قرارا بتعبئـة كل المعدات الطباعية التى يحتاج اليها الرجل ، وكذلك حروف الطباعة العربية واليونانية التى توجد بمطبعة الدولة ، ومن الطبيعى ألا يتخذ هذا القرار الا بعد مطالبة من الرجل نفسه .. العضو القـوى فى هـذه الحكومة « ولكن لما انقضت عشرة أيام على هذا القرار دون تنفيذ ضجر بونابرت فكتب يشكو فى لهجة حادة الى وزير الداخلية بطء الاجراءات ، ويقول له أن مدير المطبعة والمواطن لا نجليس أظهرا أسوأ النوايا ، ويرجوه أن يصدر أمره بشحن جميع الحروف العربية دون قوالبها — أمهاتها — التى توجد بتلك المطبعة ، ثم يطلب من الوزير كذلك اصـدار أمره بشـحن الحروف اليونانية التى كانت مطبعة الدولة وقتئذ تستخدمها فى طبع أعمال زينوفون — ويقول ساخرا أنه ليس هناك ضير فى أن ينتظر زينوفون ثلاثة أشهر حتى يتم سبك حروف جديدة مادامت الأمهات سـتبقى بالمطبعة ، وأخيرا يطلب منه شحن حروف فرنسـية من الأحجـام المعتـادة تكفى لاستخدامها على ثلاث طابعات »(٨) .

كما واصل نابليون كتاباته الى أعوانه يستعجل اعداد وتجميع هذه الحروف ، وكذا القوة البشرية التى ستعمل عليها ، كما أصدر قبل قيام الحملة عددا من القرارات التى تنظم العمل بهذا الجهاز الطبـاعى الذى جعل على رأسه المستشرق المعروف « جان جوزيف مارسيل » ..

والواقع أن هذه الاجراءات الطبـاعية البونابرتية لا تعكس فقط هذا الاهتمام الكبير بأن يدعم جيشه جيش آخر من هذا الجهاز الطباعى والاعلامى والعلمى الكبير..وانما تعكس أيضا ذلك الفهم الكبير والكامل لدور المطبعة،وأهمية تجميع وصب حروفها،وشحنها دون أمهاتها،بالاضافة الى عنايته بعامل الخبرة .. وهى ما تزال أساسا فى العمل الفنى الطباعى ، والى فهمه لعنصر الوقت ليس على المجال العسكرى وحده ، وانما بالنسبة للمجال الاعلامى أيضا .. كما يضاف الى ذلك شديد عنايته بأن يصحب الحملة طابع مستقل هو « مارك أوريل » ، ثم أمره بنقلها الى البـاخرة لوريان ـــ الشرق ـــ تلك التى عقد لها لواء القيادة على جيش مكون من أربعمائة سفينة ينقلون « نحو خمسين ألف جندى وبحار »(٩) .

حتى اذا اقتربت الحملة من الشواطىء المصرية أمر بونابرت بطباعة منشور الى جنوده فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ ، يشجعهم فيه على بذل الجهد ، ويثير حماسهم بما ينتظرهم من مجد ونصر ، ويطلب اليهم احترام عقـائد المصريين .. ثم مالبث أن قام بطباعة أول منشور باللغة العربية ، وترك أمر توزيعه الى عـدد من الأسرى المسـلمين الذين كانوا فى سـجون مالطة المسيحية ، ليؤكد بذلك سياسته الاسلامية القائمة على تلك الدعاية التى يحاول عن طريق التصرفات الشخصية والمنشورات والصحف ، أنه أكثر ايمانا بالله من المماليك ، وأن الأمة الفرنسية هى أيضا أمة مسلمة !! ..

وعندما تم احتلال الاسكندرية ، كان حريصا على التأكد من سلامة انزال المطبعة الى البر ، فخصص ضابطا للاشراف على ذلك العمل ، ثم أمر بوضعها فى منزل قنصل البندقية ، بحيث تستطيع أن تطبع على وجه السرعة كل ما يراد لها طباعته .. وقد قام فعلا عن طريقها ـــ خاصة بعد وصولها

الى القاهرة عن طريق النيل ـ بطباعة عشرات من المنشورات الدعائية والتى لعبت دورا أساسيا فى الدعاية للحملة ودورها ، واعـلام المصريين بهـذا الدور بالاضافة الى ما أدته المنشورات الفرنسية من دور للجنود أيضا ، بما فى ذلك طباعة تقارير قادة الحملة ، وبيان أهم الأحداث الأوربية ..

حتى اذا كان يوم ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ ، حيث صدرت دورية « بريد مصر »(١٠) .. تلك التى أراد بونابرت بها أن تكون همزة وصل بين الحملة والوطن الأم « والتى كانت تقوم بعملية طمأنة الحملة على الحالة الفرنسية الأوربية » كما عنيت أيضا بأخبار بونابرت الخاصة ، وكبار قادته ، ومن ذلك ما يقوله الدكتور ابراهيم عبده « تفاصيل زيارات بونابرت لعلمـاء المصريين ورجال دينهم كزيارته للسيد السادات فى مولد السيدة زينب بناء على موعد سابق ، وتناوله العشاء هو وقواده فى المنظرة وألوان الطعـام التى قدمت اليهم وأنواع الحلوى التى تشبه ما يقدم فى شهر رمضان والماء المسكر المعطر ، ثم راحت تصف الجدل الذى دار بينه وبين السادات عن القرآن ، وقد استغرق وصف هذه الزيارة صفحتين كاملتين »(١١) .. الى غير ذلك كله من مواد اخبارية دعائية كان الرجل حريصا على نشرها ..

كما صدرت كذلك صحيفة « العشرية المصرية »(١٢) ـ لصدورها كل عشرة أيام ، تلك التى أراد لها الرجل أن يكون اهتمامها بالغا بالأخبار والتقارير والدراسات المتخصصة والمجالات العـديدة التى تتجـه اليها مجهودات علماء الحملة ، فى دراساتهم للمدن والقرى والعادات والتقاليد والنيل والواحات والصحارى .. وحتى الدراسة التى لم يحالفها التوفيق لعمل قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط ..

وبذلك كله ، وكأثر لاهتمامات هـذا الرجـل ، عرفت مصر الطباعة لأول مرة ، حتى قال البعض ـ د . اجـلال خليفة ـ « لو لم يستقدم نابليون معه مطبعته لتأخر ظهور الصحافة فى مصر الى أن تأتى هذه الآلة العجيبة الى بلادنا » (١٣) .. كما عرفت مصر الصحافة لأول مرة أيضا ..

فى شكل تلك المنشورات العربية التى أمر نابليون ومن بعده « كليبر » و « منو » بطباعتها وتوزيعها ، أو فى شكل الصحيفتين المذكورتين .

على أن طيب المقام لبونابرت لم يدم فى مصر ، اذ أجهـدته عكا فى حصاره عليها وتفشى الوباء بين جنوده وعاونت مراكب الانجليز أهلها حتى تحققت له الهزيمة ، كما كانت أنباء أوربا عامة وفرنسا خاصة مزعجة كل الازعاج .. ومن ثم رأى أن يعود فورا ، حيث وصل الى بلاده فى ٩ أكتوبر ١٧٩٩ بعد أن تعرض لخطر الأسر فى الطريق .. ليقوم مقامه فى مصر كليبر ثم منو ، وليستسلم أخيرا للانجليز والأتراك عشرون ألف فرنسى بالقاهرة والاسكندرية ، فى أغسطس ١٨٠١ .. وانطوت صفحة هذه الفترة الهامة جدا من تاريخ الشرق عامة ، ومصر خاصة .

أما فى أوربا فقد واجه تألب الدول على النفـوذ الفرنسى والقـوة الفرنسية المتعاظمة ، وثورة عـدد من البلاد عليها .. كايطاليا وسويسرة وما تبعهما من جمهوريات وممالك وامارات صغيرة وتعاون قيصر روسيا بولس مع بريطانيا على اعادة بلاده الى حدودها الأصلية ، ثم دخـول النمسا دائرة هذا التعاون .. وتحقيق هؤلاء لأكثر من نصر على الجيوش الفرنسية .. ثم نهضة هذه فى النهاية دون أن تستطيع تحقيق نصر حاسم قبل وصـول بونابرت من مصر .. حتى اذا وصل الرجل وواجـه ثورة مجلس الشيوخ ضـد خطاب له باستدعاء قواته لدخول المجلس وفرار أكثرية الأعضاء ، وتصويت البقية الباقية لصالحه فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ .. ليصبح القنصل الأول .. وليبدأ فى صراعه العسكرى الكبير الذى انتهى بانتصـاره فى أميـان ـ مارس ١٨٠٢ ـ ثم بتعينـه امبراطـورا فى ١٨ مايو ١٨٠٤ ..

واذا كنا قد عدنا خلال هذه السطور القليلة السابقة الى قصة الرجل نفسه ، فاننا نعود خلال السطور القادمة الى صحافته ..

ذلك أن الرجل ما كاد يتولى حكم فرنسا بوصفه قنصلا أول ، حتى بدأ يسير دفة الحكم على هواه .. « ولم يلبث أن ضرب عرض الحائط بنظم الحكم التى أنشئت على أثر ثورة برومبير — نوفمبر — فلئن كان لتلك النظم نفع بادىء الأمر كستار يخفى وراءه حكمه الفردى ، فانه لم يلبث أن ألفى نفسه فى غنى عنها بعد أن ازداد ثقة بنفسه واطمئنانا الى تأييد الرأى العام ، فأخذ يعصف بها ، وراح يحكم دون حتى مجرد التظاهر باشراك الشعب معه .. وهو لم يتجه بحكمه أكثر فأكثر نحو الأوتوقراطية الصريحة فحسب ، بل طفق يتخلى كذلك رويدا رويدا عن كل أثر لمنشئه الثورى » (١٤) فاذا أضفنا لذلك كله ، أن المعارضة ضده كانت تعود فتقوى ، مع اتحاد الدول فى مواجهته ، وحيث يبدو أنه يجتاز بعض المواقف العسكرية الصعبة ، ثم بتجمع الملكيين حينا واليعاقبة فى حين آخر ، وتوافق ذلك مع الحنق الخارجى المكتوم ، أو الذى يصرح عن نفسه ، ومع ما يحسه بعض الضباط الذين كان يتقدم الصفوف فوق أكتافهم .. من حسد وغيره ، تلاقت هذه جميعها مع رغبات الرجل الكامنة أو الظاهرة فى الانفراد بالسلطة والحكم ، ودون منازع ، ثم اتجاهه الى تثبيت دعائم حكمه الفردى لتظهر بعد ذلك فى صورة خوف من هؤلاء جميعا .. يظل يستبد بالرجل ، وتتضاعف جرعته ، مع ارتفاع عدد من هذه الأصوات المعارضة فى الصالونات والجمعيات والمجالس ثم تمتد هذه الى الصحف أيضا .

.. كان بونابرت يعرف تماما كيف يمكنه أن يسكت هذه الألسن جميعها .. باستثناء الصحافة .. أما أحاديث الصالونات والجمعيات ، فانه كان يعتبر أصحابها من هؤلاء الذين ليس لهم عمل الا تناول غيرهم بالنقد ، كما أنهم كانوا قلة فى المجتمع الفرنسى العريض ، خاصة وهو يتمتع بتأييد الجهات المحافظة ، والكنيسة ، وجماهير الشعب والفلاحين ، وهو ما عبر عنه بعد زمن طويل لأحد أصدقائه قائلا : « أنا لا أفعل

شيئا الا أننى أحرك خيال الأمة » .. واذن فما دامت الأصوات المهاجمة داخل الجمعيات والصالونات ، هى قطرات ماء قليلة وسط محيط الشعب الفرنسى ، الذى عرف الرجل كيف يحرك خياله ، ويلهب طموحه الى فرنسا قوية ، سيدة على أوربا ، حتى أن هذا الشعب طالب بتجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات — وهو ما يزال فى بداية فترته الأولى — ثم بتعديل ذلك الى أن يصبح قنصلا مدى الحياة .. ما دامت هذه الأصوات لا تتعدى هذه الأماكن الضيقة ولا تقفز فوق حدود أسوارها .. فهى ضعيفة ، ولن تكون محركة أو مؤثرة ..

وأما اتحاد الدول الخارجية ضده ، فان السيف والمدفع ، وميادين المعارك وحدها هى التى تقرر الفصل فيها ..

وأما المجالس التشريعية والأجهزة الدستورية الأخرى ، فقد سبق له التعامل معها ، وانه ليعرف تماما كيف يستطيع أن يلجم أفواه أصحابها ، بدعوى تهديد الأخطار الخارجية تارة ، وبدعوى منحه حرية الحركة والتصرف تارة ثانية ، وبدعوى تعديل الدستور والى حد تجسيده تارة ثالثة ؛ كما أنه يعرف كيف يتحايل على هذه الأجهزة أيضا ، وفعلا قام بادخال بعض التعديلات التى حولت مجلس الدولة الى مجلس خاص يعين هو أعضاءه وله وحده حق التقدم بجميع الاقتراحات .. وحتى فى حالة فشل جميع هذه الطرق ، فان هناك طريقة أخرى سبق له أن قام بتجربتها ، وكان لها الفضل الأول فى هذه المكانة التى يحتلها .. عندما اقتحم جنوده مجلس الشيوخ ، وفر من الأعضاء من فر ، ووافقت البقية الباقية على الرجل ، وأفكاره ، وطموحه .. واستغلاله أيضا .

واذن فقد بقى طرف واحد .. هو الذى يستطيع أن يواجهه ، وأن يساعد على أن تقفز الأفكار الثورية من فوق أسوار الجمعيات والصالونات ، وأن تتسلل أيضا أفكار الأعداء الذين يحيطون بالبلاد ، ويتمنون للنسر فرصة اغفاءة واحدة ، كما أنهم يستطيعون الاشارة الى

ذلك النوم الطويل الذى يغط فيه الدستور ، والأجهــزة الدستورية ، والى مجلس الدولة البونابرتى الخاص الذى يحـــركه الرجل كما يشاء ووفق هواه ..

كان ذلك الطرف المقلق ، هو ما تمثله الصحافة الفرنسية ، تلك التى ساهمت الى حد كبير فى نشر أفكار الثورة فى الاخاء والحرية والمساواة ، وكانت سلاحا قويا فى يد كبار الثوار ، ساهم الى حد ما فى تكوين الرأى العام الفرنسى ، كما كان لنشرها لأفكار الجيروند واليعاقبة معا ، أثره الكبير فى انتشـــار الفكر الثورى .. ذلك الذى قضى على العـــديد من الصحف والصحفيين الفرنسيين ، ولم يبق منها خـــلال عهـــد الارهاب السابق على حكومة الادارة ، الا ما يناصر لجنة الأمن العام .

تتابعت هذه الأفكار كلهـــا فى رأس الرجل ، وعاد بذهنه الى الوراء ليتحسس الدور الذى قامت به الصحافة ، والذى يمكن أن تقوم به ، ثم لوى عنقه بشدة الى ما يمكن أن تحققه لأعدائه فى الداخل والخارج .. ومن هذه النظـــرات والتحليلات كلهـــا ، وبالمواءمة بينها وبين دراسته الســـابقة لمواقف الحكام من الصحـــافة ، وتعطشه المتزايد الى الحكم الفـــردى ، أيقن الرجل أنه لن يستطيع أن يحقق أحـــلامه ، أو يمارسه ديكتاتوريته ، أو ينتصر على أعدائه فى الداخل والخارج ما لم يقم بعملية تنظيم جادة وحاسمة لها ..

باختصار شديد لقد أراد لها أن تكون فى جانبه ، وفى جانبه وحده ، تؤيد ، وتصفق ، وتهتف شأنه فى ذلك ، شأن الديكتاتوريات العسكرية التى كان يقرأ تاريخها ، ويستخلص منه ما يقدم له الفائدة .. ومن هنا فانه أرسل بعض أعوانه يجمعون له نماذج من هذه الصحف ، ويقدمون التقارير عن العاملين بها ، ونوعياتهم ، وأفكارهم السياسية ، ومواقفهم السابقة والحالية ، كمـــا قام بسحب جميع رخص الصحف الباريسية ، انتظارا لما تسفر عنه هذه التقارير ، وبعد أن أتم دراستها بنفسه أصدر

قراره الحاسم بأن « القنصـل الأول » يأذن لثلاثة عشرة جـريدة فقط بالصـدور من مجمـوع ٧٢ صحيفة كانت تصـدر فى باريس فى ذلك الوقت .. ولكنه أعطى أصحاب هذه الصحف حرية العودة فى الصدور اذا رغبـوا ، وبعـد أن يثبتوا عكس ما جاء فى هذه التقـارير العلنية والسرية وقد حدث بعض أصدقائه من المقربين عن ذلك الاجراء قائلا : « لا أريد أن تصـدر الصحف وحسب بل وأن تكون مؤيدة لى » .. كما كتب يقول بالحرف الواحد : « لو أرخيت العنان للصحافة لما بقيت ثلاثة آشهر فى الحكم » (١٥) ..

واذا كان عـدد من المؤرخين قد أشاروا الى هذا الاجـراء والى ما تلاء من اجراءات أخرى بعبارات من مثل تلك التى يقولها فيل (١٦) ــ مؤرخ الصحافة الفرنسية ــ « كان نابليون يؤمن بقـوة الصحافة وكان هذا الايمان يشغله دائما »(١٧) أو قول شارل رو عنه أنه « أحب الصحافة دائما بشرط أن تكون رسمية » (١٨) .. فان مثل هذه الأقوال الكثيرة تفسر هذه الاجراءات نفسها ..

وأما عن هذه الصحف التى سمح لها بالصـدور فقد اتبع معها نظام رقابة صارم ، على جميع موادها تمكن بواسطته من أن يوجهها التوجيه الذى يخـدم أهدافه وغاياته ، كما أن هذه الاجراءات والقرارات نفسها والتى تضمنهـا ما يعـرف بمرسوم ١٧ يناير ١٨٠٠ ، استثنى من بينها صحيفة واحـدة هى صحيفة « لومونيتور » (١٩) بل جعـل منها لسان حكومته ، وصحيفـة الدولة الرسمية ، والتى تنقـل آفـكاره وآراءه وتعليماته وقراراته الى القراء داخل فرنسا وخارجها .. كما تجمع مراجع الصحـافة على أن الرجل كان يمارس بنفسـه الاشراف على كل كبيرة وصغيرة فى هذه الصحيفة الناطقة بلسانه بدءا بتحرير المقالات ، ومرورا بتوجيه المواد الأخرى ، وحتى أعمال الادارة والتوزيع .. بالاضافة الى العمل الأساسى .. عمل الرقيب نفسه مما دفع بهذه الصحيفة عدة خطوات

الى الأمام ، وأجبر الصحف الأخرى على أن تنقل عنها أخبارها ومادتها عامة .. ولكن أكثر هذه الأعمال ، كان يقوم بها من وراء ستار ، أو بصفة شبه سرية .. فى البداية .. ثم مارسها ــ جميعها ــ علنا .

ولكن ، مع ازدياد المعارضة لأعمال الرجل ، ومع قيام أكثر من محاولة لاغتياله بدأت فى ديسمبر عام ١٨٠٠ بالقاء قنبلة عليه وهو فى طريقه الى دار الأوبرا ، ثم بتكرار الاعتداء عليه من جانب اليعاقبة من المتطرفين ، بدأ الرجل يتجه الى المزيد من الاجراءات التى تجمد الدستور ، وتعطل عمل الأجهزة والمؤسسات الدستورية .. وكان من الطبيعى أن تنال الصحافة جانبا كبيرا من هذه الاجراءات العديدة التى استمرت قائمة خلال أكثر فترات حكمه ، وحتى نفيه ووفاته فى سنت هيلانه ، على النحو الذى سبقت الاشارة اليه .. وذلك باستثناء الصحف الأدبية ، تلك التى كانت تتمتع بكثير من الحرية فى عهده ، ولتقدم احدى واجهات الدعاية المشرقة للرجل نفسه ، الذى يعمل على رفعة الأدب ورقى العلوم والمعارف .. أما غيرها ، فقد واجهت العديد من صور الديكتاتورية البونابرتية والتى صنعتها قبضته الفولاذية .. وكان من بين هذه الصور نفسها ، بالاضافة الى صور الصراع الناشب بين الصحفيين وبينه والى الأقوال التى تتناولها .. هذه كلها :

* فقد ذكر عنه أنه قال وكتب فى مذكراته أيضا يقول : « اننى أوجس خيفة من ثلاث جرائد أكثر مما أخاف من مائة ألف مقاتل » .. وربما يكون ذلك هو سبب ما رواه عنه مترنيخ بعد ذلك بقوله : « ان الصحف كانت تساوى بالنسبة لنابليون جيشا مؤلفا من ثلاثمائة ألف مقاتل » ..

* وعندما كتبت الأديبة الكاتبة الصحفية « مدام دى ستيل » كتابها « فى ألمانيا » والذى صورت فيه حالة الحرية والتقدم والحفاظ على الدستور السائدة هناك ، متمكنة بذلك من توجيه ضربة انتقادية

الى عهد نابليون على طريقه « ما هنالك » التى تؤدى الى الحديث عن : « ما هنا » .. أمر الرجل بوضعها تحت المراقبـة الدقيقة ، وسلط عليها عيونه ، وكادت أن تتعرض للسجن ولكنها تمكنت من الهرب من هذه العيون الى انجلترا بعد أن أقض كتابها مضاجع الرجل .

* ويقول محمود سمهان : « وعناية نابليون بالصحافة وخطرها ، كان له أثره فى عصره فآمن بهذا الخطر رجالات الدولة ، بعد أن كانوا ينظرون الى الصحـافة نظرة استهانة ، وبلغ هذا الايمان حدا قال معه فوش أحد رجال نابليون : كلمة واحدة يهاجم بها وزير على لسان جريدة كافية لأن ترغمه على الدفاع عن نفسه فى عشر صفحات » (٢٠) .

* وقبل أن يصادر الرجل جريدة « البابليسيتى » (٢١) كان يوجه اليها مزيدا من الانتقـادات بشأن مادتها ، كما يروى أيضا أنها عنـدما نشرت بعددها الصادر فى ٢٠ يناير ١٨١٠ مقالا تناولت فيه بعض الشئون الأسبانية بشكل وأسـلوب لم يعجباه ، فانه أنذرها بالمصـادرة اذا لم تكتب مقالا آخر ، تصوب فيه ما وقع من أخطاء ، فما كان من الصحيفة الا أن كتبت مقالا يحمـل ما يريده الرجل ، وكان المقـال الثانى مغايرا تماما للمقال الأول ، من زاوية المضمـون والتفصيلات العـديدة التى وردت فيه .. ولكن عندما تكرر وقوع الصحيفة فى هذه الأخطاء فانه أمر بتوقفها عن الصدور تماما كما كان قد سبق وأن أوقف صـدور "الغازيت" ، والتى كانت من كبريات الصحف فى عهده ، لأنها نشرت خبرا واحدا غير مرغوب فى نشره .. فعوقبت بالمصادرة لعدة أيام .

* ويحكى ـ محسن محمـد ـ كيف ضـاق الصحفيون بعسف الامبراطور ، واضطهاده لهم ومصادرته لحرياتهم وفرضـه رقابة منعت نشر أى نقـد للامبراطور .. ولكن الصحفى ـ راؤول ريجولت ـ استطاع أن يتغلب على الرقابة بالحيلة والدهاء .. ولنقرأ معا ما فعله :

« اختار أحد المتسولين ومنحه عشرين فرنكا مقابل توقيعه على اقرار يقدم لوزارة الداخلية ، بطلب الترخيص باصدار مجلة اسمها الطبيعة وأنزل المتسول فى أحد الفنادق الكبيرة بعد أن اشترى له ملابس جديدة تناسب المقام ..

ووجدت الوزارة أن الاجراءات مستوفاة ، فوافقت على اصدار المجلة باعتبار أن عنوانها لا يشير أية اشارة الى أنها ستعالج الأمور السياسية ..

وفى العدد الأول كتب ريجولت : قرائى الأعزاء سنقدم لكم ابتداء من هذا العدد دراسات فى التاريخ الطبيعى نستهلها بالحديث عن الصقر الفرنسى الذى يسمى خطأ ملك الطيور ..

ثم يستطرد قائلا بلا مقدمات :

الصقر طائر مفترس ، خطاف ، جبان ، متوحش ، يعيش على لحوم الحيوانات والطيور الأخرى الضعيفة ، ويذهب الى أعشاشها لسرقة بيضها ، فقد رأوه كثيرا وهو ينقض على الحملان الوديعة لينزع صوفها ليفرش به وكره .. انه لا يرجع أبدا عن أى عمل قاس ليشبع نهمه الذى لا ينتهى ! وبعد كل ذلك ، قد نعتبر المشتغلين بالعلوم الطبيعية على حق فى تسمية الصقر ملكا ، لأن أغلب الملوك الذين هم على شاكلة الصقر ـ يتغذون عادة من دماء رعاياهم .. » (٢٢)

ولكن المسئولين فى وزارة الداخلية كانوا قد أدركوا أن المقال يقصد الامبراطور .. فتحركت الشرطة لمصادرة المجلة ، الا أن تحركها جاء متأخرا .. بعد أن أصبحت نسخها فى أيدى القراء ..

أما الصحفى نفسه ، فقد حصل على ترخيص جديد باصدار مجلة باسم « الجغرافيا » ثم « العلم للجميع » .. وهما تتناولان نابليون

وتشبهه الأولى بالجبــل والثانية بالأوزة ، ويكال النقــد للجبل الذى لا يتحرك ، ولا يعرف العواطف أو الاحساسات ، بل هو جامد دائما .. صلد أبدا .. أو للأوزة المتخايلة ، المعجبة بنفسها ، وهى تقود صغارها ..

« وعندما ترى النيابة تقــديم رئيس التحرير الى المحاكمة ، بتهمة « اساءة استعمال التاريخ الطبيعى ، لا تعثر عليه أبدا .. لأنه يكون قد غادر الفنــدق ليعود الى التسول ، غير شاعر بأنه قد ساهم فى الحمــلة ضد نابليون » (٢٣) .

---

(١) ا.ج. جرانت ـ هارولد تمبرلى ـ ترجمة بهاء فهمى « أوربا فى القرنين التاسـع عشر والعشرون » ص : ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ١٥٥ .

(٣-٤) هربرت فيشر ـ ترجمة محمد مصطفى زيادة : « نابليون » ص : ٨٢ .

(٥) La France vue de L'armee d'Italie

(٦) Le Courrier de L'armee

(٧) الدكتور أحمد حسين الصاوى .

(٨) أحمد حسين الصاوى : « فجر الصحافة فى مصر » ص : ١٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٠) Le Courrier de L'Egypte

(١١) ابراهيم عبده : « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » ص : ٦٣ .

(١٢) La decade Egyptieune

(١٣) اجلال خليفة : « الصحافة » ص : ٣٢ .

(١٤) ا.ج. جرانت ـ هارولد تمبرلى ـ ترجمة بهاء فهمى : « أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرون » ص : ١٨٠ .

(١٥) فرنان ترو ـ ترجمة محمود الفندور : « الاعلام » ص : ٢٣ .

(١٦) Weill

(١٧-١٨) أحمد حسين الصاوى : « فجر الصحافة فى مصر » ص : ٢٨ .

(١٩) صـــحيفة Le Moniteur universal التى كان محررها الرسـمى تاليران Talleyrand الذى تولى فى وقت من الاوقات وزارة الخارجية الفرنسية قبل ان يغضب عليه بونابرت ويعزله .

(٢٠) محمود سمهان : « الصحافة » ص : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢١) Publicite

(٢٢-٢٣) محسن محمد : « حكايات صحفية » ص : ٣٣ ، ٣٤ .

وارين هاردنج .

هل مات الرئيس الأمريكى مقتولا ؟

وارين هاردنج :

هل مات الرئيس الأمريكى مقتولا ٠٠ ؟

خبر واحـد فقط ، مكون من ٢٠ كلمة ، تناولته وكالات الأنبـاء والاذاعات والصحف العالمية منذ ما يقرب من ستين عاما ، ولكنه ما يزال حتى الآن ، يضرب به المثل فى الغموض والابهام .. ويلف أسباب وقوعه عدد كبير من الستائر السوداء التى نجحت ــ على الأقل حتى الآن ــ فى أن يظل السر فى بير ، بل وفى سابع بير أيضا .. بينما لم تنجح هذه الستائر نفسها فى أن تلغى الخبر تماما من الأذهان ، أو أن تتحول هى الى ستائر النسيان ..

فما يزال الخبر نفسه ، منذ حمله البرق على أجنحة أجراسه الثرثارة ، على حـد تعبير « فيل أولت » .. ما يزال عالقـا بالرؤوس ، يثير الريب والشكوك ، وتقفز على ذكره الى الوجوه عشرات من علامات الاستفهام .. تلك التى ما تزال بدورهـا تبحث عن اجـابة شـافية هى : من قتل الرئيس ؟.. ولماذا قتله ؟

وصحيح أن الخبر المثير نفسه والذى يعد من أبرز الأخبـار العالمية اثارة فى فترة ما بين الحـربين العـالميتين .. ان لم يكن أبرزهـا على الاطلاق .. هذا الخبر قد حمل الى المواطن الأمريكى والقارىء والمستمع العالمى ، سببا وجيها جدا ، ولكن حتى والخبر نفسه تنقله عشرات من الوكالات العالميـة والمحلية ، كان الناس فى الولايات المتحـدة يشكون

كثيرا فى صحة هذا السبب ومن ثم راحوا يتحولون بسرعة ، الى الأحداث القريبة ، والأخبار الشخصية ، والتكهنات والتخمينات .. ذلك لأن قلة قليلة جدا .. كانت هى التى تقف على حافة التصديق ، ولا تصدق تماما .. ما جاء فى هذا الخبر الذى تم بثه وتمت اذاعته مساء ١٤ أكتوبر عام ١٩٢٣ والذى يقول :

« توفى فى الثامنة وخمس دقائق من مساء اليوم الرئيس وارين هاردنج بسبب جلطة فى المخ لم تمهله سوى دقيقة واحدة » .

ولأن « الرجل » ليس شخصا عاديا ، ولأنه لم تنشر أخبار كثيرة عن سوء حالته الصحية ولأن الشعب الأمريكى كان يتابع أخباره ومعاركه مع الصحافة ، وحتى مع زوجته أيضا ، بعد أن كشف عن هذه المعارك العائلية بعض الصحفيين ، ولأن هناك بعض الخلافات العديدة التى كانت تطفو على سطح الحياة السياسية ، وتمتد حتى داخل البيت الأبيض نفسه .. لهذه الأسباب العديدة ، فقد كانت وفاة الرئيس والكشف عن سببها الحقيقى ــ وهو ما لم يعرف بعد ــ من أبرز القصص التى تنافس أكثر الروايات البوليسية اثارة ..

فهل كانت الصحافة هى السبب ؟ أم أنها زوجته ؟ أم أنه رئيس مخابراته ؟ أم طبيبه الخاص ؟..

واختلفت الآراء ، وتعددت ، واختلفت التكهنات أيضا ، وأصبحت المسألة شبه أسطورة .. بل أصبحت شغل المجتمع الأمريكى الشاغل ، بل تطوع عدد كبير من المخبرين السريين ومن هؤلاء الذين يقومون بالمهام الخاصة ، وحتى من يدعون العلم بما وراء العالم المعروف ولكن أحدا منهم لم يصل فى بحثه الى اجابة شافية ومعقولة على السؤال الكبير نفسه .

على أن أغلب أفراد الشعب الأمريكى ، ومن بينهم عـدد كبير من المثقفين ، ومن العـارفين بالرئيس نفسـه راحوا يقولون : فتشوا عن الصحـافة .. انها السبب بشكل مباشر أو غير مباشر .. ان لهـا قصب السبق ، النصيب الأكبر فى مقتل الرئيس !!

وكان فى أيدى هؤلاء ، بعض الأسباب التى كانوا يرون من خلالها ، أن العلاقة غير العادية ، وأن الكراهية المتطرفة ، وأن الحب المفقود دائما بين الرئيس وبين الصحـافة الأمـريكية هى التى دفعتـه أخـيرا الى هذا المصير ..

ولكن كيف ؟

يا لها من مسألة غامضة أخـرى .. بل ان من الغريب ــ حقا ــ أن يحدث ذلك للرئيس الذى كان صحفيا أصـلا ، بل والذى مارس عددا كبيرا من الأعمال والمهام الصحفية بدءا بأعمال التحرير والكتابة العادية ، ومرورا بأعمـال الادارة ، وحتى عندما انتخب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فانه كان يمتلك ثلاث صحف هامـة ، وناجحـة وهى صحف « ماريون ــ أهيو ــ ستار » وأكثر من ذلك ، فقد كان حرصه بالغا على عقد المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض ، وكان يقـدم للمندوبين بيانه بكلمة : « زملائى » .. وكثيرا ما كان يقـول لهم : « نحن أبنـاء مهنة واحدة » .. بل يقولون عنه أنه كثيرا ما كان يفشل فى حجب عـدد من الأنباء الهامة عن مندوبى البيت الأبيض ، ومن أجل ذلك فقد كان يورط نفسه ويورط حكومته أحيانا بسبب بعض الاجابات التى لم يكن يعمل بالنسـبة لها بالحكمة التى كان يسير عليها الرؤساء قبـله والقائلة : « ليس كل ما يعرف يقال » .. بل يقولون أيضا أن بعض اجاباته كادت أن تفسد عليه سياسة الدولة .. وقد ظل كذلك وقتا طويلا ، حتى أشار عليه وزير خارجيته ألا يجيب على أى سؤال لصحفى أو مراسل لا يقدم اليه غير مكتوب ، ونصحه بعض أعوانه عندما شاهدوا ضعفه أمام عمله

السابق أن يطلب تقديم قوائم الأسئلة قبل انعقاد المؤتمر بعدة ساعات .. ولكنه كان يرفض ذلك باصرار .. ترى ، هل كانت تلك سياسته ، أم أنه كان يحن ، وبشكل ما ، الى مهنته القديمة ؟

كذلك فقد كان الرجل يتمتع بشخصية شعبية لا بأس بها ، ويكفى أنه انتخب بأغلبية سبعة ملايين صوت كاملة .. وهى أغلبية كبيرة جدا ، ولم تحدث فى التاريخ الأمريكى وهذا وحده يكفى لأن تصبح هذه الشخصية الأنموذج والقدوة ، وذات البريق والاثارة لعشرات السنين .. وقد ازدادت هذه الشخصية نفسها بريقا ، وشهرة ، وبالتالى شعبية عندما أحرز فى بداية حكمه نجاحا كبيرا فى مسألتين هامتين .. وهما : تخفيض نفقات تسليح جيش الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذا تخفيض الضرائب ، ولم يلق بالا الى المعارضة الشديدة من جانب العسكريين أو رجال الاقتصاد والادارة .

ولكن ، لا زمالته القديمة ، ولا بعض التقاليد التى أرساها لمؤتمرات الرئيس الأمريكى الصحفية ، ولا شعبيته الكبيرة .. هذه كلها لم تفلح فى حمايته من الأقلام الصحفية التى تنبش دائما عن الأخطاء وتفتش عنها بعينى صقر ، وتتبع رائحتها كما الكلاب البوليسية ، وتحاول دائما أن تتحين فرصة ضعف واحدة تبدو .. لكى تهاجم ، وتكشف المستور ، وربما تضيف اليه أيضا كثيرا من بنات أفكارها فما ان ظهرت على السطح بعض قضايا الرشوة واستغلال النفوذ لعدد من رجال البيت الأبيض من غير المقربين من الرئيس .. حتى أمسكت الصحف عامة ، و « ستردای ايفننج بوست » (١) خاصة بتلك الخيوط الاخبارية .. وراحت تجمعها وتتبعها فى حديقة البيت الأبيض ، وبعض أحياء واشنطن العاصمة ، ومدارسها أيضا .. حتى اشتدت الحملة عليه تماما .

على أنه خلال هذه الأوقات كلها ، كان هناك الصحفى المخبر المحقق « ساموِيل ذ . كليفت » الذى كان يتابع خيوط قصة الرئيس وارين

هاردنج ، والذى كشفت متابعته الغريبة عن عدد من الخبايا والأسرار .. التى يقولون أن كشفها كان هو السبب فى اصابة الرجل بالذبحة الصدرية .. وأخيرا فى وفاته ..

بل ويقولون أيضا ، أنه حتى اذا لم تكن الوفاة قد تمت بهذا السبب ، أو بغير السبب الذى أعلن عنه فى خبر وفاته ـ جلطة فى المخ لم تمهله دقيقة واحدة ـ فان السبب أيضا لن يخرج عن ذلك الدور المقزز ، لذلك الصحفى الذى نبش حياة الرجل وأخرج منها كل مستور قضى ـ فى النهاية ـ عليه .

ومن الغريب أن هذا الرجل نفسه ـ الصحفى ساموبل ـ رفض أن يترك فريسته حتى بعد الوفاة ، بل دخل فى السباق المحموم من أجل الاجابة على السؤال الكبير نفسه .. من قتل الرئيس ، وفاز أيضا على جميع المتسابقين ، وحقا ، لقد كان هذا الرجل يمثل دور « الضبع » ذلك الحيوان الردىء السمعة جدا ، الذى يتبع الانسان فى نهم منقطع النظير .. ويظل يتبعه فترة طويلة من الوقت دون أن يستطيع أن يهاجمه طالما يقف الانسان على قدميه ، أو يعطى له وجهه ، وطالما يحس قوته .. فاذا غفل الانسان عنه .. ولو للحظة واحدة ، وأدار له ظهره ، أو اذا جلس على الأرض أو نام ، أو حتى مال بجذعه ليلتقط شيئا ، أو استدار ليتناول جرعة ماء ، أو بدا عليه الارهاق ، فانه يهاجمه فورا .. فاذا لم يجد طعامه باستخدام هذه السبل .. فهناك القبور التى لا يجيد نبشها مثله .

ولكن هذا « الضبع البشرى » كان يبدى خلال الأيام الأخيرة لحياة رئيسه بعض العطف عليه ، حتى قيل أنه سئم من متابعته تماما .. وأكد ساموبل نفسه ذلك بمقال افتتاحى ، يبدو فيه أنه يراجع نفسه ، وأنه يندم على ما اقترفه من ذنوب كثيرة ، فى حق الرجل .. بل ان عنوان المقال نفسه كان هو « مراجعة هادئة لرجل هادىء » .. حتى أن زوجته ـ على

ما قيل ــ سألته أن يقرأ هذا المقال قبل وفاته بثوان معدودات وهو يرقد فى جناحه الخاص بفندق فى سان فرانسيسكو .. حيث دار بينهما الحوار التالى :

الزوجة : هل قرأت صحف اليوم ؟

الرئيس : ولماذا ؟ ولماذا .. وهل هناك ما يهم ؟

الزوجة : نعم ..

الرئيس : لا أعتقد .. فالدنيا على ما هى عليه ، والناس فيما هم فيه من شئون ، كما أننى ضقت تماما بهجومهم على .. انهم يهاجموننى دائما ، بسبب وبغير سبب .

الزوجة : ولكن هذه افتتاحية لا تهاجمك .

الرئيس : لا أصدق .

الزوجة : بل انه الواقع حقا .

الرئيس : ومن هو كاتبها ؟

الزوجة : انه ساموبل نفسه .

انطلق الرئيس يقبض على الصحيفة وهو يردد .. ساموبل .. ساموبل .. غير معقول ، غير معقول .. نظر الرجل الى عنوان المقال ثم ناول زوجته الصحيفة لتقرأ له .. ولكن هذه ما تكاد تبدأ قراءتها حتى كان الرجل قد مال بجسده على الوسادة .. وفارق الحياة ! ..

كل ذلك صحيح ، بل وتردد أكثر منه ، من تلك الصور التى تشير الى سأم المطارد ــ بكسر الراء ــ ولكن ساموبل نفسه ، بدأ العمل من جديد .. ومع اختلاف فى الهدف هذه المرة .. نعم ، انه ما كاد يستمع الى خبر الوفاة ، الا وقد أحس أن قصصه الاخبارية ، وأن تحقيقاته كانت هى

السبب ، بشكل أو بآخر .. ومن ثم ليبدأ بحثه يأخذ طريقا آخر ، ولتبدأ تحرياته تمسك بخيوط الحادثة ، وتقبض عليها جيدا .. وكانت بدايته الى ذلك ، بعد هذا الاحساس الجديد .. أو هذه المراجعة الانسانية الهدف النهائى الذى حدده فى سؤال يقول :

هل مات الرئيس وارين هاردنج ميتة طبيعية .. أم أن فى الأمر جريمة ؟

بعد كثير من اللف والدوران ، والانتقال الى أكثر من مكان ، ومخاطبة عشرات الأشخاص ، ومن جميع المستويات الفكرية ، والطبقات الاجتماعية ، وبعد سهر كثير وجمع لعدد لايحصى من المعلومات،ومقارنتها ببعضها وبأقوال الأطباء والقادة والمعارفوالأصدقاء والمرضين والممرضات والخدم والخادمات أيضا ، بعد كل ذلك ، كانت قد طفت على السطح عدة مشاهد غريبة ، أمكن بربطها ببعضها ، وبالعمل على اتصالها ببعض الأحداث الماضية وكذا بعض المثالب والفضائح ، والقصص والشائعات .. أمكن للصحفى أن يثير عدة تساؤلات هامة أخرى .. صحيح أنه سبق بها غيره ، بل سبق ببعضها لجان التحقيق نفسها ، ولكن هذه التساؤلات بدورها قد زادت من غموض الحادث عدة درجات ، بل راحت — هى الأخرى — تلفه بعدد من الستائرالجديدة ، حيث دارت بالجميع فى متاهات عديدة .. كانت هذه صورتها :

— لقد حدث فى البداية خلاف كبير بين الأطباء أنفسهم .. يستوى فى ذلك كبارهم وصغارهم .. البعض يقول أن الرجل مات كما يموت كل انسان .. ميتة ربه ، تلك التى لا يفرق عزرائيل حيالها بين رئيس الولايات المتحدة وبين سائقه .. والبعض الآخر ينفى ذلك ، وباصرار ، ويبدى على الملأ شكه الكبير فى طبيعة الوفاة .

— وعندما حضر طبيب البيت الأبيض الخاص ، وأخذ بعض العينات وقام بتحليلها سريعا ، عاد برأى غريب .. أو بمتاهة أخرى من هذه

المتاهات نفسها .. عاد يقول أن السبب فى الوفاة أكلة السمك التى تناولها على الغذاء .. لقد أصابته بحالة فريدة من حالات التلبك المعوى ساعدت على تصاعد حدة الجلطة .. مما عجل بوفاته .. وعلى الفور بادر رئيس الطباخين الى الاعلان فورا عن أن طعام الرئيس لم يكن به خلال ذلك اليوم أى نوع من الأسماك التى لا يحب أكلها الا نادرا .. أما زوجته فقد راحت تؤكد أنه تناول السمك فعلا مع الغذاء .. وأنها لا تعرف شيئا عن بيان رئيس الطباخين .. فمن أين اذن جاءت الأسماك ؟

ـ وارتفع صوت عديد من الأطباء ينادى بضرورة تشريح الجثة .. وصرحوا بذلك علانية الى الصحفى ، الذى كان يفتش عن أسباب الجريمة .. تماما كأحد الكلاب البوليسية .. ولكن الزوجة نفسها رفضت السماح بتشريح جثة زوجها .. وأصرت على رفضها تماما ، وعلا صوتها وهى تردد لا .. لا .. لن أسمح بالتشريح ، بل وأكثر من ذلك . وعلى مسمع من جميع الحاضرين وأعضاء لجنة التحقيق ، وكذا .. على غير رغبة من الأطباء الذين يواصلون بحثهم .. تساءلت الزوجة بصوت مرتفع .. لماذا لا يشترك معكم فى تجرياتكم الدكتور «آدمز» الجراح الخاص بالرئيس. وأضافت قائلة .. اننى أعلم أنه كان قد نصحه بعدم القيام بهذه الرحلة الى « سان فرانسيسكو » .

كانت ملاحظة لزوجة الرئيس .. قوبلت بشىء من الامتعاض من جانب الحاضرين وحيث كان لسان حال كل منهم يقول .. هل آدمز فقط هو الذى يستطيع أن يكشف عن « المستخبى » .. وهل هو أفضل من الجميع فى نظرها ؟ .. تماما كما تساءلت عيونهم عن سبب رفضها تشريح جثة زوجها .. فى نظرات زائغة .. قلقة ..

ولكن هذه الملاحظة لم تكن لتفوت على مخبر صحفى قدير .. كان تابع التحقيقات بعينين مفتوحتين تماما ، وأذنين تشبهان سارية محطة رادار ، تقومان بالتصنت الدائم .. على كل صغيرة وكبيرة ..

وبأنف صحفية يحسده عليها كثيرون .. وتستطيع أن تتشمم مواقع الأنباء الهامة .. فلماذا ترفض تشريح الجثة ؟ .. ولماذا هذا الرجل بالذات ؟

كان ساموبل من هذا النوع من الصحفيين الذى يفكر فى كل شاردة وواردة ، ويمسك بتلابيبها .. فقد تقوده الى خبر يكون له وقع القنبلة .. وعندما جاءت ملاحظة زوجة الرئيس التى ترفض فيهـا تشريح الجثـة وتطلب أن ينضم دكتور آدمز الى فريق الباحثين .. لفتت هذه الملاحظة نظره تماما .. وأيقظت حاسته الصحفية .. بل حواسه جميعها .. عنـدما تحولت الى عدد من الأسئلة التى قفزت الى ذهنه الصحفى .. والتى تنبع جميعها من سؤال واحد كبير .. سؤال يقول : هل للدكتور آدمز دخل فى هذه الحادثة ؟ ..

ولم يضيع ساموبل وقتا ، بل انطلق يبحث فى أرشيف صحيفته ، ثم فى أرشيفه الخاص ، عن كل ما يتصل بهذا الرجل ، بل عاد الى بعض من عرف من أصدقائه .. ثم أخذ يربط بين حديث الأصدقاء .. وبين المعلومات الجاهزة ، وكذا بين تلك القصة القديمة التى كان هو نفسه قد أعلن عنها منذ سنوات ، والتى تربط بين الرئيس هاردنج ، وبين صديقة له منها طفلة غير شرعية .. وهى علاقة تعرفها تماما جدران البيت الأبيض كما أن زميلات الدراسـة لهذه الطفلة يعرفن تماما أنها ابنة الرئيس الأمريكى .. فلماذا نصحه الجراح الخاص اذن بعدم الذهاب الى سان فرانسيسكو ؟ .. ولماذا أصر هو على الذهاب اليها ؟ .. ثم .. هل لرفض مسز هاردنج تشريح جثة زوجها ارتباط بالحادثة نفسها ؟

وبدأ ساموبل يكتب عن مخاوفه .. ويعرض الخطوط الأولى التى توصل اليها على القراء ، وتحت أنظار رجال التحقيق ، ولكن أحدا لم يلق الى هذه الكتابات بالا فى البداية ولم تزد تأثيراتها على أنها بدأت تضيف مزيدا من الغموض الى قضية وفاة الرئيس ولكن ذلك لم يفت فى عضد الصحفى .. وانما تحولت المسألة عنده الى قضـية خاصة رأى هـو أن

يستمر فى بحثها .. وأن يحاول أن يقنع الآخرين بذلك .. بل انه رأى أن واجبه يحتم عليه ذلك ، نظير ذلك الهجوم العنيف الذى أصاب به الرجل فى حياته .. ومن ثم ، وفى لحظة من لحظات الشهامة ، ويقظة الضمير الصحفى ، بعد طول رقاد ، قرر أن يترك تماما دور الضبع البشرى ، وأن يعمل فى خدمة المهنة والعدالة ، وأن يحاول جهده أن يصل الى شىء ذى بال .. فأخذ يعيد ترتيب أوراقه ، ويدرس القضية مرة أخرى ، ويتوقف عند كل كلمة ، وكل حرف .. وكانت أكثر الكلمات التى توقف عندها هى كلمة : السم فهل مات الرئيس مسموما ؟ .. ومن الذى دس له السم فى الطعام ؟ ..

من خلال قراءاته لتقارير الأطباء ، وعلى وجه الخصوص تقرير اخصائية السموم بالبيت الأبيض عرف أن هذا السبب بعيد ، ولكنه محتمل أيضا .. أما أنه بعيد فلأن الرئيس كان طوال حياته يخاف السموم ، ولا يسمح بوجود أى نوع منها حتى فى صيدلية البيت الأبيض .. ولكنه ، وبتفكير محقق يرى أن دس السم للرئيس فى طعامه لا يتطلب بالضرورة أن يأتى من داخل البيت الأبيض ، أو من فوق رفوف صيدليته ، كذلك ، فمن منا لا يخاف السموم ؟ .. وهل هناك أحد يحبها ؟ .

وباحساس الصحفى أيضا ، رأى أن استبعاد أخصائية السموم لهذه الفكرة يقوم على أساس أن أنواع السموم المعروفة ــ وكما جاء فى تقريرها ــ هى على وجه التحديد : حامض الكربونيك ، والزرنيخ أو سلفيد البوتاسيوم .. ولكن لماذا لا يكون هناك بعض أنواع أخرى من السموم ، لا تعرفها هذه الاخصائية ؟ ..

وبسرعة ، تناول دليل التليفون ، وحدد أكثر من رقم ومكان لعدد من الأخصائيين ومعامل التحاليل التى يتوقع أن يجد بينهم من يفيده فى هذا الموضوع .. حيث قضى بين هؤلاء نهار اليوم التالى ، حتى كاد هو أيضا أن يصبح خبيرا بالسموم .. وقد عرف ضمن ما عرفه من حكاياتها

وأنواعها واستخداماتها .. أن هناك بعض الأنواع الأخرى ولكنها لاتتوافر فى الولايات المتحدة الأمريكية..وان توافرت ، فبشكل نادر للغاية .. وفى بعض الصحارى البعيدة عن العاصمة ، وأما موطنها الأساسى فجنوب آسيا الشرقى ، وبعض بلدان غرب أفريقيا ومرة أخرى .. وكمحقق صحفى تساءل : أليست هذه حكاية جميع الأدوية والعقاقير ؟ .. انها — فى حدود علمه — عبارة عن نباتات وأعشاب برية لا يتوقع أن تنمو فى حدائق واشنطون ، أو فى حديقة البيت الأبيض ، أو فى شرفاته بين أحواض الزهور .. ولكن المعامل العلمية ، والصيادلة ، والكليات الجامعية تحصل علينا من أماكن بعيدة جدا .. فلماذا لا يكون قد دس للرئيس فى طعامه بعض هذه الأنواع الجديدة من السموم ؟..

ومن هنا ، فاذا كان تقرير الأخصائية يستبعد حكاية السم ، فان ما تجمع لديه من معلومات تجعل الأمر واردا ومحتملا ..

وعاد الرجل بهذه المعلومات الى الأخصائية ، التى لم تنف امكانية وجود بعض أنواع السموم التى لا تعرفها ، ولكنها أضافت فى نفس الوقت أن وفاة أى شخص متأثرا بتناول السم هى مسألة لا تفوت على أى طبيب، بمجرد النظرة الأولى الى جثته ، والى وجهه .. كما أن تناول أى نوع من السموم يسبب للضحية آلامارهيبة تبدوآثارها واضحة علىتقاطيع وجهها حتى بعدالوفاة لوقت غيرقصير..والمعلومات التى عندهاوالمتوافرةفىتقارير زملائها من الأطباء ، وكما أعلن على العالم كله ، أن الرئيس مات فورا وأن الأزمة لم تمهله سوى دقيقة واحدة ..

— ألا يكون من بين هذه السموم الجديدة ، ما يمكنه القضاء على الضحية خلال مثل هذا الوقت القياسى ؟

— ان أسرعها هو الزرنيخ .. ولكن من الذى حمله الى الفندق ؟ وكيف ؟

— وهل يمكن ألا يظهر الزرنيخ فى طعام الرجل ؟

ــ يمكن طبعا .. بشرط أن يضعه خبير .. وأن يحدد الكمية ، ونوع الطعام أو الشراب الذى يضعه فيه ، والذى يذوب معه ، ويتفاعل بشكل لا تحسه أو تستشعر الضحية وجوده ، كما يمكن وضع أنواع منه فى الفاكهة أيضا .

ــ ... وهل يمكن ألا تظهر آثار الوفاة بتأثير منه على جسد الضحية ؟

ــ فى أحوال نادرة للغاية .. وبالنسبة لتفاعل الزرنيخ نفسه مع بعض المواد الأخرى .. انه فى هذه الحالة قد يقتل فورا دون أن تظهر آثاره على الضحية ، كما أنه فى بعض الأحوال الأكثر ندرة ، كانت الضحية قد تناولت نوعا من الطعام الذى قضى بتركيباته المعينة على الكمية القليلة من الزرنيخ التى وضعت فى طعام آخر .. أو فى سائل ..

وبينما الصحفى يفكر فى حكاية السم .. ويعمد الى دراسة أدق تفصيلاتها ويربط الأحداث ببعضها .. كانت قد برزت فى ذهنه فكرة ، سرعان ما أصبحت خاطرا ملحا .. يقول بضرورة تعقب « دكتور آدمز » . فيبدو أنه حول شخصيته تدور الحلقة المفقودة ..

ونجح الرجل فى تعقبه له ، ونجح أيضا فى الجلوس اليه ، وقال الجراح الخاص للرئيس أنه نصحه فعلا بعدم الذهاب الى سان فرانسيسكو لأنه كان يخشى من تجدد اصابته بالذبحة الصدرية ، ولكنه سافر اليها مستخدما السفينة بدلا من القطار .

ــ لماذا ؟

ــ لسبب خاص جدا .

ــ هل هو يتصل بعودة العلاقة بينه وبين صديقته ؟

ــ اذن فأنت تعرف حكايتها ؟

ــ لقد كنت أنا من كشف عن سرها ، وعن سر ابنته اليزابث نان منها ..

ـ ولكن قل لى .. هل تعلم زوجته بذلك ؟

ـ لست أدرى .

ـ يقولون أنك تعرف كل شيء ؟

ـ دعهم يقولون .

... وخلال يوم واحد بعد هذا اللقاء ، كانت قد تجمعت للصحفى بعض الحوادث المثيرة التى تلقى بأكثر من ضوء على القضية .. وكان من أهم هذه الجوانب ما جاء على لسان زوجته نفسها فى حديث صحفى ـ وليس فى تحقيق رسمى ـ من أن زوجها كان يتناول كوبا من الحليب ، فى نفس اللحظة التى كانت هى تقرأ له السطور القليلة من مقالة ساموبل .. التى يبدو فيها وكأنه يصالحه أو يريد أن يبدأ معه صفحة جديدة ...

فهل يكون هذا الكوب هو السبب ؟

ومن الذى دس له فيه السم ؟

هل هى الزوجة فقط ؟ أم بمصاحبة أحد الأعوان .. من هؤلاء الذين يعرفون شيئا عن خواص السموم ؟ ومن يكون هذا الرجل ؟

عشرات من علامات الاستفهام العديدة ، بدأت تترى على رأسه ، تلح عليه بعنف ، لقد شعر أنه يقترب من نهاية القصة ، ان جميع خيوطها تتجمع الآن عنده .. ولكنها على الرغم من ذلك ، تعود فتبتعد ، أو يلفها التيه مرة أخرى .. وها هو يدور فى دوامة الأحداث اللعينة ..

ـ فأين ذلك الكوب ؟ ..

ـ ومن يكون الرجل ؟ ..

ـ وما الذى دفعه الى ذلك ؟

ـ وهم تم بمساعدة أحد ؟

.. وأخيرا ، هداه تفكيره الى أن يعيد قراءة بعض الأسماء التى تمثل

بطانة زوجة الرئيس ، والذين تعتبرهم هى من أصدقائها ، كما ربط بين تفضيل الزوجة للجراح ، فى عدد من رحلاتها ورحلات زوجها ، حتى هذه الرحلة الأخيرة ، وبين قصة قديمة ألمح اليها من طرف خفى بعض الأصدقاء .. أصدقاء الزوجة وأصدقاء الطبيب — معا — وكذا بين ملاحظتها القديمة التى أوردتها خلال التحقيق نفسه ، والتى أثارت بعض الأطباء .. وبمتابعة تحركات الطبيب الجراح ، وتصرفاته عرف ساموبل من بعض العاملين فى الفندق الذى حدثت به الوفاة ، ومن بعض المقربين من الرئيس أن الطبيب لم يكن يترك الزوجة الا نادرا ، وأنه تناول الشراب معها قبل وقوع الحادث بوقت قصير ..

وبسرعة كانت قد قفزت الى ذهن الصحفى معادلة ليست صعبة .. معادلة تقول :

رجل متزوج يعيد خيانة بيت زوجية مرة أخرى ويسافر مع صديقته دون علم زوجته + ابنة غير شرعية + خلافات زوجية دائمة + طبيب صديق للزوجة ويعلم من أمرهما كل شيء ..

لماذا اذن لا يقوم بتبليغ الزوجة ؟ ولما لا تقنعه هى بمساعدتها على التخلص منه ؟ وربما يكون خطأ ساموبل الوحيد أنه كان دائما يعلن عن ريبه وشكوكه .. على الورق دون أن تكتمل له المعالم والأسس التى تجعلها وقائع مؤكدة .. والواقع أن هذا الخطأ قد أضر به كثيرا .. فما كاد يعلن عن احتمال وجود علاقة ما بين الزوجة وأحد موظفى البيت الأبيض.. حتى كان خبر اعلان وفاة الطبيب منتحرا هو موضوع الساعة ..

ومرة أخرى أحس ساموبل ، أن الأمر يكاد يفلت من بين يديه .. وأنه يدور وحده فى حلقة مفرغة ، وأن أحدا لا يريد مساعدته فى مداومة العمل بهذه القضية بل يقال أنه تلقى أكثر من تهديد بالقتل ، اذ هو أصر على الاستمرار فى بحثها .. بل ان عددا من المحققين أنفسهم كان الملل قد تسرب الى نفوسهم ، ومن ثم فقد كان يثيرهم حقا أن يستمر هو فى العمل،

وأن يسبقهم الى النتائج ، بل وجد هؤلاء فى ذلك تدخلا فى اختصاصاتهم، ينبغى أن يوقف عند حده ، ومن ثم أو صدوا جميع الأبواب فى وجهه ولم يعد أحد يمده بما يريد من أوراق التحقيق أو تقاريره أو نتائجه ..

أكثر من ذلك ، عندما علم ساموبل عن طريق تحرياته الخاصة أن انتحار الطبيب قد تم بعد ساعة واحدة من زيارة السيدة هاردنج الى منزله متخفية .. وطلب فتح التحقيق فى ذلك الأمر واضافته الى الحيثيات.. لم يجد أذنا صاغية ..

وأخيرا .. عندما فشل فى أن يحرك دوائر الشرطة .. اتجه الى مدير مخابرات واشنطن .. وكانت له صلة قديمة به .. قال له « انى ألوذ بك » تحرك .. ان دم الرئيس يكاد يذهب هدرا .. ان زوجته كانت بمنزل الطبيب المنتحر ..

هز رئيس المخابرات رأسه .. ومال بظهره مستندا على كرسيه ثم قال له ..

ـ وأى عجب فى تلك الزيارة ؟ ..

... ساعتها عرف الرجل أنه قد فت فى عضده تماما .. وأن هناك من لا يريد أن يعرف الناس .. من الذى قتل الرئيس وارين هاردنج .. ولماذا؟ بينما أغلقت أوراق التحقيق تماما .. ووضع ملف القضية كلها على الرف.. رغم التحقيقات العديدة التى كتبها الرجل بعد ذلك .. ونبه فيها ، بل وأثبت كذلك الصلة الوثيقة بين السيدة هاردنج .. زوجة الرئيس الأمريكى .. وبين الطبيب المنتحر .

هل عرفتم أنتم ـ رغم اغلاق ملف القضية ـ من الذى قتل الرئيس.. ولماذا ؟

---

(١) Saturday ev. Post

لويس فيليب

عندما ولدت
حرية الصحافة

لويس فيليب :

عنـدما ولـدت حـرية الصحافة

كانت أيام هذا الرجل ، وعلى وجه التحديد « أواخر أيامه » .. من أهم الأيام التى شهدت تطورات صـحفية عديدة .. بل ان هـذه الأيام نفسها ــ ولا أقول عهده كله أو حكمه كله ــ تعتبر قنطرة بين فترتين ، بين صحافتين ، ليس بالنسبة للصحافة الفرنسية وحـدها ، وانما بالنسـبة للصحافتين الأوربية والعالمية فى آن واحد .

على أننا نبادر الى القول ، أن الرجل ــ على الرغم من ذلك ــ لم يكن من هؤلاء الذين قاموا بنثر الورود أمام الصحافة والصحفيين ، أو مهدوا طريق العمل أمامهم ، أو مدوا لهم يد المساعدة ، على أية صورة من صورها .. بل لقد كان موقفه منها يغاير تلك المواقف مغايرة تامة ، ويفصل بينه وبينها مسافات بعيدة !

ذلكم هـو « لويس فيليب » .. ثالث ملوك ما يعرف فى التـاريخ الفرنسى باسم « عهد الاصلاح ١٨١٥ ــ ١٨٤٥ » والذى أعقب سـقوط نابليون ..

أما هذه التطورات الصحفية التى بدأت رياحها تهب على الصحافة فى آخر أيامه فقد جاءت كلها على أثر ظهور « حرية الصحافة » .. حيث ساهم المناخ الجديد فى دفع الصحافة عدة دفعات الى الأمام .. كما تفاعلت هذه

الحرية نفسها عدة تفاعلات ايجابية .. مع التطورات الحضارية الحادثة .. تلك التى أثرت فى « الموقف الصحفى » أبلغ تأثير ..

على أن أهم من ذلك كله ، ما يقول به عدد من المؤرخين ورجال الصحافة ، من آن هذه الحرية الجديدة ، قد ولدت فى عهد الرجل أيضا ــ لويس فيليب ــ حتى وان كان ميلادها قد تم على الرغم منه .. ولكن كيف ؟

ذلك لأن الرجل ، وهو ثالث ملوك عهد الاصلاح بعد « لويس الثامن عشر » و « شارل العاشر » رأى بمشورة عدد من أعوانه ، أن يستفيد من تجارب هذين المريرة ، والدموية أحيانا ، مع الشعب الفرنسى، ممثلا فى صحافته وأحزابه ، تلى التى كانت تؤيد الثورة ، وتعمل على الدفاع عن نتائجها ، والانتصار لها فى مواجهة أحزاب عديدة أخرى قام بعضها على أساس من الهجوم عليها ــ الثورة ــ والقاء التهم فوق رأسها، والنظرة اليها من زاوية نتائجها الدموية وحدها ومن ثم التنديد بها وبرجالها .. وربما كانت هذه هى أبرز مظاهر السياسة الفرنسية خلال هذا العصر المسمى بعصر الاصلاح ..

أقول .. رأى الرجل أن يفيد من تجارب سابقيه وألا يناطح الشعب والصحافة والصحفيين رأسا برأس ، وانما يظهر بمظهر الحريص على الحياة الحزبية ، والصحفية الحقيقية بل والحريص أيضا على أن تتبوأ الصحافة مكانتها اللائقة بها ، وأن تكون فى مكان الصدارة من عهده .. بينما هو فى الواقع يحنى رأسه لعواصف الأيام الأولى ، حتى تمر على خير ، ويتجنب مواجهة الصحافة المنتصرة على سلفه ، المتحمسة تماما لكى تقتلع من طريقها كل من يعترضها .. بل وينشر بين أصدقائه وجلسائه أنه صديق للقلم ، صديق للحرية أيضا ويبلغ فى أدائه لدور الصديق مبلغا يحسده عليه كبار الممثلين ، حيث راح يقرب بعضهم منه ويقدم لهم الهدايا والمنح، بل والمساعدات المالية أيضا .. كل ذلك بينما هو يضمر لهم غير ما يظهر ،

ويريد بهم شرا لا يقل مقداره عما أراده بهم أسلافه .. ويجلس بين أخلص خلصائه يتحين الفرص ، ويرسم الخطط للايقاع بهم ، وبضاعتهم « الرديئة » ، وللتنكيل بكل من يحمل القلم .. أو يدعو الى حرية الصحافة ..

ومن هنا فقد راح الرجل يوسع صدره للنقد الصحفى ، ويتقبل الهجوم عليه ، ثم على أصدقائه بصدر رحب ، بل ويصبر على الصحفيين كثيرا ، ويعطى لهم الفرصة تلو الفرصة ، بل ولا يمانع فى أن يقوم أى فرنسى باصدار صحيفة أو مجلة يريد اصدارها .. وأكثر من ذلك ، فانه راح يوقف العمل بعدد من التشريعات الصحفية الصادرة فى عهد سلفيه ، وعلى وجه الخصوص ما استهدف منها رفع أجور البريد للحد من انتشار توزيعها فى المدن والريف الفرنسى ، وما استهدف كذلك فرض قانون التمغة لعرقلة ذلك الانتشار للصحف القديمة ، وللحيلولة دون صدور صحف جديدة .

وعجيب أمر الصحافة ، وعجيب كذلك أمر رجالها .. فان الرجل ما كاد يفعل ذلك ، حتى فتحت الصحف نيرانها عليه ، وأطلقت عليه دفعات اثر دفعات ، وزادت فى حدة الهجوم عليه ، بل وبدأت الصور الهزلية والكاريكاتورية التى تتناوله تتسلل الى أعمدتها ، وانتشر بينها نوع من الكارتون لا هم له ولرساميه الا تصيد أخطاء الرجل الذى كان الضجر من الصحافة والصحفيين قد بلغ به مبلغه .. ولم يعد فى صدره متسع لتقبل نقد جديد ، أو للاستمرار فى القيام بأداء دور الصديق ؛ بينما هو فى الواقع يريد أن ينقض ، وأن يضرب ضربته ..

نعم ، انه يعلم تماما أن الصحافة هى التى أسقطت سلفه شارل العاشر ، بعد أن أحرزت عليه أكثر من انتصار .. ومن ثم فهو يعلم أيضا أنه انما جاء الى كرسى العرش الفرنسى الا بعد ذلك الانتصار الصحفى الكبير والذى شهد به حتى أخلص رجاله له .. ومن ثم فهو

يعلم كذلك أن الصحافة هى صاحبة الفضل الأول فى ارتقائه لهذا العرش حتى ولو تم ذلك بطريقة غير مباشرة .. ولكنه ، ومن زاوية أخرى ، وكما صرح لأحد هؤلاء الرجال ، لن يسمح بتكرار المشاهد السابقة ، ولا بأن يعيد التاريخ نفسه .

والأدهى من ذلك كله ، أن تعود الصحف ــ بعد كل ما قدم لها ــ الى التحالف مع المعارضة أو بأسلوب آخر ، ليتخذ المعارضون منها منبرا يوجهون منه الطعنات الى الرجل .. وأن تكون نتيجة ذلك كله ، هو سلسلة من الاغتيالات السياسية لعدد من رجاله ، انتهت بتلك المحاولة الشهيرة التى قام بها « فيشى » لاغتيال الملك لويس فيليب نفسه .

.. وبينما كانت الصحف تنقل أخبار هذه المحاولة ، كان الملك يوقع باسمه وبريشته الملكية ، وبمداده الأحمر على قانون ٩ يوليو ١٨٣٥ .. ذلك الذى كان شوقه قد طال الى توقيعه .. وكان ينتظر تلك الفرصة ، وهو على أحر من الجمر .

وبينما كان الشعب الفرنسى يقرأ نصوص القانون الجديد ، وتدور تعليقاته فى المقاهى والأندية والحدائق وعلى الأرصفة أيضا ، حول الصحافة التى غرر بها ، والملك الذى أجاد تمثيل دوره ، بل واخراج المسرحية نفسها .. بينما كان ذلك يحدث ، كان عدد من الكتاب والصحفيين يعلنون قبولهم للتحدى ، ويواصلون كتاباتهم التى تعبر عن صمودهم ، وشاركهم فى ذلك عدد من الأدباء الكبار الذين كانت تجمع بينهم وبين الصحافة ، زمالة القلم ، كما أن القانون الجديد ، لم يفرق بين مادة أدبية ، ومادة صحفية ، بل رأى أن يعترض جميع المواد التى تنشرها الصحف ، والكتب مساويا فى ذلك بين المقالة النقدية السياسية ، والمقالة الأدبية ، وبين الكاريكاتير والكارتون .. والصورة القلمية ، حتى جاء ليهاجمه الصحفى الكبير « اميل دى جيراردان » والأديب « فيكتور هيجو » بينما برز فى هذا الهجوم على وجه خاص « لامارتين »

الذى كان يرى أنه قانون « اغتيال الصحافة » .. بينما كتب « برودون » جملته الشهيرة والتى ترددت بعد ذلك كثيرا : « أحيانا أشتعل شوقا الى الكتابة حتى لو كلفنى السطر الواحد ستة أشهر فى السجن » [1] .

.. وعلى غير ما كان الملك يهوى ، ورغم أنفـه أيضا ، بدأت بعض المشاهد السابقة تتكرر بشكل أو بآخـر .. بل يمكننا القـول ، بأن السحب الثائرة ، وأن الغيوم بدأت مرة أخرى تظهر فى الأفق البعيد ، ثم تعود فتقترب ، وتتجمع لكى تثبت خطأ نظرية لويس .. وأن التاريخ لابد وأن يعيد نفسه ، ما دامت المقدمات جميعها متشابهة ، ومع اختلاف غير مؤثر فى التفاصيل ، أو الأسماء ..

لقد بدأ التحايل على القـانون ، وانتشرت محاولات القفـز فوق حـدوده ، أو التسلل من بين ثغـراته ، وكان هو ككل قانون يريد أن يخنق الحـرية ، به ثغرات عديدة ، يعـرف المفكرون والأذكياء ، كيف ينفـذون منهـا الى الشـعب ، عن طريق الصحف السرية ، واختراع الشخصيات والأسـماء الرمزية ، وكثرت محاولات تهريب الصحف الى داخل باريس وخارجهـا .. ونذكر من ذلك ـــ مثلا ـــ أنه فى محـاولة ناجحة للتهرب من الضرائب المرتفعة التى جاء بها القانون الجـديد على الصحف ، وتلك التى فرضت على الورق فان صاحب جريدة « المنديل السياسى ـــ لى موشوار بوليتيك » [2] قفز فوق هذه الحواجز عن طريق حيلة طريفة .. حيث قام بتجارب عـديدة لاصـدار صحيفته على هيئة منديل .. وطباعتها على قطعة من القماش .. ونجحت التجارب ، وصدرت الصحيفة ، وفى أكثر من لون ، وانتشرت بين القـراء انتشارا هائلا ،

(١) فرنان تزور ترجمة محمود الفندور « الاعلام » ص : ٣٢ .
(٢) محسن محمد : (حكايات صحفية) ص : ١٧٢ .

حيث كانت مادتها شعبية الطابع ، كما كان حرص صاحبها بالغا على نشر الأخبـــار التى تتحدث عن المثالب العديدة ، ونشاط المعارضة كما كان الناس يستخدمونها بعد قراءتها استخدامات عديدة ..

وصحيح أن الوقت كان قــد طال ، حتى تكتمل الدائرة الملتهبة .. وصحيح أيضا أن لويس فيليب كان قــد أحكم قبضه تمــاما .. ولكن المرجل كان يغلى .. ويغلى ، وينتظر لحظة الانفجــار حتى ضاق الشعب تماما بالرجل الذى أعاد القيــود والسدود ، وأراد أن يلجم المعارضة ، وأن يغتال الصحافة ، فقامت ثورة ١٨٤٨ ضده ، تلك التى يجمع رجال التاريخ والصحــافة ــ معا ــ على أنها شهدت الميــلاد الحقيقى لحرية الصحافة .. كأثر من آثار محاولات الكبت والاعاقة والمصــادرة ، التى قام بها الرجل ، بعد أن كشفت محاولة اغتيــاله عن وجهــه الحقيقى ، أو عن الدور الحقيقى الذى كان يمارسه .

وخلال مناخ الحــرية .. ظهر عدد من الصحفيين الموهوبين ، ومن « صناع » الصحافة أيضا ، فشهدت الصحافة الفرنسية تطورات عديدة من حيث الطباعة والتحرير ، كما شهدت ميلاد الأخبار البرقية ، والصورة الصحفية .. وحيث تبرز أسماء « شارل لوى هافاس » رائد الأخبــار البرقية أو ــ وكالات الأنبــاء ــ وكذا « أراجو » رائد التصــوير .. وغيرهما من الرواد الذين بدأت نتائج أعمــالهم فى الظهور الحقيقى ، والفعال ، خلال هذا المناخ نفسه كما بدأت تأثيراتهم تظهر على صفحات الجرائد العالمية والأوربية الأخرى ..

ألا يكون الرجل بذلك ، قد ساهم فى جميع هذه التطورات .. حتى وان كان ذلك دون قصد منه ؟!

لقد كتب أحد الصحفيين يومها يقول عن ذلك كله :

« ان عهد الرجل لم يكن كله شرا دائما .. بل كان فيه الخير الكثير وأكثر من ذلك .. فان هذا الخير المتولد نفسه كان ينبت من بذور الشر التى كان الرجل يغرسها للصحـافة والصحفيين .. هنا وهناك .. وليس ذلك بجديد .. فكثيرا ما يولد الشر خيرا .. وقد عرفنا نحن ذلك على يد كثير من ملوك فرنسا السابقين » ..

وكأنى به يردد ذلك المثل العربى القديم .. « رب شر أنتج خـيرا » .

أو الحديث : « رب ضارة نافعة » ...

حتى على المجال الصحفى أيضا .

سـعيد :

لا .. أن الجورنالجية غير سواسية

سـعيد :

لا ..
ان الجورنالجية
غير سواسية

أراد أبوه أن يكون صاحب « البيت الصحفى » .. تماما كما هو المالك الوحيد والزارع والصانع والتاجر .. وأن تمر فائدة الشعب من خلال مصلحته ومصلحته أسرته .. ومن هنا فقد راح ـ محمد على ـ يشرف بنفسه على الصحيفة الأم « وقائع مصرية » حتى قيل أنه « كان يكلف موظفيه بكتابة المقالات ويوعز بنشر الأخبار ويراجع مسودات الجريدة قبل طبعها ويعاقب المسئولين اذا أساءوا اختيار الخبر أو المقال ، وكانت أوامره ورقابته لها لونا من ألوان التنظيمات التى سبقت تشريع المطبوعات فى عهد خلفائه » (١) .

وعندما كان ابن أخيه ـ عباس الأول ـ يحكم مصر قبله .. كان عهده عن حق وصدق : « عهد الرجعية والنكسة لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت فى عهد محمد على » (٢) .. ويذكر له ضمن ما يذكر من صور التأخر اغلاق أكثر المدارس أبوابها وابعاد رجال الاصلاح الى السودان واستدعاء معظم أعضاء البعثات الدبلوماسية ..

وأما عن الصحافة ، فقد اعتبر قراءة الناس ـ العامة ـ لها وعلى حد تعبيره « سبة لا تليق .. وذلا لا يطيق » .

كان ذلك عن الواليين السابقين لـ « سعيد » بن محمد على الكبير والمولود عام ١٨٢٢ ، والذى اختار له أبوه السلك البحرى ، فانتظم بعد

أن أتم دراسته فى خدمة الأسطول قومندانا لاحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار .. وقد ارتقى الرجل فى هذا السلك حتى وصل الى منصب « سر عسكر الدونمة » أى القائد العام للأسطول المصرى .

ويقول عبد الرحمن الرافعى : « أهم الصفات البارزة فى أخلاق سعيد طيبة قلبه ، وسلامة قصده وكرمه وشجاعته وصراحته وميله للخير ، وتسامحه ، وحبه للعدل ونفوره من الظلم والارهاق » (٣) .. فهل وجدت الصحافة فى عهده ، انعكاسا لهذه الصفات التى قل أن تجتمع فى رجل واحد ؟

اننا قبل أن نتحدث عن المواقف السعيدية ، من الصحافة والصحفيين، نقوم بالقاء نظرة الطائر على أعمال الرجل نفسه ، أو أهم ما قام به من أعمال .. ولعل فى مقدمتها جهوده الموفقة لاصلاح حالة الفلاح المصرى ، حيث سن لذلك ما يعرف باسم « اللائحة السعيدية » الصادرة فى ٥ أغسطس ١٨٥٨ والتى خولت الفلاحين حق الملكية الزراعية ، وبذلك ألغى ما لجأ اليه أبوه من اعتبار نفسه المالك الوحيد للأرض .. كما قام بالغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فصار للفلاح حرية اختيار أنواع المحاصيل التى يريد زراعتها ، وحق التصرف فى انتاج الأرض وغلتها .. كما أتبع ذلك كله بتخفيض الضرائب الى حد معقول ، ووافق على رغبة الأهالى بتسديدها نقدا لا عينا ، وأضاف الى ذلك الغاء ضريبة « الدخولية » التى كانت تحصل على الانتاج الداخل من بلد الى بلد ــ التجارة الداخلية ــ كما قام الرجل بعمل أول لائحة للمعاشات تعرفها مصر ..

ولو قام الرجل بهذه الأعمال وحدها ، لكفاه ذلك مفخرة ، ولكنه تابع أعماله الاصلاحية العديدة مثل تطهير ترعة المحمودية ، ولم تكن

قد ظهرت منذ عهد محمد على ، كما أتم انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية عام ١٨٥٦ والذى توفى سلفه قبل اتمامه ، كما مد خطا آخر من القاهرة الى السويس فعاد على مينائها بالفوائد الكثيرة ، وأنشأ خطوط التلغراف الحديثة ، وأشرف على عمليات البحث عن الآثار وحفظها ، ورصد كسوف الشمس ووضع خريطة مفصلة للقطن المصرى ، كما أدخل التجنيد الاجبارى وأمر بترقية حالة الجنود ، بل ان له فى ذلك مواقف تاريخية مشهودة أبدى فيها روحا وطنية وقومية أشاد بها الزعيم « أحمد عرابى » فى مذكراته وقال عن خطبة لسعيد اعتبر نفسه فيها مصريا : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية » (٤) .. وذلك كله بالاضافة الى اصلاحاته البحرية العديدة ، ورحلاته وجولاته الموفقة داخل البلاد وخارجها .

واذا كانوا يقولون أنه لو مد الله فى عمر الرجل ، لكان قد فعل الكثير ، وحيث أنه توفى فى ١٨ يناير ١٨٦٣ وعمره ٤٢ سنة فقط .. فاننا ننتقل الآن الى الوجه الآخر لصورته ، وحيث يبدو فيه سعيدا ذلك الرجل الضعيف أحيانا ، المتردد ، القلق ، المسرف ، المستدين ، والذى انعكس تردده على ألوان كثيرة من جوانب الحياة المصرية ، لعل أهمها جانب التعليم ، وحيث لم يوجه اليه عناية تذكر ، فاستمر على حالته من الجمود والتوقف ، والتى كان عليها فى عهد سلفه ــ عباس الأول ــ كما أعاد بعض البعثات المصرية من الخارج ، وفتح باب الاستدانة ، وبالغ فى صداقته مع عدد من ملوك أوربا مثل نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وحيث لبى الرجل دعوته وأرسل الجنود المصريين للحرب ضد الثائرين فى المكسيك !!.. كما أنه كان سريع التأثر بآراء من حوله ، سريع الغضب أيضا ، وأهم من ذلك كله أنه كاد حسن الظن بالأوربيين شديد الثقة بهم .. يغالى فى تكريمهم ولو على حساب أبناء مصر أنفسهم ..

ذلك هو الرجل ، وتلك هى أبرز أعماله وصفاته ، ولكن من العجيب أن الوجه الأول لصورة سعيد .. الوطنى ، المصلح ، الغيور قد اختفى تماما فى علاقاته بالصحافة المصرية ، ليبقى بعد ذلك ، وجهه الثانى ، بكل ملامح قسوته ، وتردده ، وجموده ، بل وبتفضيله للعنصر الأجنبى أيضا .. كيف ؟ وما هى شواهد ذلك ؟

ذلك أن الرجل أبقى على نظام الحكم المطلق الذى يجمع فى يده الواحدة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، ومن ثم فهو المرجع بالنسبة لجميع الأمور .. كبيرة وصغيرة ، داخلية وخارجية ، سياسية وقانونية وثقافية .. خاصة وأنه أهمل مجلس الشورى الذى كان قد أنشأه والده .. ومن هنا ، فانه رأى أن تكون قبضته محكمة كذلك على الصحافة ، فأوعز الى عدد من رجال وزارة الخارجية ــ احدى الوزارات الأربع العاملة فى مصر فى ذلك الوقت ــ من بينهم الأمير أحمد رفعت أن يتعاونوا مع عدد من أعضاء مجلس الأحكام ، والمجلس الخصوصى ، فى وضع نظام للصحافة ، يتيح الاشراف عليها وجعلها تحت عينه ، وفى طائل يده ..

وبعد دراسة لعدد من القوانين العثمانية الصادرة بهذا الشأن ، خاصة « الخط الشريف » أو اللائحة التى أصدرها السلطان « عبد المجيد » عام ١٨٥٨ ، والتى تتعلق بالصحافة والمطابع ، وتنظيم ما يتصل بهما من اجراءات اصدار وعقوبات وما الى ذلك كله .. توصلت اللجنة المؤلفة من هؤلاء الأشخاص الى وضع لائحة للمطبوعات المصرية كان من أهم موادها تلك التى تقول : « لا يطبع ولا ينشر جرانيل وغازيتات واعلانات من دون استحصال الرخصة من ديوان الداخلية وان فعل ذلك بدون استئذان تغلق وتسد مطبعته » .. ولو كان الأمر قد توقف عند حد الحصول على الترخيص فقط لهان ، الا أن الرجل أصر اصرارا بالغا على أن تعرض عليه جميع المواد التى تقدم الى المطابع ، وجميع الكتابات

الأخـرى ، قبل طباعتها ونشرها ، وكان لذلك ــ بالاضـافة الى حالة الجمود والتأخر ــ أثره فى عـدم تشجيع أحد على الاقدام أو المغامرة باصدار صحيفة يعرف مقدما أن جميع موادها لابد وأن تمر تحت سمع الرجل وبصره ، بما فى ذلك مواد الصحيفة الرسمية « الوقائع المصرية » نفسها .. ومن هنا فقد قيل أن هذه اللائحة التى صـدرت بقـرار من المجلس الخصوصى ، وبتوقيع عدد من أعضائه وأعضاء مجلس الأحكام ، كانت « أوسع نطاقا مما ذهب اليه محمـد على فى نشر الكتب أو رقابة الوقائع المصرية » (٥) .

وقد يكون من المعقـول أن يفعـل الرجل ذلك كله ، ولكن الوجه « الكالح » للرجل نفسه يظهر بالمقارنة بين هذه الاجراءات التى تناولت الصحافة المصرية وحـدها .. بينما وجـدت من المواد الأقـل ضغطا وتضيـيقا على الصحافة الأجنبيـة ، وعلى الصحفيين الأجانب .. وهكذا وجدنا أن تلك التشريعات نفسها تبـدو فى صورتين متناقضتين تماما خاصة فى مجال التطبيق ، فهى قاسية عنيفة ، معقـدة بالنسبة للصحف والكتابات والمطبوعات الوطنية مرنة ، متراخية ، ضعيفة ، بالنسبةلصحف أصدقائه من الأجانب ، هـؤلاء الذين كان الرجـل يتخـذ منهم أكثر « بطانته » ، ويتخذ منهم جلساء وخلطاء وندامى ، ويشتد ركونه اليهم وبالتالى تأثيرهم عليه ؛ حتى أن الأجانب فى عهده كانوا يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، كما صار للقناصل نفوذا لم يكن لهم من قبل .. وكان من الطبيعى أن تؤثر تلك الاتجـاهات كلهـا ، على موقف الرجل من الصحف الأجنبية .. والمغاير تماما لموقفه من الصحف المصرية أو العربية ..

.. وقبل أن نقـدم شواهد ذلك أيضا نشير الى أن موقفه من الصحافة

الوطنية ، والصحافة الأجنبية ، كان هو نفس موقفه من التعليم المصرى ، والتعليم الأجنبى .. ونترك هنا عبـد الرحمن الرافعى ليروى طرفا من ذلك .. يقول المؤرخ المصرى الكبير بعد أن يستعرض تأخر حالة التعليم فى عصر سعيد :

« ومع جمود حركة التعليم الى هذا الحد فانه لم يبخل على البعثات الأجنبيـة الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها ، فمنح اعانات سنوية لراهبات البون باستور الراعى الصـالح ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ووهب للبعثة الأمريكية بنـاء بمصر لتتخذه مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة ايطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية اعانة قـدرها ٢٤٫٠٠٠ جنيه ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الاسكندرية لتنشىء بها المدرسـة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى ، وهذا من متناقضاته » (٦) .

ان ذلك هو ما رأينـاه يتكرر فى مجـال قريب من مجال التعليم ، وهو هنا مجال الصحافة .. ذلك أن الرجل وافق على انشاء خمس صحف فرنسية وايطالية ، بالاضافة الى صحيفة « السلطنة العربية التركية » ، وكان يقـرب محـرريها منه ، ويقـدم لهم بعض الاعانات فى مناسبات مختلفة ، ويسمح لمحرريها بمصاحبته فى رحلاته الى بلاد الصعيد ، وفى رحلتيه الشهيرتين الى السودان ، والحجاز ، كما كان يستقبل عددا منهم فى سرايه ، ويبادلهم أطراف الحـديث ، خاصـة عنـدما يتوسط قنصل السودان الصحفى الأجنبى له عند سعيد ..

وقد شجع ذلك عـددا من محررى هذه الصحف ، ومن المراسلين

الأجانب ، خاصة من الانجليز الذين كانوا يرون النفوذ الفرنسي وهو يتأكد بمصر على عهـده ، وهم يبسطون نفـوذهم على كثير من مرافق البلاد ، شجع ذلك هؤلاء على الهجوم عليه أحيانا ، وتناوله بما اعتبره اهانة له ، ونيلا من سلطة حكومته وسيادتها ..

وصحيح أنه كان يتدخل من حين لآخر للاعتراض على ذلك ، وكلما أحس أن صحيفة أجنبية قد تجاوزت الحد المعقول ، وصحيح كذلك أنه كان يسرع بأمر معاونيه ورجال سلطته بتبليغ قناصل الدول بنص المواد التي وردت فى لائحة السلطان عبد المجيد — ١٨٥٧ — والخاصة بتنظيم عمـل الصحافة الأجنبية فى الولايات العثمانية — ومصر احداها شرعا — وخاصة المـادة التى تقول : « تأمر الشرطة رجالها بمصادرة كل النسخ المطبوعة فى الامبراطورية وفى البلاد العربية التى قد تتضمن نشر أخبار ضارة بالبلد أو فى الدولة » كما أمر بأن يطبع نص هذا القانون ويوزع على القناصل فى كتاب موقع من ناظر الخارجية « اسطفان بك » .. وطلب أن يقوم القناصل بتوزيع هذا المنشور بالقانون على رعايا دولهم ..

كل ذلك صحيح ، ولكن الصحيح أيضـا أن هذه القـوانين كانت تطبق فى أحوال نادرة للغاية ، وبمزيد من المرونة بالنسبة للصحفيين من رعايا الدول الأجنبية عامة ، وفرنسا خاصـة ، كما كان القناصل دائما يتدخلون فى الوقت المناسب لحماية الصحفيين والمراسلين من أبناء ورعايا دولهم .. كما كانوا يحيطونهم بحصانتهم الدبلوماسية .. ومن ثم فقـد كان هو ، ومن خلفه يتوقفون عن تنفيذ القانون ، على سبيل الخوف ، أو عدم الاكتراث ، أو ترك العواصف لتمر .. بينما لا يعرف أن صورة

من هذه الصـور قـد أخـذت مكانها بالنسـبة للصحفيين المصريين أو العرب ..

بل ان سعيدا كان يبرر ذلك بقوله « من قال أن الجرنالجية وأصحاب الغازيتات سواسية أمام الفرمانات الشاهانية ؟. ان أصحـاب الغازيتات الأجانب لهم امتياز الصلة بالقناصل وأمراء الدول الأوربية وحكامها » .

هل نقول أن الرجل كان يعيش بوجهين ؟ أم نقـول أن زامر الحى لا يطرب ؟ وأنه لا كرامة لصحفى .. فى وطنه ؟

حتما كانت الاجابة عند والى مصر .. سعيد باشا .

ذلك الرجل الذى مضى يضيق الخنـاق على الصحافة المصرية والى حد القتل خنقا أو الشنق ، مما أثر فى مادتها أبلغ تأثير .. كما أثر كذلك فى مواعيد صدورها ولكن أهم تأثيرات هذا التضيق الذى قام به الرجل كان هو ما حدث فى صـدور الصحفيين أنفسـهم ، من كتاب ومحررى هذه الأيام ..

لقد خاف البعض من أحكام الوالى الجائرة ، ومن رقابته وشرطته السرية التى كانت تدهم المطـابع عامة ، وليست مطابع الصحف فقط ، ومن هنا فقد انصرف عدد كبير من هؤلاء عن العمل التحريرى ، وطلقوا — برغم أنوفهم — مهنة الكتابة وانصرفوا الى الأعمال الأخرى .. حتى أن بعضهم رأى أن يفتتح له دكان « مانيفاتورة » .. أسماها — من غلبه ولتمسكه بالعمل الذى يحبه — مانيفاتورة الصحافة .. كما أن بعضهم

الآخر عاد الى موطنه الأصلى بالصعيد ، وبدأ يمارس الزراعة .. الى حين تنجلى الغمة السعيدية ..

كل ذلك .. بينما يصول محررو الصحف الأجنبية ويجولون فى طول البلاد وعرضها ، وليس فوق الصفحات فقط ..

---

(١) ابراهيم عبده : « محنة الصحافة وولى النعم » ص : ١١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : « عصر اسماعيل » ج ١ ، : ص : ٤

(٣) المصـــدر الســابق ، ص : ٢٤ .

(٤) احمد عرابى : « مذكرات عرابى ــ كشف الستار عن الاسرار » ص : ١٦ .

(٥) ابراهيم عبده : « محنة الصحافة وولى النعم » ص : ١٢ .

(٦) عبد الرحمن الرافعى : « عصر اسماعيل » جـ ١ ، ص : ٤٥ .

اسماعيل :

رجل فعل الكثير ..
ولكن !!

اسماعيل :

رجل فعل الكثير ..

ولكن !!

لا أعتقد أن النهاية المريرة لهذا الرجل تنسينا أنه فعل الكثير من أجل مصر ، ولا ينبغى كذلك أن تنسينا ، والا كنا من الجاحدين ، من الذين ينكرون الأفعال والأفضال ، ويلقون عليها ستار النسيان ، لأن الأمور قد تقلبت على صاحبها ، وعلى غير هواه .. والدهر قلب .. كما يقولون .

لقد ساهم الرجل ـ اسماعيل ـ مساهمة ايجابية وفعالة فى الدفع بعجلة التقدم المصرى ، عدة دفعات الى الأمام ، وفى أكثر من ميدان من ميادين النهضة .. فى ميادين العسكرية ، والمواصلات والثقافة والتعليم ويكفى أنه تأسست فى عهده المدارس العديدة التى تحول بعضها الى كليات من مثل : المهندسخانة ١٨٦٦ ـ الحقوق ١٨٦٨ ـ دار العلوم ١٨٧٢ ـ الطب والولادة ـ البنات ١٨٧٣ السيوفية ـ القربية ١٨٧٤ ـ المدارس الصناعية (الفنون والصنائع) .. حتى قال عن هذه الفترة تيودور رتشين « ليصير التعليم فى مصر مجانا وليحصل الطلاب على ما يحتاجونه مجانا .. فى ذلك العصر أسست مدارس للبنات كانت الأولى من نوعها لا فى مصر وحدها ، بل فى الدولة العثمانية كلها وأنشىء متحف بولاق الشهير وزيد فى مكتبة القاهرة ما جعلها من أعجب مكتبات الدنيا .

وكانت المدارس الأولية بمصر كلها فى عام ١٨٦٣ تبلغ ١٨٥ مدرسة فأصبحت عام ١٨٧٥ نحو ٤٦٨ مدرسة يتعلم بها ١١١٫٨٠٣ طفلا ، وينبغى

أن يضاف الى هذه المدارس أيضا عدد كبير من مدارس أرقى منها كانت تابعة للحكومة والبلديات ، وكان ثمة أيضا مدارس حربية لكل فرقة من فرق الجيش مدرسة خاصـــة ، قالت لجنة التعليم الحربى فى عام ١٨٧٢ انه لم يكن فى الجيش المصرى كله غير ٤٢ أميا فقط » (١) .

كما يقول جرجى زيدان عن هذا الرجل نفسه « كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد أن يجعل القاهرة تضاهى باريس بالنظام والترتيب ـ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملا للورق » (٢) ..

ذلك هو خـــديوى مصر ، اســـماعيل بن ابراهيم بن محمـــد على ، والمولود بقصر المسافرخانة بالجمـــالية فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٠ .. والرجل الذى صنع الكثير من أجل مصر ، حتى أن القـــاهرة سرقت الأضواء فى عهده من اسطنبول .. كما سرق هو الأضواء أكثر من مرة ، من الخليفة التركى الذى كان يحقد عليه كل الحقـــد .. ويرى حتى فى مده لخطوط السكك الحـــديدية والتلغراف اسرافا لا مبرر له .. لأن دولة الخـــلافة لم تكن قد عرفتها بعد ..

فما هو موقف الرجل من الصحـــافة ؟ وما هى صورته الصحافة فى عهده ؟.. العهد الاسماعيلى الذى كبا جواده المنطلق كبوة كبيرة جدا .. لم تجعـــله غير قادر على اكمـــال الشـــوط فقط .. وانما على النهوض والاستمرار .. على أى شكل من أشكالهما ..

الحق أن الحديث عن الصحافة فى عهد هذا الرجل يستحق أن يملأ أكثر من مجلد ، بل ان اسماعيل والصحافة .. هو فصل هام من فصول قصة الصحافة المصرية والعربية يستحق أن يدرس وحده فى معاهدها .. وكلياتها ومدارسها .. فحسبنا منه هذه النقـــاط التى تمثل نظرة الطائر على صحافة عهده ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* فالرجل قد صدر فى عهده أكبر عدد من الصحف يصدر فى عهد والٍ على مصر خلال القرن التاسع عشر حتى أنها تجاوزت فى عهده السبعين جريدة بين عربية وافرنجية وجريدة ومجلة كما يقول المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » .

* والرجل يرجع اليهفضل التوصية بتطويرالصحيفة الأم « الوقائع المصرية » وذلك من حيث الموضوع أو المضمون التحريرى حيث سمح لها بأن تنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وكلمات الأعضاء ، وأخبارهم وكذا أخبار الخطط المصرية والمدارس والنظارات المختلفة بشكل لم يحدث من قبل الى جانب نشر أخبار الحفلات العامة وسباق الخيل .. وأما من حيث لغة هذه الموضوعات كلها فقد كان كتابها يسرعون الابتعاد بها عن الأساليب الأدبية التقليدية التى كانت معروفة حتى ذلك العهد .. بل حدث اهتمام بالغ بصحة هذه اللغة وبمراعاة قواعدها الى جانب التطور الحادث فى الأسلوب نفسه .

* على أن أهم ما تحقق فى عهد الرجل — دون جدال — ظهور الصحافة الشعبية .. تلك التى مهدت لها الصحيفة نصف الشعبية ، نصف الرسمية المسماة « وادى النيل » والتى ساعد الخديوى « عبد الله أفندى أبو السعود » أستاذ التاريخ بمدرسة دار العلوم على اصدارها فجاءت رسمية العقل .. شعبية القلب والقالب .. ليتأكد ميلاد هذه الصحافة بعد ذلك فى صدور « نزهة الأفكار » التى أصدرها « ابراهيم المويلحى وعثمان جلال » عام ١٨٦٩ .. ولكنها توقفت عن الصدور بعد عددين فقط .. وعلى أثر نقدها للحكومة نقدا قاسيا .. أو هكذا رأت السلطات فى نقدها .. على أن ذلك لم يوقف صدور مثل هذه الصحف الشعبية فى عهده ، وبتشجيع منه أحيانا .. بعد أن أصبح المناخ المصرى العام مستعدا لتقبل مثل هذه الصحف ومادتها الهادفة التى كانت تلعب دورا مصريا واسلاميا كبيرا .. بل ساهمت مساهمة فعالة فى خلق الرأى العام

المصرى والدفاع عن الشعب ومصالحه ، وعن التضامن الإسلامى ، واللغة العربية .. حتى قيل أن الصحافة المصرية فى هذه الفترة كانت أجدى على النهضة المصرية من المجالس النيابية ذاتها ..

* كذلك فان عهد هذا الرجل قد شهد الميلاد الكامل للصحافة المتخصصة فى مصر .. فصحيح أن جده ـ محمد على ـ قد صدرت فى عهده « الجريدة العسكرية » عام ١٨٣٣ .. والتى تعتبر أولى الجرائد المتخصصة .. ولكن كثرة العدد الصادر فى عهد اسماعيل ، وتنوع مجالاته، يجعل من ذلك العهد الاطار الزمنى الذى شهد هذا الميلاد الحقيقى وخذ عندك مثلا الصحيفة الطبية الأولى « يعسوب الطب ١٨٦٥ » والصحيفة المدرسية الأولى « روضة المدارس ١٨٧٠ » ثم اعادة اصدار « الجريدة العسكرية ١٨٦٥ » .. واصدار شقيقتها « جريدة أركان حرب الجيش المصرى ١٨٧٣ » وكذا « أبو نضارة ١٨٧٧ » بطابعها الفكاهى و «التجارة ١٨٧٨ » .. وغيرها من الصحف المتخصصة أو ذات الاتجاهات الخاصة ..

* وقد استتبع ذلك كله ـ كما كان ينبغى ـ ظهور أكبر عدد من الكتاب وقادة الرأى والفكر الصحفى فى عهده ، بشكل لم يحدث من قبل ، وكان من بين هؤلاء ، بل فى مقدمتهم وعلى سبيل المثال لا الحصر : « محمد عبده ـ جمال الدين الأفغانى ـ عبد الله أبو السعود ـ أديب اسحق ـ محمد على البقلى ـ ابراهيم أدهم ـ ابراهيم الدسوقى ـ ابراهيم المويلحى ـ محمد عثمان جلال ـ محمد أنسى ـ محمد وفاء ـ يعقوب صنوع ـ سليم نقاش ـ سليم عنحورى ـ سليم تقلا ـ بشارة تقلا ... الخ » وغيرهم .. كما برز عدد من الكتاب المتخصصين فى مقدمتهم الدكتور محمد على البقلى ـ محمد مختار الكاتب العسكرى ـ ويعقوب صنوع الكاتب الفكاهى .. بل والكاتبات والصحفيات المتخصصات أيضا وأولهن « تمرهان » الكاتبة المتخصصة فى صحة المرأة بمجلة يعسوب الطب نفسها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

❋ .. ولكن من الغريب أن الصحافة نفسها التى شجعها اسماعيل على المضى والانطلاق بل شجعها على أن تمضى فى نقدها لتصرفات بعض الموظفين والنواب .. وحتى الباب العالى نفسه .. هذه الصحافة ، عندما اشتد ساعدها .. ومضت على طريق النقد والهجـوم كان من الصعوبة بمكان أن يقف انسان ضد تيارها الذى أخذ يقوى مع الأيام .. حتى هو نفسه .. مما جعله ينظر اليها ولسان حاله قول الشاعر العربى ..

أعلمه الرماية كـل يوم   فلما اشتد سـاعده رمانى

كان اسماعيل يريد من الصحافة أن تكون عونا له على جميع أعدائه.. فمضى يقدم لها من الحريات ما فاق أحيانا أحلام أصحابها ، حتى أنهـا عندما لم تكن تجد أحدا تهاجمه ، فقد كانت تنظر فى اتجاهه ، وتهاجمه هو شخصيا .. بل تحمل عليه أحيانا حمله شعواء .

وهذا ما لم يستطع الرجـل السكوت عليه أو تجـاهله .. فمضى يقيد من هذه الحرية المنطلقة .. فى صورة انشاء مكتب للصحافة الأجنبية ألحقه بنظارة الخارجية،ثم جعل المصرية تابعةلنظارة الداخلية..حتى اذا بلغ الشطط مبلغه بهذه الصحافة راح يجمع كل ما يتصل باصدارها وتوقفها والترخيص لها فى يده ، أو راح يمثل وحده قانون المطبوعات .. وصحيح أنه كان يستمع أحيانا الى آراء بعض الأصدقاء من أجانب وشراكسـة بالنسبة للمسائل المتصلة بها .. ولكنه رأى ـــ فى النهـاية ـــ أن حريتها التامة قد تحولت الى نار تحرقه هو .. بل قد امتدت فعلا الى ملابسـه وأطرافه .. فكان عليه أن يسرع هو نفسه الى اخمادها .. بنفس يده التى أضاءت شعلتها .

---

(١) تيودور رتشين ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران : « المسألة المصرية » ص : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) جرجى زيدان : « تاريخ مصر الحديث » ص : ٢١٨ .

عبد الحميد الثاني :

دولة الجرائد

وسوء العاقبة

عبد الحميد الثانى :

دولة الجرائـد
وسـوء العاقبة

« أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، خادم الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين ، السلطان بن السلطان، والخاقان بن الخاقان عبد الحميد خان أدام الله عزه وأعز جنده وأسـعد عهده ونشر على بلاد الأعداء راية نصره ... الخ »(1) .

أما مولانا ، خاقان البرين والبحرين ، السلطان بن السلطان والخاقان بن الخاقان .. فهو السلطان التركى الأشهر عبد الحميد الثانى الذى يمتد حكمه من ٣١ أغسطس ١٨٧٦ ، حتى ٢٧ أغسطس ١٩٠٩ ..

وأما الدعاء فقد كان على الصحافة الرسمية فى البلاد العثمانية عامة، والعراقية والسورية خاصة ، أن تصـدر به صـفحاتها الأولى .. بل ان الصحف العراقية على وجه التحديد ، ذات الطابع الرسمى مثل «الزوراء» و «الموصل» و « البصرة» .. كانت تضيف اليه كثيرا .. أو على حد قول منير بكر التكريتى فى رسالته للماجستير عن الصحافة العراقية : « ما كانت تنشر سوى ما يطيب للسلطان وولاته من ألفـاظ التفخيم والتعظيم رغم مظالمهم جميعا وسوء ادارتهم » .

فما هى حكاية الرجل ، صاحب كل هذه الألفاظ الفخمة الضخمة .. وغيرها كثير سيأتى فى حينه ؟ وعلى وجه التحديد .. ما هى حكايته مـع الصحافة ؟ .. تلك التى سارت بها ألسن الركبان ، كما يقولون ..

الحق أنه لا يوجد أى رجل آخر ، أى حاكم غيره ، باستثناء « نابليون بونابرت » وربما « محمد على باشا » ارتبط ذكره بهذه الوسيلة من وسائل الاتصال ، قدر ارتباط ذكر هذا الرجل بها ، كما لا يوجد مؤلف من المؤلفين فى مجالات تاريخ الصحافة ، أو القوانين الاعلامية ، أو التشريعات الصحفية ، أو جرائم النشر ، يستطيع أن يدير ظهره لفترة حكم هذا الرجل أيضا ، وأما الذين يبحثون فى موضوع « الحريات » عامة ، وحرية الصحافة خاصة ، فان حياة الرجل وقراراته وأوامره ونواهيه تجذبهم كل الجذب .. كذلك فقد حظى الرجل أثناء سنوات حياته وبعد وفاته وما يزال بالعديد من الكتابات التى تتناول مواقفه من الصحافة والصحفيين والكتاب والشعراء — وكانت الصحافة هى المجال الأول لنشر انتاجهم من مقالات أدبية وقصائد شعر — أقول ، حظى الرجل بما لم يحظ به حاكم آخر من هجوم الكتاب والشعراء والصحفيين والمؤلفين والمؤرخين أيضا .. فحسبنا من ذلك كله .. هذا القدر الذى تتحدث عنه السطور القادمة ..

ولكننى هنا ، وعلى الرغم من جميع هذه الكتابات المهاجمة اللاذعة الساخرة التى تجل عن الحصر ، أبادر فأقول ، عن حق وصدق ، وعن ايمان كامل بقيمة الكلمة ودقتها وشرفها أنه لا يمكن القول بأن كل مارمى به الرجل ، وعهده يعود اليه وحده ، أو الى هذا العهد نفسه بل الواقع ، والثابت أيضا — ورغم أن الكثرة البالغة من المؤلفات تتجاهل ذلك — أن أكثر ألوان الفساد والأمراض الاجتماعية التى برزت صورها فى عهده، كانت ميراثا كريها ، ورثه ذلك العهد عن عهود سابقة كثيرة ، وبعد أن كان قد استشرى فى ظل المناخ الحميدى .. ولذلك — فى رأينا — شواهده الكثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر .. هذه كلها :

* ما تقوله د . احسان عسكر — نشأة الصحافة السورية : « كان من طبائع العثمانيين أن يبدلوا كل شىء على هواهم ، ويقضوا على حياة

القوم فى البلاد التى ينزلونها حتى لا يستطيع أهلها أن يرفعوا رؤوسهم ، وقد كان الدم يجرى لأقل شبهة والعـذاب يحل لأقل تهمة ، وقد حكم الولاة بالجواسيس وساروا فى غيهم وتجاهلوا قيمة العرب ، واخترعوا الألفاظ فى تحقيرهم ، وكان كل همهم قتل قوميتهم ومحو لغتهم وتلويث تراثهم ــ وهكذا عاش حملة الأقلام هذه الفترة المظلمة تحت حكم مطلق فاسد ونالهم ما نال غيرهم من ضروب الظلم والأذى ، وعانوا ممـا عاناه أفراد المجتمع العثمانى من فقدان الأمن واندثار العدالة »(٣) .

* واذا كان ذلك يتجه الى الحديث عن العثمانيين فى سورية ، فان منير بكر التكريتى فى رسالته التى سبقت الاشارة اليها يقول ، مؤكـدا الكثير من الأقوال عن واقع هذه الدولة حتى قبل عهد السلطان عبدالحميد نفسه : « ... أصبح القانون معطلا مادام الولاة يشترون وظائفهم بالمال من السلاطين فكانوا يتعهدون بدفع المبلغ الفلانى قبل الذهاب الى العراق.. فما على الوالى الا أن يحاول جهده لجمع أقصى ما يمكن جمعه من المـال ليعوض عما فقده ، بل ادخار مبالغ طائلة ليشترى بها منصبا أرقى أو رتبة يطمح لها »(٤) .

* ويذكر أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ــ نص برقية وردت من الآستانة لمراسل صحيفة التايمز اللندنية ونشرتها الصحيفة على صفحتها الأولى فى عـددها الصـادر فى ٥ أكتوبر ١٨٧٤ ــ قبل ولاية الرجل بحوالى العامين ــ هذا نصها :

« قرر الباب العالى أنه منذ السنوات الخمس التى تبتدىء من أول يناير المقبل سيدفع نصف أرباح سندات الدين العام وقسط اسـتهلاكه نقدا والنصف الآخر سندات ذات ٥٪ » .

واذن لقد كانت مظاهر الفساد كلها متجمعة على أرض دولة الباب العالى قبل ولاية الرجل ، بل ان دولة الخـلافة قد قامت بتصدير هذه

المظاهر نفسها الى الولايات العربيـــة التابعة لها وذلك بمعـــرفة الولاة الأتراك ، وباستثناء قلة قليلة منهم .. بينما أعلنت الدولة العلية تفسيا عن افلاسها ، وشهدت على ذلك أكبر الصحف العالمية الصادرة فى ذلك الوقت، على الرغم مما يقال عن ميولها الاستعمارية .. فقد كان الحال لا يحتاج وصفه الى برقيات مراسلها .. وحيث كانت الدولة نتيجة اسراف السلاطين وأعوانهم مثقلة بالديون .

وحتى بالنسبة لاجراءات القهر العديدة للصحافة والصحفيين ، التى اتخذها هذا الرجل نفسه ــ السلطان عبد الحميد الثانى ــ فان من الثابت أن قوانين المطبوعات وأنظمتها السابقة على حكمه ، أو الصادرة على عهود أسلافه ، لم تكن جميعها نعيما مقيما لأصحاب الأقـــلام ، كـــما لم تفرش الطريق أمامهم بالورود .. فقانون الصحافة العثمانى الأول الصادر عام ١٨٥٨ ، هدد هؤلاء بالويل والثبور وعظائم الأمور..وكثرت بين مواده تلك التى تتصل بالعقاب ، والحاق الضرر وغلق دور الطباعة وتوقيع الغرامة .. وعندما صدر أول نظام للمطبوعات بالسلطنة عام ١٨٦٣ أوجب الحصول على ترخيص الاصدار من الحكومة .. وكان المطالب به يذوق « الأمرين » ويقدم مبالغ قد تفوق طاقته على سبيل الرشوة ، وبعد ذلك يكون سحب الترخيص منه ، حتى قبل أن يصدر صحيفته أسهل من « سحب الشعرة من قطعة العجين » كما كان سحبه بعد صدور الصحيفة حســب الأهواء دائما ..

بل اننا نستطيع أن نقرأ فى قانون الصحافة العثمانية الصـــادر فى أغسطس ١٨٦٥ ، وعلى عهد السلطان عبد العزيز مثل ذلك كله :

المادة الأولى : تطلب الاذن بالتصريح من حكومة الامبراطورية لأجل اصدار صحيفة أو دورية وهذا الاذن متروك أمره الى ارادة وممكن الغاؤه .

المادة التاسعة : تمنع دخول الصحف والمنشورات الأجنبية وتوزيعها مما تكون قد طبعت وصدرت فى الخارج بقصد خصومة أو اعتداء ضد الحكومة العثمانية .

المادة الثالثة عشرة : تقضى بايقاف أو تعطل الصحيفة بالطريق الادارى وليس القانونى .

المادة السابعة عشرة : تمنع التشهير بالسفراء والوزراء المفوضين وبالمبعوثين والقائمين بالأعمال وبالأشخاص الآخرين المعتمدين لدى الباب العالى .

المادة السادسة والعشرون : تعاقب الصحيفة على نشر الأخبار الكاذبة الملفقة أو على ايجادها أو احداثها عن قصد وبسوء نية .

المادة الثامنة والعشرون : تقوم الصحيفة بنشر الحكم الصادر ضدها فى الشهر المقرر له ..

الى غير هذه المواد كلها .. التى قد تبدو عند البعض ، معقولة ، ولكن هذه المعقولية تختفى اذا عرف أن المبدأ (السلطوى) كان هو دائما افتراض الهجوم على السلطان والدولة وسوء القصد والنية ..

بل ان من الثابت كذلك أن الرقابة على الصحف العثمانية يعود تاريخها الى عهد السلطان عبد العزيز نفسه ــ سلف عبد الحميد الثانى ــ وذلك عندما أمر الصدر الأعظم رئيس الوزراء محمود نديم باشا بأن تفحص بدقة وعناية شديدتين من قبل ممثلى الحكومة صحف الآستانة والأناضول قبل طبعها ...

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة والشواهد المتنوعة ، التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ذلك الرأى الذى ذهبنا اليه ، من أن عهد الرجل قد ورث الكثير من صنوف الفساد والاضطهاد عن عهود أخرى سابقة عليه ..

بل جاء الرجل الى الحكم وهذا الميراث الكريه قد بلغ مـداه ، وداخله العفن وأصبحت رائحته تزكم الأنوف .. بل تجعل الانسان يهرب بعيـدا عنها ..

فاذا أضفنا الى ذلك كله ، بعض الفقاقيع الأخـرى التى طفت على سطح المياه العثمانية الآسنة .. لأدركنا على الفور ، أى مأزق حرج ذلك الذى أوقعت الظروف فيه هذا الرجل ، وأى موقف صعب ، ذلك الذى وضعته فيه .. انه حقا ، موقف لا يحسـده عليه أحـد ، ولا يمكن أن يحسده ..

ذلك لأنه بالاضافة الى هذا الميراث الكريه نفسه ، والى انتشـار جميع ألوان الأمراض والأدواء الاجتماعية ، معروفة وغير معروفة ، فقد حفل عهد الرجل ، بكثير من الأشواك العظام والثغرات الكبار ، تلك التى تقطع الطريق ، وتدمى القدم .. وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها ..

ـ فها هو يتولى الحـكم ، وقد بلغت ديون الدولة التى تراكمت خلال العهود السابقة على عهده مبلغ ٢ر٥٢٨ر٠١٠ر٨٥٥ ليرة عثمانية ، وياله من رقم رهيب ، وبأسـعار هذه الأيام مما كان لابد وأن تنعكس آثاره على تطور البلاد ، فى ضوء هذه الديون كلها التى كان على دولته أن تسددها ، وبعضها بفائدة وصلت الى ٥٪ .

ـ وكان من نتيجة هذا الفقر المتحالف مع الفساد والرشـوة أن ضعفت سيطرة الدولة المترامية الأطراف على بعض أقاليمها مثل البوسنة والهرسك ، خاصة عندما ثار بعض الفـلاحين فيهما ـ يوليو ١٨٧٥ ـ بسبب الضرائب المرتفعة .. وحيث بلغت الأزمة أقصى تعقيداتها باعـلان روسيا الحرب عليه فى أبريل ١٨٧٧ ، لتزحف جيوشها على البلقان والأملاك التركية فى آسيا وحيث انتهى الأمر باكتساح القـوات الروسـية لهما

واجتياز الأسطول الروسى للدردنيل والقاء مراسيه أمام الآستانة وماتتج عن ذلك كله من أحداث دفعت دولته ثمنها الباهظ ..

ــ وعندما نجحت هذه الثورة ، كثرت حركات التمرد الأخرى فى الولايات خارج الحدود ، كما كثر الصراع الدولى على اقتطاع أجزاء كثيرة تتحقق بها مطامع الدول الأوربية،ففقدت الدولة كثيرا من أراضيها، وتم احتلال الفرنسيين لتونس عام ١٨٨١ والبريطانيين لمصر عام ١٨٨٢ .. وغيرهما ..

ــ وقد ضاعف من تخوفه المتصاعد عدة أسباب أخرى .. سارت فى خط متواز مع ردته عن اعطاء عدد من الحريات عامة ، وحرية الصحافة خاصة .. كما ساهمت فى مضاعفة استبداده أيضا وكان من بينها ــ فى الخارج ــ مؤامرات الدول وهجوم الصحافة الأوربية عليه ، وكتابات المنفيين ضده .. هؤلاء الذين كانوا يعملون ــ أو أكثرهم ــ بوحى من جهات معينة ، تماما كما كانت تفعل الصحافة المهاجسة .. كذلك فقد انتشرت الجماعات السرية التى تعمل ضد الدولة حتى أن بعضها تحول الى النشاط العلنى والمسلح أيضا ، وذلك مثل الجمعيات البلغارية فى مقدونيا والأرمنية فى الأناضول الشرقية ، والحركة الثورية فى كريت .. بل وامتد نشاط بعض هذه الحركات الى الآستانة نفسها ، وحيث بدأت تهز العاصمة القوية ..

ــ أما فى الداخل فقد كثرت على عهد الرجل المؤامرات والدسائس من جانب ممثلى الدول الأجنبية ، وعلى وجه الخصوص ممثل دولة روسيا، كما بدا أن هؤلاء قد نجحوا فى « تجنيد » بعض أعوان عبد الحميد وجعلهم أداة طيعة لهم ، كما اشترى هؤلاء بعض الأعوان الآخرين عن طريق الرشوة .. ومن ثم لم يجد الرجل من حوله ــ فى الأعم الأغلب ــ الا من يشجعه على الفساد أو الاستبداد ، أو بعض الضعفاء أو المأجورين أو المرتشين .. دون أن يغيب عن بالنا أنه قد اعتلى العرش على أثر مقتل

السلطان عبد العزيز ، ونفى السلطان مراد الخامس .. فما الذى يمنع من أن يلقى نفس مصيرهما ؟

ولا أقول ذلك ـ بالطبع ـ دفاعا عن الرجل ، أو من أجل نفى الاتهامات العديدة الموجهة اليه ، وأغلبها من النوع الصادق ، وتجل عن الحصر ، وانما من أجل اكتمال صورة عهده ، بجميع معالمها وحدودها ، وأبعادها ، بعد أن ساهم هو ، بضعفه تارة ، خاصة فى مواجهة القوى الأجنبية ، واستبداده تارة أخرى ، خاصة فى مواجهة القوى الداخلية ، وكذا بتردده وسقم أساليب حكمه ، وميله الطبيعى الى الفساد والطغيان، ساهم الرجل بكل ذلك فى مضاعفة المثالب ، وتضخيم العيوب، والمزيد من ابرازها .. أو على حد قول الكاتب المصرى ابراهيم المويلحى الذى شهد هذه الأحداث ورآها رؤى العين وعاش أيضا بقربها : « كان من سوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدى زمرة مختلفة الأجناس والأنواع من نزاع الآفاق .. رأوا أن أغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم الا باشغال جلالته بمضاعفة ايجاس الخيفة من كل شيء واختلاس أوقاته التى تحتاج اليها مصالح الدولة ، فتدرجوا الى ماابتغوا .. والتدريج قائد الافراط .. ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال الا بالتجسس واظهار الجبن أخذوا يتسابقون »(٥) ... وهكذا كانت صورة الفساد منتشرة ورائحة الركود الذى آل اليه الحال فى دولة الخلافة .. دولة الباب العالى .. يشهد بها الجميع .

نعم ، لقد بدأ الرجل حكمه بداية طيبة .. بل حاول أن يكتسب لنفسه شعبية ما ، على أنقاض السلاطين من قبله ، فبدأ عهده باصدار دستوره المشهور ـ نوفمبر ١٨٧٦ ـ والذى اعترف فى المادة الثانية عشرة منه بالحرية الصحفية « ان المطبوعات هى حرة ضمن دائرة القانون » .. كما سارع بافتتاح البرلمان وألح فى خطاب العرش الذى ألقاه فى جلسة الافتتاح ـ مارس ١٨٧٧ ـ على أهمية وضع لائحة جديدة تختص

بالصحافة ، ولم يلتفت كثيرا الى هجوم صحيفة « الجوائب » عليه ، أو لنشر صحف بيروت المقالات العديدة التى تتناول صور الفساد التركى وألوان الضعف الذى تعانى منها الدولة العلية .

حدث ذلك كله فى بداية عهد الرجل بالحكم ، ولكن الرجل ، ورغم استشعاره لكل مخاطرها منــذ كان أميرا « شاه زاده » ، وأيضا رغم استشعاره بكل ما يحيط به من أشواك لم يشأ أن يواجهها مرة واحدة ، بل رأى أن يتغاضى أكثر من مرة عن بعض هذه الأساليب الهجومية ، وأن يدعها تمر ، مادامت تمضى داخل حدود غير مؤرقة ، ولا مثيرة ، كما أنها لم تصبح بعد ظاهرة يخشى منها على حكمه ..

ولكن ، مع مرور الوقت ، كانت الأخطار المهــددة للدولة نفسها ، وللرجل ذاته تزيد ، وكان الفساد يمد أذرعه الى أماكن لم تكن قد وصلت اليها بعد .. وأصبح الرجل ذات يوم ليجد صحف الآستانة وهى تتحدث عن ذلك كله ، وليجد صحف الولايات المختلفة وهى تردد نفس النغمة .. تلك التى أصبحت تعلو ، وتتردد بمرور الأيام والساعات .. حتى بدا أنه لابد من مواجهتها .. وهنا ظهر ضعف الرجــل وترديه أيضــا ، أمام من حوله ، وأمام السفراء والقناصل ، مما ساعد على « نمو جرثومة الفساد » على حد قول احدى الصحف .. وفى المقابل أدى بالرجل الى أن يعيــد ترتيب أموره ، وأن يكشف عن وجهه الحقيقى القــوى ، المتســلط فى مواجهة القوى الداخلية ومن هنا فانه استدعى صدره الأعظم « مدحت باشا » وأعلن عن خوفه الشديد على حكمه ، وعلى حياته ــ معا ــ اذا استمرت « دولة الجرائد »(٦) فى هذا الذى تفعله لأنه انما يهدد بـ « سوء العاقبة » (٧) .. كما أعطاه الضوء الأخضر ليبدأ عمله فى تكميم الأفواه ، وكسر الأقلام ، ووأد الحرية الصحفية .. حيث فاق غيره من الســــلاطين والملوك ، وأضاف الى أساليب قمعهم لهــذه الحرية ، وتحطيمهم لهــا ما يفوق الخيال نفسه .. وكان من بينها هذه الأساليب والصور كلها ، والتى

لم يخل بعضها من تسلل المبالغة أو الطرافة اليــه ، ولكنها التصــقت به وباسمه على أى حال :

* فلقد وضع الرجل كل ما جاءت به الدساتير السابقة أو دستوره ،ىو الخاص من تلك التى يفيد منها الصحافة والصحفيون .. وضعها جميعها على الرف منتهزا فرصة اعلان الحرب الروسية التركية كما شكل هيئــة رقابة قوية جعلها تابعة لمديرية المطبوعات ، وقام بارســال العــديد من الصحفيين الى المنفى ، كما أعطى الرقابة لمطبوعاته الأمر بتغيير ما ترى تغييره من مقالات وأخبار ووضع ما تراه مناسبا بدلا منها .. وكان على الصحيفة أن تلتزم تماما بنشر تصحيحات الرقيب .. والا فالتعطيل .

ويعدد الصحفى التركى « ماجــد جتين » ألوان هذا العسف الذى كانت تمارسه الرقابة قائلا : « كانت الرقابة أشبه ما يكون بالطاعون ، ولكنها لم تكن الوحيدة المتسلطة على الصحف أو المستبدة بها ، فالى جانب هذه البلية كانت هنــاك بليتان أخريان هما : الشرطة السرية التى كانت تقوم بالتجسس على الصحافة والصحفيين ، ولجنة التفتيش والمعاينة التى كانت تقوم بمداهمة الصحف والمطابع ، لتصادر بعضها ، وتحرق البعض الآخر »(٨) .

* ولقد صــدرت الأوامر صريحة الى الصحف بعــدم استخدام عشرات من الكلمات ، وتحــريم ظهورها على صفحاتها ، كمــا قدمت القوائم العديدة بالعبارات والمصطلحات الأخرى التى يمنع تداولها لأنها « عــدوة السلطان وأعــوانه » .. وكان من بينها : « التمرد ، القتل ، الاغتيال ، التظاهر ــ الاضراب ، القتال ، الديناميت ، القانون ، الدستور ، يلدز ، الوطن ، الحــرية ، المساواة ، الثورة ، السم ، النفى ، الخلع عن العرش ، الفوضى ، الخلافة » وغيرها .. كما حرم على الأشخاص اطلاق الأســماء الآتية : « سلطان ، خليفة ، عبــد الحميد » حتى أن من كان اسمه «سلطان» كان يقوم بتحريفه الى سلتان أو سلاتين ، ومن كان اسمه

عبد الحميد يدور الى حميد أو حامد أو حميد الله .. كما كانت نفس الأوامر السلطانية تصدق على الأعمال الأدبية والصحفية ــ معا ــ وعلى حد سواء .

ومن ذلك ما يذكره الكتاب الذى أصدرته وزارة الاعلام العراقية « دراسات فى الصحافة العراقية » .. والذى جاء به :

« ولم تكن الصحافة الأدبية احسن حظا من الصحافة السياسية فقد شدد عليها هى الأخرى الخناق وكانت تحاسب على ابسط الأمور وتعطل عن الصدور حتى لاسباب تعود الى تكنيك الترتيب والتبويب .. ناهيكم عن ان أعين الرقباء والوشاة كانت تبحث عن مدلولات وهمية وراء كل كلمة أو عبارة أو بيت من الشعر .. وقد قدر للصحف الا تتمتع بحرية الخوض فى المناقشات الأدبية فترة من الزمن ، وكان قد منع ادخال ونشر مؤلفات كثير من أدباء أوربا كفكتور هوجو وبالزاك وراسين وروسو وكانت وشكسبير وزولا .. وحظر نشر وتمثيل مسرحيات من قبيل هاملت وماكبث .. واذا كان قد سمح بنشر ــ عطيل ــ فان ذلك لم يتم الا بعد اختصار وتغيير كبيرين ..

وكان السفير العثمانى فى لندن يومئذ وهو موضع ثقة عبد الحميد قد عكف على ترجمة الكوميديا الالهية لدانتى ، وسرعان ما وصلت وشاية الى السلطان بشأن ترجمة الكوميديا واعدادها للطبع باللغة التركية . وكانت كلمتا دانتى ــ الكوميديا الالهية ــ كافيتين لاثارة حفيظة السلطان الذى وجه على جناح السرعة المذكرة التالية الى وزارة المعارف : على الرغم من التبليغ بعدم السماح قطعيا بطبع مؤلفات دانتى الشهير ، من شعراء ايطاليا ، فقد بلغ الذات الملكية أمر الترخيص بطبع مؤلف هذا الشاعر بعد اجراء التصحيحات فيه .. ان الارادة السنية تقضى بعدم الموافقة على طبع مؤلفات هذا الشاعر حتى فى حالة تصحيحها » (٩) .

* وكان من الطبيعى أن يسرع القراء باحراق الصحف التى عرفت بثوريتها بعد قراءتها وذلك خشية العيون والرقباء .. كما يحكى أن الشاعر العراقى « ناجى القشطينى » لاحظ ان ابنه عبد الله يدخل غرفته ويغلق بابها اغلاقا محكما على غير عادته ، وعندما داهمه أبوه وجده يقرأ ــ الغازيتا ــ فانهال عليه ضربا وأشبعه ايلاما وهو يصيح فيه قائلا : لقد خربت بيتى بادخالك الغازيتا .. فاذا بعبد الله يسرع باحراقها ..

* كما يحكى الكاتب « سليمان فيضى » فى مذكراته (١٠) أن أمير الكويت السابق « الشيخ مبارك الصباح » كان مشتركا فى جريدة الخلافة التى كان يصدرها فى تلك الأوقات بعض أحرار الترك والعرب فى لندن وكانت من أوائل الصحف التى منع دخولها الى البلاد والولايات التركية ، وعندما وشى جاسوس بوكيله فى البصرة ــ عبد العزيز سالم البدر ــ بأنه دفع اشتراك هذه الجريدة ، كبست داره وتحققوا من دفاتره ، وحكموا عليه بالنفى الى ديار بكر عشر سنوات .

* وربما كان من أقوى المقالات الصحفية ، وأوائل التحقيقات التى نشرتها الصحف المصرية والعربية على حد سواء ... تلك التى كتبها ابراهيم المويلحى تحت عنوان « ما هنالك » والتى سبقت الاشارة اليها .. ذلك أن السلطان عبد الحميد كان كلما سمع بعالم أو أديب أو فيلسوف أو سياسى يسرع بدعوته الى عاصمة الخلافة وهنالك وكما يقول د . عبد اللطيف حمزة فى الجزء الثالث من مؤلفه القيم ــ أدب المقالة الصحفية فى مصر ــ « كان عبد الحميد يوفر له أسباب العيش الرغيد فى قصر من قصور هذه المدينة الكبيرة حيث يعيش هذا الكاتب أو العالم أو السياسى أو الأديب فى قفص من ذهب ، كهذا الذى حبس فيه السلطان يوما ما السيد جمال الدين الأفغانى مرة والسيد النديم مرة أخرى ، ثم السيد ابراهيم المويلحى آخر الأمر » (١١) ..

سافر المويلحى الى الآستانة بدعوة من السلطان وحيث رأى بعينيه وعاش باحساسه وسمع بأذنيه كل ما دار ويدور فى قصر يلدز ، فكتب هذه المجموعة من المقالات ، وأتم كتابتها بعد عودته الى مصر ، ونشرها فى كتابه ـ الغفل من التوقيع ـ والذى يحمل اسم « ما هنالك » ولكن السلطان عرف بالأمر وأمر بجمع النسخ فقام المويلحى بجمعها حتى يأمن بطشه ، وأرسلها بنفسه الى الآستانة ، ولكن بعد أن تسربت عدة نسخ منه ، كما كانت جريدة « المقطم » قد نشرت بعضا منها ، كان يبعث بها كاتبها من الآستانة سرا .. المهم أن الكتاب يشتمل على مقدمة وثلاث عشرة مقالة وكلمة ختامية ، تناولها ـ جميعا ـ أستاذنا « د . عبد اللطيف حمزه » فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى نقتطف منه ـ أو من المقالات نفسها ـ هذه السطور :

* من المقالة الخامسة وعنوانها : دائرة الباش آما آو قزلر أغاسى فى المابين : « لو قام من القبر راشد باشا الصدر الأعظم وصاحباه على باشا وفؤاد باشا وسألوا رجلا فى طريقهم عما جرى على الدولة من بعدهم وقال لهم : لقد انفصلت رومانيا واستقل الصرب وزال الجبل الأسود وذهب الروم واقتصت البلغار وضاعت قبرص وبانت تونس وانسلخت بوسنة وهرسك وانقطعت باطوم وخرجت قارص وأردهان وانحلت تساليا ووقعت زيلع وطاحت مصوع وترك السودان وهذه مصر فى أيدى الانجليز ـ هذا قسم ضاع وانتهى فيه النزاع ـ وسورية ترصدها فرنسا وطرابلس الغرب ترمقها ايطاليا ومقدونية تشير اليها البلغار وقوصوه ترقبها الصرب ويانيا وكريد ومنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان ، وولايات أرمينيا تطلب الاستقلال أو الاصلاح ـ هذا القسم فى النزع ـ والبصرة وبغداد تشيع أهلهما بسعى حكومة ايران ، واليمن فى العصيان ، والمسلمون فى خوف على الحجاز ولم يبق الا حلب وأدرنة وأزمير وبروسة خالصة لجلالة السلطان ، وسفن الدولة قد آكلها الصدأ

فى قرن الذهب بعناية حسن باشا وأسراره العميقة وسفن الانجليز على شواطىء البـلاد العثمـانية والناس يشتكون من اغتصـاب المأمورين لأراضيهم وادخالها فى الأرضى السنية والجفالك السلطانية ولا ميزانية للمالية ولا نظام للعـدلية ، وصار مجلس الوكلاء بعـدكم تتلاكم فيه الوزراء والعساكر فى الولايات قد عجـز القـلم عن وصفهـم ووصف أسمالهم وأطمارهم البالية » (١٢) ..

ويمضى الكاتب يصف لهؤلاء حالة الـدولة ، ويسخر من السلطان والباش أغا ..

أفبعد ذلك كله ، يتركه السلطان ، أو يترك كتابه ؟..

على أننا نختتم هذه الرحلة السريعة مع « الخاقان بن الخاقان » بهذه الطرائف الحميـدية الصحفيـة التى تضـاف الى تلك السابقة .. ومنها ما يذكره شمس الدين الرفاعى من أن جريدة « المصباح » التى كانت تصدر فى بيروت لنقولا نقاش نشرت الاعلان التالى : « بيت مؤلف من أربع غرف ملك محمـد على الطرابلسى للايجـار وعلى الراغبين مخابرة صاحبه .. فما كان من الرقيب الا أن شطب عبارة الملكية معترضا على كلمـة « ملك » قائلا بأنه لا ملك الا للذات الشاهانية ـ السـلطان ـ وأبى أن يفهم المعنى الحقيقى للكلمة .. واستبدل بها كلمة « امبراطور » .. ولأنه كان لابد على الجريدة أن تنشر الاعلان بعد التعديل فقد ظهر على صفحتها وكلماته تقول : « ان دار الامبراطور محمد على الطرابلسى معدة للأجرة وهى مكونة من أربع غرف » !! (١٣)

وأرادت صحيفة « بيروت » أن تنشر خبر وصول « أحمـد أفندى سلطانى » فاعترض الرقيب أيضا لأنه لا سلطان الا السلطان عبد الحميد .. وطلب الرقيب أن يكتفى بذكر وصول « أحمد أفندى » فقط فاعترض المحرر لأن فى بيروت ألوفا اسمهم أحمـد أفندى ، وعندئذ قام الرقيب

بتغيير الاسم وظهرت الصحيفة وبعض الصحف الأخرى وفيها أن « أحمد أفندى سلطة » قد وصل بحمد الله وسلامته ..

والآن تعالوا بنا نقرأ هذا التصرف الرقابى الحميدى الصحفى الآخر ..

فقد جاءت برقية من وكالات الأنباء تحمل خبر اغتيال الرئيس الفرنسى « كارنو » فى مدينة ليون على يد شاب اسمه « كازاريو » طعنه بخنجره طعنة مميتة .. ورفض الرقيب أن ينشر الخبر على صورته الحقيقية ، وأصر على ذلك تماما مبررا ذلك الرفض بأن نشر مثل هذا الخبر يؤدى الى افهام الناس أنه من الممكن اغتيال السلطان .. وأخيرا طاب من الصحف أن تكتفى بنشر خبر يفيد مرض الرئيس الفرنسى .. واعترض عدد من المحررين لأن الرجل قد مات فعلا .. وبعد نقاش طويل وافق الرقيب على ان تنشر الصحف النبأ التالى تحت عنوان : « الى جنان الخلد » .

« ساءت صحة فخامة رئيس جمهورية فرنسا »

« بسبب تقدمه فى السن فانتقلت روحه الى بارئها »

وبينما كانت المطابع تستعد للعمل ، اتصلت الشرطة فجأة بجميع الصحف وطلبت اليها أن تتوقف عن الطبع .. لأن الوالى التركى على ولاية بيروت قد اعترض على صيغة الخبر .. اذ كيف يقال ان الرئيس الفرنسى قد ذهب الى جنان الخلد وهو مسيحى ؟ . ثم كيف يقال أنه مات بسبب تقدمه فى السن والسلطان عبد الحميد متقدم فى السن أيضا .. ان ذلك يعنى الايحاء للرأى العام بأن السلطان قد قارب الوفاة ، أو أنه من الممكن أن يموت .. وفى هذه وتلك اثارة للخواطر واقلاق للأمن العام !

ومن هنا فقد أعيدت صياغة الخبر مرة أخرى ونشرته صحف بيروت على الوجه التالى :

« انتقل فخامة رئيس جمهورية فرنسا الى رحمة الله » .

واستراح المحررون أخيرا .. فقد نشروا الخبر على صورته التى ترضى الجميع ..

ولكن ما كادت الصحف اللبنانية تصل الى الآستانة حتى أرغى السلطان وأزبد ، حيث رأى أن فى نشره على هذه الصورة الأخيرة تقليلا من قدره ، واهانة بالغة له .. اذ كيف يسمى رئيس جمهورية بلقب صاحب فخامة .. وهى حق للسلطان وحده .. وعلى الفور خرجت الأوامر الشاهانية السلطانية الى صحف بيروت ، وغيرها بعدد من الأوامر الخاصة بالألقاب ومنها على سبيل المثال لا الحصر ..

— لا يعطى لقب صاحب الفخامة أو صاحب الجلالة أو صاحب العظمة الا للسلطان وحده دون سواه .

— يلقب الملوك والأباطرة والسلاطين فى باقى أنحاء العالم بلقب حشمتلو .

ويذكر شمس الدين الرفاعى نقلا عن محمد كرد على (١٤) أن أحد الصحفيين أراد أن يكتب « ملكة انجلترا » وحار فى تسميتها وفق الأوامر والنواهى الجديدة .. وأخيرا هداه تفكيره الى أن يقدمها بلقب « حشمتلها » أى مؤنث حشمتلو .. فثار المكتوبجى — الرقيب — وأصدر تعليمات جديدة كان من بينها الأمر باكتفاء بلقب « حضرة » بالنسبة لملكة الانجليز ، ويقال حاكم زنجبار بدلا من سلطان زنجبار ويلقب شاه العجم بلقب « شهامتلو » بصفة استثنائية ؛ نظرا لموقفه الودى من الحضرة العلية ..

ويقول « محمد كرد على » أن الرقابة على هذه الصورة قد ساهمت بصفة غير مباشرة فى تدريب المحررين والكتاب على البديهة والارتجال وسرعة التحرير وحسن التصرف ، كما ساهمت أيضا فى الارتقاء بالمجلات الأدبية والعلمية التى لا تخوض فى أمور السياسة ، ولا تتعرض لأوامر أو نواهى الرقيب ، أو غضب السلطان .. ومن هنا ، فلم تكن الرقابة كلها شرا .. بل « رب شر أنتج خيرا » (١٥) ..

بل ينحى الكثيرون باللائمة على « المكتوبجية » أو « الرقباء » ويقولون أنهم بالغوا كثيرا فى استخدام سلطاتهم ، حتى يرضى ذلك السلطان .. الذى لم يكن يعلم عن تصرفاتهم الشىء الكثير .. والى حد ضرب مكتوبجى لبنان للصحفى سليم سركيس بالفلقة !!

وأقول .. اذا كان ذلك حقا .. فيالهذا الشر الذى أنتج خيرا .. بل أى خير ذلك الذى أنتجه اذا قيس بكل ما تقدم ..

وأما أنه لم يكن يعلم بكل ما يفعله الرقباء .. فتلك مصيبة أعظم . أليس كذلك ؟!

---

(١) سليمان فيضى « فى غمرة النضال » ص : ٤٩ .

(٢) منير بكر التكريتى « الصحافة العراقية » ص : ٥٦ .

(٣) احسان عسكر « نشأة الصحافة السورية » ص : ١٠

(٤) منير بكر التكريتى « الصحافة العراقية » ص : ١٠ .

(٥) عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ج ٣ - ابراهيم المويلحى - ص : ١٢٦ .

(٦-٧) فيليب دى طرازى « تاريخ الصحافة العربية » ج ٢ ، ص : ٧ .

(٨) وزارة الاعلام العراقية : « دراسات فى الصحافة العراقية » ص : ١٠ .

(٩) المصدر السابق ، ص : ١٣ .

(١٠) سليمان فيضى : « فى غمرة النضال » ص : ٥٠ .

(١١) عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ج : ٣ ص : ١٢٣ .

(١٢) المصدر السابق ، ص : ١٢٩ - ١٣٠ .

(١٣-١٤-١٥) شمس الدين الرفاعى « تاريخ الصحافة السورية » ج ١ ص : ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ .

لينين :

الدعاية والتنظيم الجماعى وإثارة القلاقل والفضـائح

لينين :

الدعاية والتنظيم الجماعى
واثارة القلاقل والفضائح

الزمان : الثامنة والنصف من مساء يوم ١٤ يناير عام ١٩٢٤ .

المكان : حجرة كبيرة داخل المبنى الضخم المعروف باسم قصر « الكريملين » .

الموضوع : مقابلة صحفية بين محرر احدى الصحف المحلية التى تصدر فى أوكرانيا .. وبين الزعيم القائد المفكر « لينين » .

كانت هذه هى المرة الأولى التى ينجح خلالها المحرر ـ باروفيسكى ـ فى اقتحام هذا المعقل الكبير المشرف كما القلعة التاريخية على الميدان الأحمر ، والذى شهدت حجراته وجدرانه ودهاليزه وأروقته كل ما تضمنه أو يتضمنه عالم السياسة من غرائب ، ومناورات ، ومواكب انتصارات ، وجنازات هزائم وقصص ، ومذابح ، تشبه الأساطير تماما ..

أخيرا ، وبعد الحاح ومتابعة وصبر ومثابرة استمرت لمدة عام كامل .. هاهو الرجل تصله برقية تقول له أن الزعيم الكبير فى انتظاره .. مساء ذلك اليوم .

وهو يجول ببصره داخل الحجـرة الكبيرة نفسها ، ويتأمل الستائر الحمراء الثقيلة والجدران الفولاذية والمكتب الضخم الفخم الذى كان منذ سنوات قليلة خاصـا بالقيصر .. يقـع بصره على بعض العبـارات والشعارات التى علقت بعناية على هذه الستائر وفوق الجدران .. لقد رآها منذ قليل منتشرة فى أنحاء الميدان الأحمر .. ورآها مرة أخرى فى حجرة رئيس الحـرس ، ومرة ثالثة فى مكتب الحـزب ، ومرة رابعة فى الدهليز الطـويل الذى يؤدى الى هـذه الحجرة نفسـها .. وها هـو يشاهدها ويقـرأ للمرة الخامسة ، أو السادسة أو ربما السابعة خـلال ساعة واحدة :

« يا عمـال العـالم .. اتحـدوا »

« ليس عند الكادح ما يفقده .. الا قيده »

« الخبز ــ السلام ــ الحرية »

« كل السلطة للسوفييت »

وغيرها من الشعارات العديدة .. المماثلة ، الى جانب عدد غير قليل من كلمات ماركس ولينين الأخرى .. كما شهد فى ركن صغير من أركان الحجـرة الكبيرة حاملا للكتب دقـق فيه النظـر .. وعرف أن الكتاب الموجود به هو ذلك الذى ألفه لينين فى بداية هذا القرن تحت عنوان : « تطور الرأسمالية فى روسيا » فكر أن يقوم من مكانه ، ويتناول نسخة منه ، ولكنه خشى أن يحسب هذا التصرف عليه ، ولو أنه ليس من بين المحاذير التى أوصاه رئيس تحـرير صحيفته ــ صوت اوكرانيا ــ بعدم الوقوع فى مغبتها والا عرض نفسه للسجن ، وعرض صحيفته للمصادرة ،

كعشرات غيره وغيرها .. تماما كما حذره بألا ينسى نفسه ، أو يحاول أن يختلس النظر ، أو يدقق فيما ليس له به شأن .. فنصف هذا المكان عيون على النصف الآخر ، وكلهم عيون على من دخله من خارجه .. هكذا قال له رئيس التحرير نفسه ، وتأكدت له صحة أقواله وهو يمر بعشرات الأشخاص والأسماء والرتب ، وكلهم يدقق فى شخصه ، وفى التصاريح التى أعطيت له ، وفى صوره ، ومحتويات ملابسه ، والهدف من المقابلة ، واسم عائلته وعدد المعتقلين من أفرادها .. وغيرها .. وغيرها على الرغم من أن ذلك كله مدون بالأوراق التى يحملها ، والتى لاحظ أن أكثر من صورة منها توجد أمام الأشخاص الذين قابلهم .. أو الذين قادوه فى دهاليز هذا المكان ، وبعضها مظلم يذكر بحانات القرون الوسطى ..

حتى جاءه من يخبره بأن الرفيق فى انتظاره .. وقام بقيادته ــ لآخر مرة ــ الى حجرة لينين شخصيا .. وليجد الرجل نفسه أمامه وجها لوجه .. بعد كل هذه الاجراءات والتعهدات والتوجسات ..

بعد أن حيا الرجل « الرفيق » الأكبر .. ورد هذا بدوره التحية ودعاه الى الجلوس ، كان باروفيسكى ما يزال يتذكر كل ما قابله من عناء حتى وصل الى لقاء الرجل ، ومن هنا فقد قرر أن يستثمر هذه الفرصة التى أتيحت له تماما ، وأن يحاول الحصول ، قدر استطاعته على كل ما يستطيع الحصول عليه من الرفيق الأكبر .. كما رأى أن يبدأ سؤاله بما يتناول هذه الاجراءات نفسها .

المحرر : أيها الرفيق العظيم .. لابد أن أقول لك فى البداية أننى عانيت كثيرا حتى وصلت الى هذه الحجرة .. فهل يكون على كل صحفى

سوفييتى أن يفعل مثلما فعلت ، وأن يمر بنفس هذه الاجراءات .. وماذا اذن عن الصحفى الأجنبى ، أو المراسل الذى يريد اللقاء بك ؟

لينين : دعنا أولا نتفق على أن هذه الاجـراءات قد وضعهـا رجال الأمن ، ولست أنا ، انه عملهـم وهم يقومون به بالطـريقة التى يرونها مناسبة . ولك أن تعلم أننى منذ عام كامل .. بالتحديد منذ يناير الماضى لم ألتق بغير صحفيين اثنين فقط .. وهما من صحيفة « البرافـــدا » والمحرر بصحيفة البرافدا هو فقط الذى لا يمر بهذه الاجـراءات لأنها ـ كما تعلم ـ ومنذ قمت بتأسيسها فى ٥ مايو عام ١٩١٢ .. وهى جهاز من أجهـزتنا الرئيسية التى نعتمد عليها كل الاعتمـاد فى دعاوتنا ، كما تحولت بعد الانتصـار العظيم لثورتنا الى جهـاز من أجهـزة اللجنة المركزية للحـزب ، حزبنا الشيوعى السوفيتى ، تقـوم بحمـل تعليماتنا ونداءاتنا وأفكارنا الى الجماهير ، كما تقـوم بواجبها الأساسى والحتمى فى حماية مصالح الطبقة العاملة ..

المحرر : أرى أنك لم تجب على الجزء الثانى من سؤالى ، والخاص بالاجراءات التى تتخذ مع المراسلين الأجانب .

لينين : لقد تعمدت عدم الاجابة على هذا الجزء .. لأنك تعلم تماما أنه لا يوجد عندنا مراسل أجنبى واحـد ولم تتفق بعد فى لجنة الحزب على قبول أى من هؤلاء ، ومن ثم فان الحديث عن مثل هذه الاجراءات لم يحن موعده بعد .. ثم قل لى .. ماذا اذا قمنا بقبول عـدد من هؤلاء الذين بعثوا هم أو بعثت صحفهم الينا ومنذ نجـاح الثورة ، تطلب أن نسهل لهم مهمة العمـل بموسكو .. ثم اتضـح ان هؤلاء من جـرذان الرأسمالية الذين يقـومون بالتجسس على أنشطتنا وابلاغهـا لأعـداء

البلاد ؟ ان عندنا من مهام بناء دولة كل السوفييت والعمل على وحدتها ، ووحده الطبقة العاملة العالمية ما نضع الآن أسسه ، ومن ثم فليس عندنا الوقت الذى نقطعه فى متابعة أساليب هؤلاء .. ولا اعتقد أنه سيكون عندنا من الوقت لمتابعتها قبل أن نرسى معالم هذه الدولة التى نحلم بها ، أو على الأقل ، قبل أن نضع دستورنا الدائم .

المحرر : الرفيق العظيم .. لقد كنت مترددا فى اختيار موضوع الحديث معكم ، ولكن يبدو أننا سنواصل الحديث عن صحافة دولتنا العظيمة ، وعن أفكاركم بشأنها ، وواقعها ومستقبلها .. ولكن ليس قبل أن تقدموا على لسانكم تعريفا بكم تنقله صحيفتنا الى القراء .

لينين : موافق تماما .. ولعلها فرصة طيبة لتعرف الجماهير الكثير عن صحافتنا .. أما عنى شخصيا فاليك هويتى .. وسجل أعمالى .. لقد ولدت فى ٢٢ أبريل عام ١٨٧٠ بمدينة « سمبرسك » .. وقد تحدثت وأنا طالب الى زملائى عن حقوق الطلاب ، وتطرق الحديث الى حقوق آبائنا من العمال والفلاحين ، حيث كانت بعض الآذان تسترق السمع الى حديثى .. فنفيت الى سيبيريا وهناك قاسيت زمهرير الشتاء فى مقابل بضعة كلمات .. وعندما عدت الى مدينتى درست كارل ماركس وكانت لى اهتمامات قانونية كبيرة أطلعت عينى على أشياء كثيرة لم تقدم لى الفائدة عندما قمت بمزاولة المحاماة فى مدينة سمارا فقط ، أو فى مدينة سان بطرسبرج بعدها .. وانما أوضحت أمامى طريق العمل السياسى والدعائى القائم على أرضية صلبة من فهم لعقلية الجماهير ، ولتعاليمات وأفكار ماركس .. أما الفترة التى تعتبر ذات تأثير كبير فى حياتى فهى تلك التى تقع بين عامى ١٨٩٥ — ١٩٠٥ .. ففى هذه الفترة

وضحت يدى على الأسس والمبادىء التى ينبغى الاندفاع نحو تحقيقها بقوة ، كما تنبهت الى أساليب تحقيق ذلك ، وقمت بممارسة تطبيقية لهذه الأساليب نفسـها .. عن طريق الكتابة فى الصحف ، وتعبئـة مشـاعر الجمـاهير فى أماكن تجمعهم ، كما تعرضت خـلال هذه الفترة نفسـها للسجن والنفى أكثر من مرة ولمدد متفاوتة .. ولا ننس أننى خلال هـذه الفترة نفسها قمت بتأليف الجـزء الأكبر من كتابى الذى ضمنته خلاصة أفكارى خلال هذه االفترة ، والذى أطلقت عليه اسم « تطور الرأسمالية فى روسيا » ..

بعد ذلك .. ذهبت الى سويسرة حيث قمت بالاشراف على تحـرير صحيفـة ثورية .. ثم عـدت الى الوطن وقمت بدور تنظيمي لجمـاهير موسكو الثائرة ولكن الثورة فشلت واضطررت الى الفـرار من البلاد لأجتر ثورتى فى صدرى ، واحتفظ بدروس الفشل العـديدة ، لتفيدنى بعد ذلك كثيرا .. لقـد بقيت خارج روسيا حتى قيـام الثورة فى فبراير ١٩١٧ ، حيث عـدت الى بتروجـراد واشتركت فى توحيـد صفـوف البروليناريا ، وقمت بوضـع أسس ودعائم ديكتاتوريتها ، كمـا كافحت حتى نجحت فى نقل مقر الحكومة الى هنا .

المحرر : وماذا عن صحافتكم ؟

لينين : لقد كان اتصالى شديدا بالصحافة ، خلال هذه المراحل كلها .. بل وأثناء وجودى خارج البلاد أيضا .. وعندما عدت من الخارج ، قبل سفرى الأخير ، كنت أشد ايمانا بقوة هذه الوسيلة التى يمكنها أن تقدم الكثير والكثير جدا بالنسبة لتجميع كلمة العمـال ، وتوحيدها وتنظيم

الدعاوة ونقل الشعارات والمواقف وتفسيرها ، وحشد الجهود والامكانيات ، وتكوين الكوادر التي تحتاج اليها .. ومن أجل ذلك كله فقد كان اهتمامي كبيرا بانشاء صحيفة البرافدا .. وبعد أن قمت باختيار كوادرها العاملة بنفسي وبدقة شديدة ، ووضعت أمامهم خطة العمل خلال هذه المرحلة ، ثم خطة العمل خلال مرحلة ما بعد الثورة .. وهكذا صدرت البرافدا كما قلت لك فى ٥ مايو ١٩١٢ .. وما تزال تصدر حتى هذا اليوم .. ولا أحسب أن شيئا ما سوف يحد من اندفاعتها ، أو يوقف من تطورها أو يحد من قوتها .. لأنها قد أصبحت ـ وكما كان مخططا لها منذ بداية اصدارها ـ صحيفة اللجنة المركزية للحزب .. والتي تستمد قوتها من قوة اللجنة ذاتها .. أقوى سلطات البلاد .. ومن هنا أيضا ، فالبرافدا تمثل تلك الرابطة القوية ، الجسر المتين الذى يربط بين الطليعة والطبقات .

ويستطرد لينين قائلا : أين ذلك كله من صحافة ما قبل الثورة .. تلك التي كانت لا تخرج فى مادتها عن تمجيد القياصرة ، والكتابة عن أعمالهم مهما كان نوعها ، حتى أنها كانت تمتلىء عن آخرها بأخبار زواجهم وطلاقهم ورحلات صيدهم وزياراتهم وولائمهم .. دون أن تكتب حرفا واحدا عن العامل السوفييتي الذى يقاسى الأمرين فى منجم يقع عند بطن الأرض ، وعلى عمق مئات الأمتار ، أو قاطع خشب يعمل فى سيبيريا والثلج يجمد أطرافه .. ولكنه يعمل .. ويعمل ليحضر لأطفاله قوت يومه .

المحرر : لقد تحدثنا كثيرا عن البرافدا .. فماذا عن الصحف الأخرى ؟

لينين : هذا حق البرافدا علينا .. ولكننا لم نكمل الحديث بعد .. فبالاضافة الى هذه الصحيفة الأم « البرافدا » فقد بذلت مجهوداً خارقا

عقب عودتي ببضعة أيام فقط ، وعلى أثر نجاح الثورة ، وبعد اقتناع كامل مني ، ومن عدد آخر من زعماء الثـورة قمت باختيار نخبـة ممتازة من الثوريين المحترفين ، والذين كانوا يتذوقون حـلاوة النصر .. أردت أن أجعل منهم هيئة تحرير أخرى لصحيفة جديدة ، لا تنافس البرافدا ، ولا تختلف في سياستها التحريرية عن الخط الثوري العـام ، وانما تعبر عن الجانب الرسمي الحكومي .. ومن ثم فقد صدرت صحيفة «أزفستيا» .. في ١٣ مارس ١٩١٧ ، أي بعد صدور البرافدا بحوالي خمسة أعوام .. ثم تتابع بعد ذلك صدور صحف النقابات والجمهوريات المختلفة .. والوزارات أيضا وعندنا الآن مئات الصحف المتنوعة ..

المحرر : هل يمكن للرفيق العظيم أن يحدثنا عن الفلسفة التي تعمل على تسيير سياسات واتجاهات هذه الصـحف كلها ، وكيف يرى مهامها الرئيسية ..

لينين : هذا موضوع شائك ، ولكنه أساسي .. وقد كنت أخاف أن يمر الوقت ، دون أن توجه لي مثل هذا السؤال الهام .. والآن استمع الى ما اقوله لك ..

اننا نؤمن تماما ، ومنذ كنا من الثوريين الطلاب ، أن هدف الصحافة لا يقوم على الاتجار بالأخبار أو المقالات أو الصور أو أنواع الكتابات الأخرى .. وانما العمل على توعية الجماهير واعلامها بما يعمل على ترتيبها وتنظيمها ووحدتها .. ومن أجل ذلك كله فقد اهتمت البرافدا منذ صدورها بتحقيق هذه الأهداف وبأسلوب ثوري .. حيث كان كتابها يعتبرون من طلائع الثوريين المحترفين ، ومن مثيري القلاقل الخبراء ، والذين يعرفون كيف يثيرون الجماهير ويدربونها ، ويجذبونهم اليها ، حتى يمكن تدريبهم تدريبا كاملا ، على الانتظام والوحـدة واللحـاق بهذه الطليعة الثورية نفسها ..

ويضيف لينين قائلا : ومن هنا أيضا فقد سعينا الى نشر أسباب الاضطراب والفوضى واثارة الفضائح التى زخر بها المجتمع القيصرى ، وكشف الطرق التى تخفى الطبقات الحاكمة وراءها مصالحها الأنانية ، والعمل على اسقاط جميع الأقنعة التى تضعها هذه الفئة الطاغية المسيطرة على وجوهها ، وتعريتها تماما أمام الجماهير .

ويدق لينين بيده جرس مكتبه .. ويفتح أحد الأبواب الجانبية ويدخل منه رجل ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، يشير له الزعيم اشارة معينة ، يعود بعدها حاملا كتابا كبيرا ، يمد لينين يده ويتناول الكتاب الأحمر الغلافة ، الذى وضعه الرجل على مكتبة ، ثم يفتحه ويستمر فى حديثه .

لينين : لقد أردت هنا أن أطلعك بالضبط على ما كتبته منذ ثلاثة أعوام عن هذه النقطة بالذات .. لقد قلت بالحرف الواحد : « لن يجد العامل تلك الصورة الواضحة فى الكتب ، لأنه لن يجدها الا فى وقائع حية فيما يدور حولنا ولا تتناوله الا همسا فيما بيننا ، وتكشف عنه الوقائع والأرقام والأحكام .. وتلك الفضائح التى تتناول جميع الميادين هى الشرط اللازم الأساسى لتهيئة الجماهير للقيام بنشاطها الثورى » .. لقد مهدنا الأذهان لما حدث بعد ذلك ، وكانت صفحات البرافدا خير معين لنا على الوصول الى الجماهير ، وحشدها ، وايقاد نيران غيظها وحقدها .

المحرر : وكيف كانت الأمور تسير فى تلك الأوقات ؟

لينين : لقد نجحنا الى حد كبير ، منذ صدور العدد الأول فى بترسبورج ، تحت الحكم القيصرى ، وأقدم عدد كبير من العمال على قراءة الصحيفة ، بل وعلى تأييدها وجمع التبرعات له ، خاصة عندما بدأت الصحيفة تنشر صور العمال العاديين ورسائلهم العديدة التى كانت تتحدث عن اضطهادهم ووسائل استغلالهم وظروف معيشتهم السيئة .. كما أفردنا

بابا خاصا نرد فيه على مطالبهم ، ونعلن الحرب على جلاديهم ومن ثم ، كان لذلك كله مردوده الايجابى ، ليس على نجاح الصحيفة فقط ، وانما على اشعال نار الكفاح الثورى فى نفوس العمال والفلاحين .. وذلك كان هدفنا الأول ..

المحرر : وماذا كان موقف السلطات حيال ذلك كله ؟ وهل تركتكم تفعلون ما تريدون دون تدخل فيها ؟

لينين : وهل هذا معقول ؟ .. لقد تعرضت الصحيفة كما تعرضنا نحن لمختلف ألوان العسف والاضطهاد وحتى النفى والتشريد .. لقد مارست السلطات فى ذلك الوقت جميع ألوان التقييد المعروفة ، وغير المعروفة بدءا بممارسته التعنت فى الحصول على الورق ومرورا بمداهمة البوليس لمطبعتنا وفرض الغرامات العديدة علينا ، والتى كان بعضها فوق طاقتنا .. وحتى مصادرة الأعداد كلها قبل أن تخرج من المطابع لقد حدث ذلك ثمانى مرات فى عهد الحكومة القيصرية .. ولكننا كنا نتحايل بطرق كثيرة ، فمرة نتوسط الى رئيس الشرطة ، ونقنعه بمواقفنا ونعمل على تسريب عشرات من الأعداد الى الخارج ، ومرة أخرى نقوم باخفاء الأعداد داخل العربات التى تذهب الى الريف فى المساء وتعود صباحا محملة بالخضر والفاكهة والبيض واللبن ، ومرة ثالثة نستسلم فى الصباح ، ونصدرها فى المساء باسم جديد .. لقد حدث ذلك أكثر من مرة .. وها هى الصحيفة بين يدى القراء ، توزع عليهم يوميا حوالى الربع مليون نسخة ، وهو رقم لم تصل اليه حتى اليوم ، أية صحيفة رأسمالية معاصرة .

المحرر : والآن وقد نجحت البرافدا .. كما أحرزت أزفستيا نجاحا لا يقل عن نجاحها .. هل لكم أن تحددوا لنا أهم أسباب هذا النجاح ؟

لينين : نعم .. وبعضها تناولناه خلال هذا الحديث نفسه بشكل أو بآخر ، كما أن بعضه قد تناولته فى كتاباتى ، وخطبى .. ان فى مقدمتها على سبيل المثال لا الحصر هذه الأسباب كلها ..

ــ التعبير عن مطلبين أساسيين لجماهير العمال والفلاحين وهما : الأرض والسلام .

ــ اثارة القلاقل وتعرية النظام الرأسمالى ، وفضح الاقطاعيين ومداعبة آمال وأحلام الجماهير .

ــ اعطاء الجماهير الفرصة كاملة للتعبير عن أفكارها وآرائها وكشف الظلم الواقع عليها وتسجيل استنكارها له .

ــ استبعاد الطابع التجارى للصحف كلية ، وكذا استبعاد فكرة صحافة الأفراد .

ــ العمل باستمرار استنادا الى خطة سياسية واضحة تحدد الهدف والطرق المختلفة والعملية المؤدية الى الوصول اليه .

المحرر : سؤال أخير : كيف ترى حرية الصحافة السوفييتية ؟ وما هو مفهومها فى رأيكم ؟ وهل يمكن أن يتضمن الدستور السوفييتى المنشود ما يشير الى هذه الحرية والى طبيعتها وحدودها ؟

لينين : حسنا .. لقد تحدثت كثيرا فى هذا الموضوع .. ان لنا نحن هنا فى الاتحاد السوفييتى مفهومنا الخاص للحريات جميعها ، والحرية الصحفية ، أو حرية الصحافة واحدة منها .. اننا نكره الشعارات الجوفاء، التى لا تجد لها التطبيق العملى على أرض الواقع نفسه ، ومن ثم ، فانه اذا كانت صحافة الرأسماليين ترفع شعار الحرية كذبا ونفاقا ، وحيث لا حرية على الاطلاق ، مما يحوله الى شعار مزيف ، أو طبل أجوف ، أما بالنسبة لنا فان شعار الحرية الذى نرفعه يحمل فى مضمونه ويتحدد

مفهومه أيضا وفقا لمصالح الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وجنود ومثقفين وثوريين ، وعلى سبيل تدعيم النظام الاشتراكى .. وغير ذلك فلا حرية على الاطلاق .. بل ان الحرية نفسها تصبح ترفا صحفيا ، لا أعتقد أننا نقدر عليه الآن ، أو سنقدر عليه فى المستقبل القريب ..

مرة أخرى يدق الزعيم الجرس الموجود على مكتبه ، ويدخل رجل آخر ، ضخم أيضا عريض المنكبين أيضا ، ولكنه غير الرجل الأول ، بل يزيد عنه بشارب « قيصرى » لعله من بقايا العهد السابق .. يدخل ، ويشار اليه ، ويخرج ، ويدخل مرة أخرى وفى يده كتاب آخر .. يضعه على المكتب الضخم ، ثم يغادر فورا ، فى خطوات ــ رغم ضخامته ــ سريعة ..

لقد تعرف المحرر على الكتاب هذه المرة .. انه كتاب لينين نفسه المسمى : « نظريات حول الديموقراطية البورجوازية وديكتاتورية البروليتاريا » والذى صدر منذ عامين فقط ..

يمسك لينين بالكتاب ويتجه بوجهه الى المحرر ، يفتح الكتاب ويقول :

أظن أننى عبرت عن مثل ما تحدثت به اليك الآن ، على صفحات هذا الكتاب ..

يمد يده اليه بالكتاب .. بعد أن يشير الى فقرة محددة على احدى صفحاته ، يطلب من المحرر هذه المرة أن يقرأ بنفسه .. يتناول المحرر الكتاب الضخم بين يديه المرتعشتين مخافة أن يفلت من بينهما .. يقرأ بصوت مخنوق .

« حرية الصحافة هى أحد الشعارات الرئيسية فى الديموقراطية الصافية ، الرسماليون يفهمون بحرية الصحافة حرية شراء الأغنياء لها ، حرية استخدام الثروة لصنع وتزييف الرأى العام .. الحرية الحقيقية

لا تتجلى الا فى النظام حيث تنعدم الامكانية الموضوعية لاخضاع الصحافة لسلطة المال مباشرة ، أم بطريقة غير مباشرة » .

بعد أن خلص من القراءة ، يلتقط المحرر أنفاسه و « يبلع ريقه » ويحمد الله على أنه لم يخطىء بينما ينطلق لينين فى حديثه مرة واحدة ..

هذا هو مفهومنا للحرية الصحفية ، ولحرية الكلام ، ولكل الحريات.. التى ينبغى أن يمنحها دستور الاتحاد السوفييتى للمواطنين الذين ننظر اليهم ككل وليس كأفراد .. كل يمثله أعضاء الحزب .. وهؤلاء تمثلهم القيادات التى تقرر هذه الحريات كلها ، بما يتفق ومصالح الشعب العامل، ودعم النظام ..

عند ذلك الحد أحس المحرر أنه قد أخذ من وقت زعيمه أكثر من المقرر .

فقام وشكره كثيرا .. ثم ودعه مسلما .. ولينين يكرر على مسمعيه

لا تنس أن تقول أن أفضل حرية للصحافة ، هى ما يرى الحزب أنها الأكثر صلاحية لليوم والغـــد .. وفقا لمصالح الطبقات العاملة .. ودعما للنظام ..

ويرد الصحفى : لن أنسى .. لن أنسى مطلقا أيها الرفيق العظيم .

ملحوظة : فكرت طويلا فى أسلوب جديد لتناول أفكار هذا الرجل ــ الجافة أصلا ــ حول الصحافة ، ولم أجـد خيرا من هذا الحـديث الوهمى .. الذى لم يجر على الاطلاق ، وان كان ما به قـد أخـذته عن الرجل نفسه ، وكتاباته العديدة .. وصحافته أيضا فمعذرة !

أتاتورك :

منقذ الدردنيل
والهجوم العاقل

أتاتورك : منقذ الدردنيل والهجوم العاقل

ما يزال بعض الخلاف حول هذا الرجل يقوم .. ويحتدم أيضا ..

.. نعم .. على الرغم من أن حركته ، أو انقلابه ، أو ثورته .. قد مر عليها أكثر من نصف قرن من الزمان ، الا أن تضارب الآراء وحيرتها ، بل وحيرة المؤرخين أيضا .. ما تزال ماثلة للأذهان ، تقفز الى الوجوه فى شكل علامات استفهام عديدة وكبيرة ..

وبالطبع لم يكن من المنتظر أن تصبح صحافة الغرب ، وصحافة الشرق — معا — أقل حيرة من كتب التاريخ والمؤرخين .. فبينما نجد أن الكتاب الاسلاميين على اختلافهم ينحون باللائمة عليه ، ويحملونه كل ما أصاب الاسلام من ضعف ووهن وما استتبعهما من نتائج كانت لها تأثيراتها البعيدة المدى على الدين الحنيف ، وعلى أهله وعلى دوله .. نجد أن بعض هؤلاء يضعه فى مكان لم يبلغه أحد من الزعماء..كيف لا ، وهو صاحب واحدة من أبرز الحركات النضالية الاستقلالية فى العصر الحديث كله ، وليس فى القرن العشرين ، أو نصفه الأول فقط ؟ .. ذلك كله بينما نجد واحدا من أكبر مؤرخى هذا القرن نفسه : هـ٠ا٠ل فيشر يقول عنه بالحرف الواحد أنه كان : « شرس الطباع قاسى القلب ميالا الى الخصام والشجار وكانت عربدته فظة ، وفجوره قاسيا ودعاواته عنيفة متسقة مع تقاليد أمته » (١) ..

وحتى هذا الرجل نفسه ، فانه وهو يصفه بهذه الصفات كلها ، لم ينس أن يعترف له بأنه ذلك الرجل الذى يمتلك بنية من حـديد وارادة قدت من صلب ، ونفاذ بصر وجلاء فكر واسـتقلال رأى وموهبـة فى الزعامة الحربية والسياسية .. الى أن يقول : « كانت كلها مناقب انفرد بها دون سائر بنى جلدته »(٢) ..

ذلك هو « الذئب الأغر » « الغازى » « منقذ الدردنيل » و «موقظ تركيا » « مصطفى كمـال أتاتورك » الرجل الذى قام بحركته النضالية الاستقلالية الكمالية التى قلبت الصورة فى تركيا تماما رأسا على عقب ، والتى أدت الى انشاء دولة تركية جديدة ، وسط ركام آلام الامبراطورية العثمانية ، وحطام شيخوختها المبعثر ، وبعد أن كان الحال قد بلغ بدولة الخلافة ، والاسلام ، والباب العالى ، مبلغا لا يرضى أحدا ، أو على حد تعبير صحيفة التايمز اللندنية : « وصلت الى حالة من الضعف والشـلل التام .. وأصبحت أكبر مثال لما يمكن أن يورثه السفه والغفلة والغرور والاسراف والجهل والتعصب وسوء الادارة ... جميعها اجتمعت عليها .. وفى آن واحد » .

وبصرف النظر عن جميع أفعال الرجل وعن أننا نقف تماما فى صف المعارضين لبعض ما جاء به ، وما أحله بالقوة الطاغية ، خاصة ما يتصـل بالدين الاسلامى والقرآن الكريم واللغة العربية ، وكذلك ، بصرف النظر عن ايماننا المطلق بأنه كان يستطيع أن يحقق ما حققه ، وأن يصـل الى ما وصل اليه ، وربما الى أكثر من ذلـك ، دون أن يوجه طعنـاته الى المقدسات الاسلامية ، والعبادات ، ولغة القـرآن .. الا أننا لا ننكر له دوره الوطنى الكبير الذى قام به ، ولا اخلاصه أو تفانيه فى نهضة بلاده وتتريكها والبحث لها عن مكان تحت شمس العصر ..

ليأتى الآن دور الحديث عنه ، من زاوية الصحافة ..

كيف كان « الذئب الأغبر » يراها ؟ .. وما هو رأيه فيها ؟ ومواقفه منها ؟

الحق أنه لم يكن من المعقول ، ولا من المقبول ، ألا يلتفت الرجل — وهو داعية وصاحب فكرة ، وزعيم وطني ، وقائد عسكري — الى هذه الأداة الاعلامية والدعائية الكبرى ، لا سيما والآستانة — عاصمة الخلافة — كانت تزخر بالعشرات من مندوبي الصحف العالمية ووكالات الأنباء الكبرى ، والذين كانت اقامتهم بها شبه دائمة ، لأنها كانت في ذلك الوقت وعلى الرغم من تردي حالتها .. من العواصم الكبرى صانعة الأحداث العالمية .. حتى وان كانت هذه الأحداث نفسها تسير في اتجاه مغاير لمصالحها ..

وبالاضافة الى ذلك كله ، فان الرجل كانت صلته قوية بأفكار الزعماء والقادة من الذين شهدتهم هذه الفترة نفسها ، وكان أبرزهم ممن بلغ اهتمامه بالصحافة مداه والى حد الاشتغال بها ، قبل ظهور حركته ، وبعدها أيضا .. وذلك مثل « لينين » و « موسوليني » و « هتلر » .. وغيرهم ..

بل ان الرجل نفسه — مصطفى كمال — كان يعرف الى أي حد كان اهتمام السلاطين بهذه الوسيلة ، ذلك الاهتمام الذي جعل بعضهم يجري الرواتب الكاملة ، ويدفع الرشاوى أيضا ، لعشرات من الصحف الأوربية ، ومئات من الصحفيين ..

ومن هنا ، فقد بعث الرجل ، وهو ما يزال في شرخ الشباب الى رئيس تحرير صحيفة « صون بوسته » التي تصدر في الآستانة برسالة يرجوه فيها أن تتاح له فرصة الكتابة والتعبير عن أفكاره ، وكذا عن « هذا الظلام الرهيب الدامس الذي تسير فيه البلاد دون أن يدري أحد الى أين تسير وما هي النهاية » .. ويعبر في خطاب آخر له بقوله : « لقد

استسلمت بلغاريا وانقطعت الصلات بيننا وبين ألمانيا والقى جنودنا السلاح ووقعوا الهدنة على ظهر بارجة انجليزية .. وهذه هى أساطيل الحلفاء تحتل مضيقى الدردنيل والبوسفور ، والجيش قد سرح أكثره والانجليز والفرنسيون يقتسمون البلاد والأرمن والروم يوجهون الطعنات واليونان تحتل أزمير ... وماذا بعد ؟ ألستم معى فى أنه لابد من العمل الكبير وأن وقته قد جاء تماما ؟ » .

وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من خطاباته المقالية لم يجد طريقه الى النشر ، الا أن اتجاهه الى الصحافة ، فى هذه المرحلة المتقدمة يؤكد انه كان ينتظر منها وعلى يديها الكثير !! وقد أكد الرجل ذلك ، بعد أن بدأ كفاحه المعلن فى أكثر من صورة ، من بينها أنه كان يدعو عددا من الصحفيين الأتراك الى اللقاء به ومبادلتهم الرأى والمشورة فى ما آلت اليه أحوال البلاد .. كما سمح لبعضهم بحضور عدد من اجتماعاته السرية ، وأرسل البعض الآخر فى مهام خاصة ببعض البلاد الأوربية والعربية ، كما شجعهم على الاشتراك فى عدد من الجمعيات التى كان أعضاؤها يتدارسون وسائل الخلاص ، مثل جمعية « تراكية » و « الدفاع عن الولايات الشرقية » و « جمعية حفظ الحقوق » و « تعالى الاسلام » . وغيرها من تلك التى ساهم « الزعيم » فى نشاطها المبكر بشكل أو بآخر ..

وقد أسفر ذلك كله عن نشأة صداقة بينه وبين عدد من الأتراك الذين كانوا يوالون الكتابة عن مثل هذه الأمور فى صحف تلك الأوقات مثل خالدة أديب وبكر سامى والحاج عادل وسعيد ملا — على الرغم من الميول الانجليزية لبعضهم — كما نشأت مثل هذه الصداقة بينه وبين عدد من كبار الصحفيين أنفسهم حتى أنه يقال أن بعضهم قد سهل قدومه الى الأناضول ليبدأ كفاحه ، كما أن أحد الصحفيين قد سهل له مقابلة السلطان وحيد الدين نفسه ، ثم عاد ونشر تفاصيل هذه المقابلة التاريخية التى حاول فيها — كما يقول — أن يقوى من عزائم السلطان وأن يثبت فى روحه

الجرأة والقوة .. وان كان هذا النشر نفسه قد لفت اليه أنظار عشرات من عيون الدول الأوربيـــة ، وجواسيسها الذين كانوا ينتشرون فى كل مكان ؛ فبدأ هؤلاء يحذرون سفراءهم من الرجل ، وأفكاره ، وشعبيته المتزايدة ، خاصة بعد أن ذهب الى « صامسون » وبدأ تفكيره الجـاد والعنيف أيضا فى موا جهة حالة الشلل العثمانى ..

يقول محمدة عزة دروزة : « وهكذا أخذ توجيـــه الزعيم ودعوته يظهر هنا وهناك ويتردد صداه داخلا وخارجا ، وقد كان الانجليز أسرع الناس الى الشعور بالحالة ، وبما قد تصل اليه من أطوار فسارع مندوبهم السامى الى تقديم مذكرة الى الباب العالى فى ٣١ نوار ١٩١٩ .. الخ »(٢).

على أن ذلك ــ بالطبع ــ لم يمنع من وجود صحف كثيرة تهاجمه وتلقى عليه بأكثر من اتهـــام فقيل عنه أنه مغرور .. متصلب ، ملسلط ، يهدف الى تحقيق أمجـاد شخصية فقط .. ذلك كله بالنســبة للصحافة التركية ، أما الصحف الأجنبية فحدث ولا حرج عن هجومها عليه ، ونعته بعشرات من النعوت التى يندى لها الجبين .. حتى أنه قبيل انتخابه رئيسا لحكومة المجلس الوطنى الكبير الأولى ، رأى أن ينبه أعضاءه الى ما ينشر أو يذاع أحيانا ضده ، من مقالات وفتاوى ولعنات ، وأهاب بهم عـــدم التأثر بذلك ، كما نفى نفيا باتا ما نسبته اليه الصحافة الغربية ، وبعض الصحف التركية من غرور وطموح شخصى يصـــل الى حـــد البحث عن الأمجاد دون النظر الى عواقبها ، وما يتصل بذلك كله من رئاسته للدولة وحلوله محل السلطان ، وهو ما كانت تشيعه تلك الصحف ..

ولكن السنوات التالية والتى شهدت الانتصارات العديدة للغازى، كما شهدت أيضا التحولات الضخمة والخطيرة فى تركيا .. أو تلك التى أدت الى تركيا الحديثة ومن بينها :

« هزيمة اليونان ودخول الترك أزمير ــ انتهاء حكم آل عثمان ــ

احتلال الآستانة ــ ازالة كل شيء يرمز الى النظام القديم فى تركيا ــ الغاء الامتيازت الأجنبية ــ الغاء الخلافة ــ علمانية الدولة ــ ترجمة القرآن الكريم الى التركية ــ ارتداء القبعة بدلا من الطربوش ــ خروج المرأة الى العمل ورفض الحجاب ــ ادخال الحروف اللاتينية فى الكتابة التركية ــ اقتباس القوانين الأوربية ــ الغاء الجمعيات الدينية والطرق الصوفية ــ اتخاذ أنقرة العاصمة ــ اقرار التاريخ الميلادى ــ الغاء الألقاب » .

هذه السنوات نفسها شهدت مجالات عديدة من مجالات الاحتكاك المباشر بين الرجل والصحافة وصحيح أن أكثرية الصحف ، بل غالبيتها العظمى ، لم تستطع الا أن توافق ، وأن تؤيد ، وأن تصفق أيضا ، وبحرارة شديدة .. بينما كانت أقلية منها ــ الصحف التركية ــ تعارض بصوت مبحوح ، لا يكاد يستمع اليه أحد ، وذلك وسط الأصوات الكثيرة جدا والمرتفعة للغاية ، التى بدت مؤيدة ، عن اقتناع أو عن خوف.. وأما هذه التى استطاعت أن تعارض بصوت عال فقد كانت قلة نادرة للغاية ، ولا تعد على أصابع اليد الواحدة .. وحتى هذه أيضا ، فان معارضتها لم تستمر طويلا .. بل انتهى بها الأمر ، الى أحد موقفين .. اما العودة الى الصفوف المؤيدة بحرارة ، حتى قيل أنها أصبحت « كمالية » أكثر من صحف الرجل نفسه ، واما أثرت هذه العزلة منها ، عن الجماهير العريضة المبهورة بقائدها ، المصفقة له وهو فى مواكب انتصاره ، ومن ثم كان عليها أن تواجه انصراف القراء عنها ، وأن تكافح من أجل وجودها وهو مالم تستطع أن تحققه ولا كان لها ذلك ، فقد كان أصحابها يعلمون أن السلطة من أمامهم ، وبحر الجماهير المؤيدة للغازى ، منقذ البلاد ، وتهاوى التوزيع من ورائهم ..

كانت هذه هى الصورة التى تابعت تلك الأحداث الكمالية ، أحداث اليقظة التركية كلها .. ولكن هذه الصورة نفسها والتى تشمل موقف

الرجل من الصحافة ، كانت لها عدة أبعاد أخرى وبعض التفاصيل التى لابد من الاشارة اليها .. ومن بينها هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر :

ـــ أن الذئب الأغبر قـــد قرأ ذات مرة فى احـــدى صحف المساء التركية مقالة لأحـــد الكتاب موقعة بالأحرف الأولى ، اشتم منها رائحة أجنبية خبيثة ـــ على حد تعبيره ـــ تأتى من الغرب .. أى من اليونان ، وتتهمه بجنون العظمة ، فما كان منه الا أن قام بجمـــع محرريها ، وطلب منهم أن يقفوا أمامه فى شكل طابور عسكرى ، ثم لقنهم درسا فى الأخلاق والوطنية وبعـــد ذلك طلب منهم الانصراف ، ليس الى مقـــر الصحيفة الذى كان جنوده قـــد داهمـــوه وصادروا جميع نساخها .. وانما الى بيوتهم .. وبالخطوة العسكرية أيضا .

ـــ أنه أمر بأن تتوقف جميع الصحف التى ســـبق لها وأن بايعت سلاطين آل عثمـــان وامتدحتهم وأظهـــرت غلوا فى هذه البيعة ، وذلك المديح ، وقام بنفسه باعـــداد قائمة بهذه الصحف ، وطلب من تلك التى تريد أن تعـــود الى الصـــدور أن تكتب طلبا جـــديدا بذلك ، وله هو شخصيا أن يوافق أو لا يوافق .. كما أنه كان يطالب الصحف العـــائدة باثبات ما يبرر عودتها ، من خلال موادها المختلفة .

ـــ وحتى قبل هذه الانتصارات العديدة التى حققها ، والتحولات الخطيرة التي شهدتها البلاد فى عهـــد زعامته .. فان « قانون الخيـــانة الوطنيـــة » الذى أصـــدره ، لم يسلم من عقوباته عـــدد من الصحفيين الاتراك ، هـــؤلاء الذين حكم عليهم بـ « حبس القلعـــــة » نظير بعض مقالاتهم التى وجد القضاة أنها تندرج تحت ما يسميه القانون « اسناد تهمة غير صحيحة » ..

ـــ وعندما قامت معارضـــة قـــوية داخـــل المجلس الوطنى الكبير للخطوات التى قام بها الرجل ، وعلى وجه الخصوص ما يتصل بالاسلام

وبالغاء الخلافة ، وتكونت هذه المعارضة من عدد من النواب الأقوياء ..
مما أدى الى ثورة الأكراد بقيادة الشيخ سعيد انتصارا للدين وحماية له
من الملاحدة وقام الغازى بقمعها ، فانه أسرع باصدار « قانون اقرار
الأمن والسكون » فى ١٤ مارس ١٩٢٥ .. والذى يخول حكومته أو من
ينوب عنها سلطة تعطيل ومصادرة أية صحيفة أو منشور أو مجلة
أو رسالة يكون من شأنها بث الهياج والتحريض على الارتداد
والعصيان ، أو أن يكون من بين مادتها « تحريضات وتحريكات على
اخلال أمن الدولة ونظامها الاجتماعى والسياسى » .. كما نص القانون
على المنع الادارى بتصديق رئيس الجمهورية ، وأمر كذلك باحالة
الناشرين الى محاكم الاستقلال .. كما أصدر عدة مواد الحقت بقانون
الخيانة الذى سبقت الاشارة اليه ، وكان من نتيجتها تقديم زعماء
المعارضة البرلمانية والصحفية الى المحاكمة ، وكان من نصيب بعضهم
الشنق بينما نجا زعيما المعارضة كاظم قرة بكر وعلى فؤاد بشق النفس ،
حيث عفا عنهما الغازى فى اللحظة الأخيرة .. تقديرا لما كان بينه وبينهما
من صداقة طويلة سابقة .

ـــ كذلك فنحن نقرأ فى قانون انشاء حزب الشعب ـــ المادة ٢٧ ـــ
« على الصحف والمجلات التى ينتمى أصحابها الى الحزب ، وعلى
الكتاب المنتسبين اليه والذين يكتبون فى صحف ومجلات عامة مراعاة
مبادىء الحزب وأهدافه فيما يكتبون وينشرون ، وتنظم اتصالات
واجتماعات بين صحفيى الحزب من محررين وأصحاب صحف لضمانة
السير فى هذه الخطة .. وعلى أعضاء الحزب الذين لهم صلات مالية
ونفوذ فى صحف ومجلات أخرى أن يهتموا لعدم نشر أى شىء مخالف
لنظام الحزب ومنهجه وخطوط سياسته الداخلية والخارجية .. الخ »(٤)

واذا كانت هذه المادة نفسها تعنى كثيرا ، فانها تضاف أيضا الى هذا الاهتمام البالغ من جانب الرجل بالصحافة .. على الرغم من ضحاياه من الصحف ، ومن الصحفيين .. ولكنهم ـ على أى حال ـ كانوا أقل عددا من ضحايا السلاطين ، وقصر يلدز .. والمابين .. وغيرهما من القلاع العثمانية . لقد كان الرجل يهاجم الصحافة ، وبشدة ، ولكنه كان على أى حال هجوما من النوع المفيد ، والعاقل ، فى أكثر الأحيان ، وباستثناء صورة قليلة جدا ، كان الهجوم يتحول فيها الى هجوم كاسح ، ممزق ، ومتجبر .

(١-٢) هـ.أ. ل فيشر : ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع : « تاريخ اوربا فى العصر الحديث » ص : ٢٨٠ - ٢٩١ .

(٣) محمد عزة دروزه « تركيا الحديثة » ص : ١٩ .

(٤) المصدر السابق ص : ١٩٣ .

فيصل الأول :

العهد الذهبي ..
لا يدوم طويلا ..:

فيصل الأول :

العهد الذهبى لا يدوم طويلا

على أثر سنوات طويلة من الرقابة المريرة التى كانت تقوم بها « المشروطية » .. وعلى أثر « رقباء » من قليلى الحيلة والفهم والتبصر .. لم يكن همهم واحدا فى اثر آخر ، غير التنافس على ايقاف الصحف ، وتعطيل المجلات ، والتنكيل بالصحفيين والكتاب ، واضطهادهم ونفيهم وتشريدهم .. حتى أضافوا بتصرفاتهم عددا من المواد الرهيبة ، فوق ما أضافه أو جاء به القانون العثمانى نفسه .. أى قانون عثمانى ..

وكذا .. على أثر مشاعر الخوف المستبدة بالولاة ، والسلاطين ، وتحولها الى أكثر من صورة تؤكد طبائع الاستبداد ، وتتحدث عن يد الخلفاء الطويلة ، وعيونهم المترصدة ..

على أثر ذلك كله ، وغيره من الصور السلطانية الشاهانية الخاقانية ،، كان ما كان من هزيمة تركيا « الرجل المريض » فى الحرب العالمية الأولى ، وتأكيد ضياع وانسلاخ أكثر أجزاء امبراطوريتها .. وقيام الغازى مصطفى كمال أتاتورك بانقلاباته الشهيرة .. وحيث حصلت سوريا على استقلالها ، بعد أن أنهت الحرب الاحتلال التركى لها ، بكل ما جاء به من خير وشر ..

تنفس السوريون الصعداء ــ الى حين ــ وخرجوا يعانقون شمس حياة جديدة تشرق على دمشق وحلب ، وغيرهما من المدن السورية ،

لأول مرة منذ عشرات السنين .. خاصة وأن السنوات الأخيرة كانت قد شهدت أكثر من لون من ألوان العسف ، وأكثر من صورة من صور التقييد ، تتمثل فى تلك السدود التى أقامتها الحرب ، وأحكامها العرفية ..

وكان من الطبيعى أن تتفق الآمال الشعبية العريضة ، مع ولاية « فيصل الأول » حكم البلاد على أثر انتهاء هذه الحرب ، وأن يعرف هذا بدوره — ولم يكن يعوزه الذكاء — أنه انما يمثل عهدا من عهود الانقاذ واليقظة ، والمضى فى سبل التطور .. وأحلام بناء دولة حديثة ، وتغيير الصورة فى البلاد السورية تغييرا كاملا .. قدر لهذا الرجل أن يقوم بذلك كله .. ومن هنا فقد شحذ عزمه تماما واستنهض همته .. وبدأ على الفور يستجيب فى فعالية كاملة للمشاعر الوطنية ، بل ويسبقها بأكثر من خطوة ..

وكان من الطبيعى ، ألا تتأخر الصحافة السورية عن ركب الاستقلال والبناء ، وأن يقوم الصحفيون السوريون بدورهم الجديد بهم ، بعد عشرات السنين من الكبت والصراخ المبحوح وقيود الرقابة ، وألاعيب الرقباء . ومن هنا ، فقد كان العهد الفيصلى يعنى أيضا عهدا صحفيا جديدا ، تقوم فيه الصحافة بدورها الهام والقيادى ، دون سدود أو قيود ، وبغير خوف أو قلق أو تردد ، أو تهديد لصحيفة أو لصحفى ..

ومن هنا ، وعلى حد تعبير نقيب الصحفيين السوريين الأسبق — نصوح بابيل — انطلقت الأحاسيس القومية المكبوتة .. لتفعل فعلها ، وكان العهد الفيصلى يعنى وبالاضافة الى ذلك كله بداية جديدة لظهور الصحف الوطنية ، التى انطلقت على صفحاتها الأقلام من عقالها ، لتكتب عن الاستقلال والحرية ، والاخاء ، والدين ، والقومية ، والنمو ، والتطور ، وآثار الحرب ، وذكريات العهد العثمانى وأمور الاسلام ، وغيرها ، وغيرها من أمور كانت تعرض الصحف للتعطيل والمصادرة ،

ولغضب الولاة وعسف الرقباء .. بل كان مجرد ذكر بعضها على صفحات جريدة أو مجلة ، يعنى مصادرة أعدادها وربما ما هو أكثر من ذلك ..

لكن الأهم من ذلك كله ، هو ذلك الموقف الجسور ، والذى بلغ اسمى درجات التعاطف والحدب من هذه الصحافة الوطنية المرحلية الهامة .. فان رجلا غير فيصل ، كان باستطاعته أن يتردد فى موقفه منها ، وان يؤجل تأييده الكامل لها الى حين تنجلى المواقف ، لا سيما وأن البلد نفسه واستقلاله الوليد يسران من عنق الزجاجة ، أو نقطة الخطر ، وان مداد وثيقة الاستقلال بل ووثيقة تعيينه ملكا ، لم يجف بعد .. وكانت اجراءات تأجيل مواقفه الشجاعة من الصحافة وكذا اجراءات تأجيل اعطائه الضوء الأخضر للصحفيين والكتاب وأرباب القلم ، لن تجد سوى كل مؤيد لها ومقدر لموقف الرجل ، ولطبيعة المرحلة الحرجة التى تجتازها البلاد ..

رفض الرجل موقف المتردد ، أو الخائف ، ورفض أن يصيب الصحفيين فى مشاعرهم ، أو أن يقوم بحركة « فرملة » لأحاسيسهم القومية التى طال عليها الرقاد ، والكبت ، وطال عليهم اجترارها .. بل انه رفض أن يستمع الى نصح عدد من أعوانه بتجميد أوضاع الصحافة السورية ، ريثما يتبين هو وتتبين البلاد طريقها .. وسط العواصف التى كانت تتجمع فى الأفق القريب ، لتهب عليها مرة واحدة ..

ولن يقدر موقف الرجل تماما ، الا من يعرف ماذا يعنى المزيد من اجترار الأفكار والآراء .. والا من يدرك أن الصحفى قد يقتل وهو حى يرزق ، ويسير ، وتمضى به الحياة فى دروبها الفسيحة .. ولكنه يكون ممنوعا من الكتابة ، محكوما عليه بدفن أفكاره ، ووأدها ، أو أن تظل حبيسة صدره ، لا تخرج منه الى النور ، والى حيث تؤثر ، وتغير وتصول وتتدفق .. تلك هى حياته الحقيقية .. وما عداها فهو والعدم سواء .

.. ومن هنا ، واستمرارا لهذا الموقف الوطنى ، الحكيم ، والشجاع أيضا فقد تعــددت صــور عناية الرجل بصحافة بلاده ، ومساعدتها فى النهوض من عثارها ، وفتح الباب أمامها على مصراعيه ، وكان من بينها هذه الصور كلها :

* أن الرجل قد قام بدعوة رؤساء تحرير الصحف أكثر من مرة ، حيث بالغ فى اكرامهم ، وشرح لهم خطته فى النهوض بالبــلاد ، واستمع اليهم طويلا بشأن المشكلات التى يواجهونها ، أو تواجههــا صحفهم ، وكان دائما يبذل جهده لكى تستمر مسيرة هذه الصحف ، ويحاول أن يذلل جميع العقبات التى تعترض هذه المسيرة ..

* أن الرجل قام بالغــاء الرقابة التى كانت موجودة فى البلاد منذ القوانين العثمانية الأولى ، كما قام كذلك بوقف العمــل ببعض اجراءات الرقابة الأخرى ، من تلك التى فرضت الحرب وجودها ، فعادت الصحف الى ممارسة حياتها الطبيعية ، فى مناخ صحى ، أحست به البلاد كلها ..

* ويقــال أنه من بين القــرارات الأولى التى اتخــذها الرجــل ـ فيصل الأول ـ فور عقــد الهــدنة ودخوله الى دمشق مع الجيش العربى ، ذلك القرار الذى يقضى بعــودة الصحفيين المنفيين الى خارج البلاد ، أو هؤلاء الذين هاجروا الى البلاد الأخرى ، وخاصة مصر طلبا للحــرية ، كما وجه دعوة خاصــة الى الصحفى الكبير محمد كرد على للعودة من الآستانة واعادة اصدار « المقتبس » التى كانت قد توقفت عن الصدور قبل جلاء القوات العثمانية عن القطر السورى .

* ويقال كذلك ـ وقد ذكره أكثر من مرجع تاريخى وصحفى ـ أن الرجل كان يقدم اعانات حكومية كثيرة وأحيانا من جيبه الخاص ، لمساعدة بعض الصحف على الصــدور ، كما كان يقــدم هذه الاعانات أيضا فى شكل كميات اضافية من الورق ، وتسهيل شراء آلات الطباعة .. وغير ذلك كله .

* وأكثر من ذلك ، فان رعاية الرجل لهذه الصحف امتدت أيضا الى الوزراء والمديرين ، فبالاضافة الى أن هؤلاء قد فتحوا أبواب أعمالهم لمندوبى الصحف ومحرريها ، عندما وجدوا أن الملك نفسه يفعل ذلك ، وعن طيب خاطر ، فان تعليمات الملك الى هؤلاء كانت تؤكد هذا الاتجاه ، اتجاه التعاون التام مع الصحافة ، بل انه كان يطلب من كبار الموظفين والقادة أن يجتمعوا وبصفة دورية بالمندوبين ورؤساء التحرير ، لاطلاعهم على أعمالهم ، والرد على جميع استفساراتهم ، أو تلك الخطابات التى كان يبعث بها القراء ..

كان هذا هو موقف الرجل من الصحافة ، والذى جعل الصحف كلها ، والصحفيين جميعهم يعترفون له بذلك ، ويؤيدونه تمام التأييد ، ويمضون معه على درب الكفاح حتى نهاية الشوط القصير الحافل بل جعل مؤرخ الصحافة السورية يقول عن هذا العهد الفيصلى نفسه : « ربما كان هذ العهد من أجل العهود وأخصبها للصحافة وللحركة الأدبية والعلمية فى دمشق لم تر مثله منذ مئات السنين » (١) .

مهما يكن من الأمر .. فقد مضت الأقلام تكتب ، والأخبار تحرر ، والمقالات تتوالى ، والصور تنشر وكلها تدعو الى دعم الاستقلال والبناء ، على صفحات عدد كبير من الصحف والمجلات الجديدة ، أو تلك التى عاد أصحابها الى اصدارها بعد سنوات المحنة ، والتى كانت ـ هذه وتلك ـ جديدة أو قديمة ـ تنحى منحى وطنيا تاما ..

ومن أجل ذلك كله ، وبالاضافة الى تلك الصور السابقة ، فقد جدت صور مشرقة على صحافة هذا العصر ، فارتفع شأن الصحفى السورى عن ذى قبل ، وأصبح الناس ينظرون اليه بمزيد من الاحترام والتقدير ، كأحد المساهمين فى ايجابية وفعالية فى مرحلة البناء ، وقد زاد من هذه النظرة وشجع عليها أن عددا كبيرا من زعماء هذه الفترة انضموا الى صفوف الصحافة ، كما أن عددا من الصحفيين أنفسهم

كانوا من بين هؤلاء .. حتى أنه يقال أن من الصعب أن تعثر على إسم واحد لامع أو نجم من نجوم الوطنية ، لم يعمل بالصحافة خلال هذه الفترة نفسها .. بل ان هذا الاحساس قد امتد أيضا الى الصحافة الاقليمية ، والصحفيين الاقليميين ، وليس الى صحافة العاصمة دمشق وحدها .. فنال هذه الصحافة ورجالها ، ما نال صحافة العاصمة من تأييد وتعضيد رسمى ..

وقد تأكدت هذه المعالم المشرقة والبارزة كلها بموجب القرار الملكى الفيصلى الذى وقعه الملك فى ٧ مايو ١٩٢٠ ، والذى أعاد تنظيم الصحافة السورية ، وأعطى لها مزيدا من الحرية حتى تتمكن من دعم اتجاهاتها الوطنية .. ومواصلة المسيرة . وقيادة الجماهير فى مواجهة خطة الانتداب الفرنسى ، ومحاولات دخول سوريا من الشباك ، بعد أن خرج العثمانيون من الباب ..

.. ذلك لأن الاستعمار الغربى كان يواصل التهام دول الامبراطورية العثمانية ، فى خطة موضوعة بحذق ومهارة ، دون أن تعوزه الأسباب لذلك ، وهو يمتلك العشرات منها .. وهكذا ، استيقظ الناس ذات يوم ليجدوا « غورو » المندوب السامى فى دمشق ــ القائد الفرنسى سابقا ــ وهو يوجه انذاره الكريه ، الاستعمارى ، المفضوح الى الملك ، ويطلب منه التوقف عن الهجوم على الانتداب وعدم تنفيذ أوامره .. الى جانب مطالب عديدة أخرى تبين سوء القصد ، والنية والطوية ..

وهنا ، كان لابد للصحافة السورية ، وقد تذوقت طعم الحرية ، وعاشت فى كنفها شهورا وأحست ــ ولو لفترة غير طويلة ــ بالمسافة البعيدة بين عهد وعهد ، ودولة ودولة ، ورجل ورجل .. كان لابد لها من أن تتصدى لهذا الانذار ، وان اختلفت فى درجة تصديها له ، من حيث القوة والحرارة ، واختيار بعضها طريق الدفاع والمقاومة .. وحتى

آخر رجـــل سورى ، واختيـــار بعضها الآخــر طريق الحل السلمى ، وتأرجح البعض الثالث بين الاتجاهين .. ولكنها ـ جميعا ـ اتفقت على المقاومة وان اختلفت فى وسائلها ..

ولكن ، على الجانب المقـــابل كان هنـــاك من لم ينتظر ، ولا ينتظر أيضا ، فلتكتب الصحف مقالاتها الضافية ، متفقة على الهدف ، مختلفة على وسائل تحقيقه ، ولتمض الجيوش زاحفة على دمشق .. حيث نشبت معركة ميسلون فى ٢٤ يوليو ١٩٢٠ ، تلك التى سقط فيها من سقط ، واستشهد من استشهد من قادة الكفاح العربى السورى العظيم .. وعلى أجسادهم عبرت جنـــود فرنسا ، لتـــدخل البلد الذى لم يحظ بمذاق الحرية ، لا هو ، ولا أبناؤه ولا صحافته ، غير أشهر قليلة ..

لقد احتل الفرنسيون دمشـــق فى ٢٥ يوليو ١٩٢٠ ، وباحتلالهم لها سقطت البلاد السورية ، وانتهى عهـــد الحكومة العـــربية الاستقلالية ، عهد فيصل ، صـــديق الصحافة الآخر ، وبدأ عهـــد الاحتلال .. لتعود « ريمة » الى عادتها القديمة .. بعد أن قضى على عهد الصحافة الذهبى القصير جداً .

أقصد ، لتنطفىء جميع المصـــابيح .. ومن بينها ، والى أجـــل غير معلوم .. مصباح الصحافة ويالها من قصة .

---

(١) شمس الدين الرفاعى : « تاريخ الصحافة السورية » جـ ٢ ، ص : ١٢ .

ادولف هتلر :

العصابة التى تفبرك الرأى العام ..!

أدولف هتلر :

العصابة التى تفبرك الرأى العـــــام

جانب كبير ، وكبير جــدا من نشــاط هذا الرجل ، وأفكاره راح يوجهه من أجل الدعاية .

ويقولون أن دعايته لنظامه كانت تقــوم على معــرفة واسعة بتلك الأسس والقــواعد التى تستند اليها الدعاية العلمية ذاتها .. وأن وزير دعايته القــدير ــ جوبلز ــ قد ساهم الى حــد كبير فى وضع أسسها وقواعدها الحديثة .. ولابد أن نعترف له بذلك ، رغم الاحبــاط الذى منيت به دعايته .. ورغم الفشل والهزيمة أيضا ..

ولكن .. على الرغم من أن الصورة الشهيرة لهذه الدعاية نفسها ، والمنتشرة فى أذهان الجماهير .. والتى ما يزال البعض يذكرها ، ويذكر قوتهــا وعنفوانها وأساليب جذبهــا وجاذبيتها .. هى صــورة الدعاية بالراديو .. أو الدعاية الاذاعية ، تلك التى تقفز فوق الحدود والمسافات ، وتقتحم الأبواب المغلقــة ، والشبابيك أيضــا ، مغلفة بأوراق السلوفان المتمثلة فى الموسيقى الحربية ، والمارشات العسكرية .. والأصوات القوية لعدد كبير من أفضل المذيعين ، وبأكثر اللغات الحية ..

على الرغــم من ذلك كله ، فان « الفوهرر » كان يعــرف للدعاية باستخدام الكلمة المطبــوعة ، قدرها الكامل ، ويحرص على أن تقــوم صحافته بالدور الدعائي السياسي حرصا كاملا ..

ذلك هو المصور النمسوى « أدولف هتلر » الذى تجسدت فى شخصه النهاية التعسة لألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى ، ومحاولات تمزيق الجسد الألمانى الجريح ومشاعر الاحتلال التأديبى لأرضها ، وصرخات السلخ والاقتطاع والكبح ومرابطة جنود السنغال السود بوادى الروهر .. وغيرها من الاهانات التى لم يغتفرها الألمان بسهولة وحتى النداءات العديدة التى ترددت فى المحافل والبرلمانات الأوربية مكررة قول بوانكاريه : لابد لألمانيا من أن تداس بالأرجل .

وسط هذا المناخ كله ، وبينما مشاعر الغضب والكراهية فى عنفوانها يرتفع هذا الصوت الجديد لينادى : « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها .. ان ألمانيا لم تهزم قط لأن ذلك يعد ضربا من المحال .. لقد غدر بها أيضا من الداخل اذ خانها بوجه خاص رعاياها من اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية .. فلابد لها من العودة الى نقائها العنصرى .. الى حياة المحارب العنيفة » (١) ..

وبسرعة .. انتشر هذا النداء كما النار فى الهشيم .. وترددت أصداؤه فى أكثر من مدينة ألمانية تنام على الجراح وتجتر آلامها .. حيث التفتت اليه مجموعات كبيرة من الشباب الألمانى اليائس تماما فاجتمع هؤلاء على هذا النداء ، وأخذت أعدادهم فى التزايد .. حتى قام عليها فى النهاية حزب سياسى عسكرى كبير هو « الحزب القومى الاشتراكى الألمانى » المعروف بالحزب النازى الألمانى .. ذلك الذى جاء بصاحب النداء نفسه ودفع به الى مقدمة الصفوف حتى عين مستشارا لألمانيا عام ١٩٣٢ .. وحيث بدأ فى اتخاذ قراراته وتدابيره النازية الصارمة ..

فى هذا النظام تكون الدولة ليست أكثر من مظهر قانونى ، بينما النظام نفسه يرتكز الى مجموعة من الفروع أو « الشعب » — بتشديد الشين وضمها — تلك التى تتبع أعمالها وتراعى هى فيما تصدر من أعمال ، وفى مختلف وجوه أنشطتها أن تكون معبرة عن الاتجاهات

الرئيسية لسياسة الحزب ولأفكار وآراء الرئيس — الفوهرر — بمعاونة عــدد من الأشخاص الذين يثق فيهم هذا الأخير كل الثقــة .. فيوليهم جميع السلطات الحــزبية .. ومن هنا وكما يقول فرنان ترو « فلا محل فى هذا المفهوم لحقوق أساسية للفــرد الذى أصبح عنصرا من عناصر المجموعة الخاضعة بهذه الصفــة الى النظام الذى أقامه الرئيس حسب مفهوم للخير المشترك يحــدده على هواه .. فالصحافة وبوجه عام كل تقنيــات الاعــلام ، ما هى الا مجرد أداة فى خــدمة الخــير المشترك ، وبالتالى الرئيس الذى يجسده » (٢) .. وحيث تتداخل هذه الفكرة مع ما ذكره تشاخونين فى كتابه الشهير : اغتصــاب الجمــاهير بالدعــاية السياسية .. حيث يقول : « هتلر هو القوة .. القوة الوحيدة الحقيقية .. وما دام جميع الناس معه ، فينبغى أن أكون أنا أيضا .. آنا رجل الشارع معه ان كنت أرغب فى الحيــاة » (٣) .. رغم ما فى ذلك من مضمــون تهديدى حقيقى ينبع من « الرعب الهتلرى » .

ومن أجــل ذلك كله ، وحتى يمكن أن تســود الأفــكار الهتلرية أو النــازية ، وكما يقــول د . محمــد عبد القادر حاتم : « استخدمت الدعاية الهتلرية النبأ بطريقة منهجية كوسيلة لتوجيه الأفكار ، فالأخبار الهامة لا تنشر قط على حالها وانما كانت لا تظهر الا وهى محملة بدلالة معينــة ومعبأة بشحنة دعائيــة .. كان التغليظ هو الشــغل الشــاغل للداعية الهتلرى » (٤) ..

ولم يكن هذا المفهوم وليد أحداث الحرب العالمية نفسها ، أو قبلها بعدة شهور أو بسنوات قليلة .. فالواقع أن التفاتة الرجل الى الصحافة ، وتنبهه لأهميتها ومن ثم أهميــة العمــل على أن تكون سلاحا فى ترسانة أسلحته الدعائية .. بل وسلاح هــام مثل الاذاعة والخطابة هى فكرة قديمة تعــود الى أوائل الثلاثينات ، وحيث بدأت وزاراته المختلفة فى اخضاعها منــذ عامى ١٩٣١ — ١٩٣٢ ، بل انها عمــدت عام ١٩٣٣ الى

الغــاء الصحافتين الشيوعية والاشتراكية الغاءا تاما ، ضمن ما ألغته من أجهــزة المعارضة ، كما عادت الى تقييد وسائل الاعــلام عامة ، فى شبه نظــام متتابع وصــارم دعمته باصدارها ــ وبموافقة هتلر شخصيا ــ لقــانون ٤ أكتوبر ــ تشرين الأول ١٩٣٣ .. ذلك الذى أكــد طاعــة الصحــافة التامة للسلطة .. أو بما أطلق عليه بعــد ذلك « الاسترقاق الشامل للصحافة » .. حتى أننا خــلال هذا النظام نفســه نرى ونقــرأ ونسمع العجب العجاب عن صحافة الرجــل الذى بدأ نشاطه وهو على حــد تعبير رســالة دكتوراة عن الصحــافة الألمــانية ــ عبد الرحمن المشهدانى ــ يرتعد خوفا من ذكر اسم صحيفة واحــدة ، أو من مقالة لصحفى .. ومن هنا فقد شهدنا جميع هذه الصور والتصرفات الهتلرية الحديدية فى مواجهة الصحافة :

* فصحافة هتلر تريد التعبــير بجميع الوسائل الممكنة عن عظمــة الرايخ ، وتربط بين تطــور الشعب الألمــانى وســعادته ، وبين الأفكار والآراء الخاصــة بالحزب القــومى الاشتراكى ، وتلجأ فى سبيل تأكيد هذه الأفكار والمبــادىء وتأييــدها الى مختلف الحجج والتفســيرات والتأويلات والتحليلات التى تخــدم مصالحهــا .. ومن هنا فقــد كثر ارتباطها بالرموز والشعارات والأقــوال الهتلرية والنــازية مثل السيادة الألمانية ، والسوبرمان ، والصليب المعقوف ، والمجال الحيوى وغيرها .

* ويقول ب . دينوابيه فى كتابه عن الصحــافة فى العــالم ، وهو يرسم احدى صور هذه الوسائل الهتلرية : « ادعى النظام الهتلرى أن الصحيفة يجب ألا تكون سلعة ، بل عنصرا من عناصر الثقافة الشعبية ، وألغى بوسائله الملتوية الصحافة المعارضة كلها .. ولم يكن فى الاستطاعة ادارة صحيفة الا بواسطة مديرين وصحفيين معتمدين ومطهرين يمتثلون لتعليمات حزب النازى ، فاختفت جميع الصحف الصغيرة فى العاصــمة

والأقاليم ، وكانت تنبض بالحياة ، وتميزت جميع الصحف التى عاشت بعد ذلك برضى وزارة الدعاية ، بلهجة ووجهات نظر موحدة » (٥) .

* كذلك فان هذه الصحافة نفسها وعلى طريق تحقيقها للأهداف المرسومة لها بدقة .. نجدها بعد لجوئها الى مختلف الحجج والتفسيرات والتأويلات والتحليلات .. تعود فتلجأ الى أساليب أخرى من تلك التى تعتبر ممعنة فى بعدها عن الحقيقة ، فهتلر بعد أن توصل الى السيطرة عليها يبدأ عن طريق المديرين المعتمدين فى تلوين الأخبار ، وتحريفها وتشويهها أيضا ، بل ان هؤلاء أقدموا فى مرات تجل عن الحصر على اختلاق بعض الأخبار اختلاقا تاما و « فبركة » العديد منها .. بل استند هتلر فى دعايته عامة ، ودعايته الاذاعية والصحفية خاصة على الكثير من الأخبار الكاذبة كوسيلة من وسائل الاقناع حينا ، والتهديد فى حين آخر .. والاثارة فى أحيان كثيرة .. وما تزال روايات صحافته عن مخازن الأسلحة الكبرى والأسلحة الوهمية والمجهولة ، ماثلة فى أذهان الكثيرين .. كل ذلك رغم أن الرجل نفسه يعتبر عالما فى سيكلوجية الأكاذيب ، واعيا بكل أبعاد نتائجها بدليل قوله : « ان أكثر الأكاذيب افتراء تترك دائما أثرها حتى حينما يظهر أنها ليست من الواقع فى شىء » ..

* وقد كتب هتلر يقول مبررا فرض الرقابة « الحديدية » على الصحف .. « أليس من واجب الدولة أن تراقب الصحافة نظرا لتأثيرها القوى على الجمهور ؟ ان حرية الصحافة شىء جميل ، ولكن هذه الحرية تصبح عاملا من عوامل الفساد اذا لم تمارس فى الحدود التى ترسمها مصلحة الدولة والأمة .. ان الموقف المخزى الذى وقفته الصحافة قبل الحرب لا يمكننا نسيانه ، وقد شددت الصحافة اليسارية على وجوب انقاذ السلام بأى ثمن بينما كانت الدول المعادية جادة فى اعداد عدة الحرب .. ألم تبشر صحافتنا بالديمقراطية الغربية وتمجدها وتطالب

بتقوية شخصية الفــرد وتبشر باضعاف الدولة ؟ ألم تســهم فى محاربة تقاليد شعبنا العــريق مزينة له الانغماس فى الملذات التى أتلفت مناعته الخلقيه ؟ ألم تحارب مشروع التجنيد الاجبارى ، وتحرض النواب على عــدم منح الاعتمــادات للجيش ، بينما كانت رائحــة الحــرب تنتشر فى الأجواء ؟ » (٦) .

✻ واذا كان ذلك مما يبرر — من وجهــة نظــره — فــرض مثل هذه الرقابة ، كما يفسر أيضا الاجــراء الذى لجأ اليه فى سنوات حكمه الاولى من ايقاف اصدار الصحف الشيوعية والاشتراكية تمهيدا لاصدار الصحف التى تعبر عن أفكاره وآرائه .. فانه ذلك مما يضــاف الى تلك الاراء الســابقة له ، والتى ترى أن الدعاية الألمــانية ومنها الصحفية ، كانت سببا من أسباب هزيمة ألمانيا فى الحرب العالميــة الأولى . وحيث بدا ذلك فى قوله على سبيل المثال لا الحصر :

« لقد ركزت الصحافة الألمانية والنمسوية على السخرية من العدو واظهاره بمظهر الجبان ولكن هذه الدعاية كانت تعطى نتائج معكوسة .. لأن قراء هذه الصحف كانوا يجدون فى ساحات القتال جنودا شجعانا وأقوياء ينتشرون فى صفوف الأعــداء ، لذلك فبدلا من تقــوية روح المقاومه فى الجنــود ، أضعفت من روحهم المعنوية ، ورفعت من حــدة سخطهم ، بعكس دعاية الانجليز ، تلك التى كانت تبدو وكأنها معقولة ، وغير متطرفة ، بل وبارعة أيضا ، فقد كانت تصور الألمان كالمتوحشين ، وقبائل الهون البرابرة .. ومن هنا فقد كانت تدعو الجنــدى الانجليزى الى اليقظة والثبات ، وعندما كان يلاحظ شدة قتال الجنود الألمــان ، كان يتأكد من أن الدعــــاية التى زودته بها حكومته لم تكن مضللة ، فيقتنع بأن الألمان من المتوحشين قولا وفعلا » (٧) .

✻ كذلك فقد حفلت كتاباته العــديدة الأخــرى ، بما يفسر كل اجراء نادى به الرجل ، أو اتجه الى تنفيذه على المجال الصحفى .. ولعل

أشهر هذه الكتابات ما جاء منها فى كتابه « كفاحى » .. وحيث نقرأ له على سبيل المثال لا الحصر : (٨)

ـ « ان الصحافة هى التى تتولى تنشئة الجمهور سياسيا ، بما تنشره من أخبار وتبث من آراء وليس للدولة يد فى توجيه الدعاوة الصحفية ، هذه المدرسة يتلقى فيها الجمهور دروسه اليومية ، فالصحافة هى فى قبضة قوى يواجهها الشؤم » .

ـ « لقد أتيح لى وأنا فى فيينا أن أخالط صانعى الآراء وناشريها ، فأدهشتنى السهولة التى يستطيع بها هؤلاء أن يخلقوا تيارا معينا وأن يوجهوا الجمهور وجهة تتعارض فى بعض الأحيان مع مصلحة الجماعة » .

ـ « فى بضعة أيام يمكن للصحف أن تجعل من حادث تافه بحد ذاته قضية خطيرة تهز الدولة ويمكنها كذلك أن تسدل ستار النسيان على القضايا الحيوية فلا يلبث الجمهور أن ينساها » .

ـ « اذا كانت سمعة أحدهم قد لوثت فى الماضى فالدعاوة الصحفية لا تلقى صعوبة فى دفن الماضى .. أما اذا كان المقصود محاربة رجل شريف ، فان اليهود بسفالتهم المعهودة لا يتورعون عن رميه بكل نقيصة ، جاعلين من الصحافة التى يوجهون منبرا للتحامل على الرجل .. حتى أنهم يذهبون الى حد انتقاد حياته الخاصة ونشر فضائح أفراد عائلته اذا كان ثمة فضائح .. اما اذا لم يوفقوا الى شىء يخدم أغراضهم سواء فى حياته العامة وحياته الخاصة ، فانهم يلجأون الى الافتراء ويواصلون الحملة مسخرين فى ذلك عشرات الصحف ، على أمل أن يعلق شىء فى أذهان الناس مما يفترون به على الضحية » .

ـ « تلك هى العصابة التى تفبرك الرأى العام وتوجهه .. ومن هذا الرأى ينبثق البرلمانيون كما انبثقت فينوس من زبد الأمواج » .

.. ألا تجعـل هذه الأقـوال وغيرها ، الباحث فى مجال الصحـافة والدعاية أيضا ، يقع فى حيرة كبيرة ؟ فهو يحمل على الصحافة الشيوعية ، واليهودية حملته الشعواء ، ولكنه فى مجال التطبيق وعلى أعمدة الصحف النازية ، يقوم باتبـاع نفس أساليب هذه الصحف ، من كذب وتهويل ورياء وتملق واختلاق .. وغيرها مما يشكو هو نفسه منها ..

على أن ذلك كله لم يمنع من أن يكون له مع الصحافة ، وتكون لها معه العديد من القصص الطريفة ، تستوى فى ذلك الصحافة الألمـانية والعالمية .. نقـدم هنا ـ فى النهـاية ـ بعض صورها .. على أثر هذه الرحلة مع دعايته السياسية الصحفية الحديدية ..

ـــ فلقد أثبتت التحقيقـات التى أجـريت فى الولايات المتحـدة الأمريكية وأشرف على اجرائها الكونجرس نفسه ، أن عـددا كبيرا من الصحف الأمريكية قامت بكتابة مقالاتها الافتتـاحية ، قبل أن تدخـل بلادها الحـرب العالميـة الثانية ، بوحى من هتلر نفســه ، وعن طريق مستشاريه ، وذلك مقابل مبالغ معينة من الأموال ، كان يقدمها لأصحابها ورؤساء تحريرها ، وكتاب هذه المقالات .. كما أثبتت هذه التحقيقات ايضا أن بعض الصحف الأمريكية لعبت أثناء هذه الحرب دور الجاسوس للجانب الألمانى نفسه لقاء مبالغ كبيرة من الأموال .

ـــ ويقال ان أكثر ما كان يضايق هتلر فى هذه الصحف الأمريكية ـ باستثناء الجاسوسة ـ أنه هو شخصيا وأن أعـوانه ورجال حـزبه ومحلليه واخصائيى دعايته كانوا لا يعرفون كيف يحصلون على المعلومات الهـامة من سطورها ، كما كانوا يريدون ذلك ، ويفعلونه مع الصحف الفرنسية مثلا .. والسبب فى ذلك أن محررى هذه الصحف قد ضربوا المثل فى اليقظة التامة وكانوا خير كاتم لأسرار جيوش بلادهم .. بل ان الدعاية الأمريكية فى بعض الأحيـان عمـدت الى نشر بعض الأخبـار

الكاذبة ، وكان هتلر وأعوانه يقبلون الطعم الصحفى الأمريكى ، بل وتنطلى عليهم الحيلة ، ويتصرفون بما يؤكد ذلك .

ــ وفى احصاء طريف لصحيفة انجليزية وردت هذه الأرقام كلها : خطب هتلر منذ عام ١٩٣٠ حتى قيام الحرب العالمية الثانية عدد ٦١٦ خطبة ، وخطب أثناء الحرب ١٢٧ خطبة وتحدث فى برامج الاذاعة قبل الحرب ٢٣٦ مرة وأثناءها ١٣٩ مرة وكتبت الصحف الانجليزية عن قصة غرامه الشهيرة ١٠٥٧ مادة صحفية من بينها ٧٢٠ خبرا و ١٣٠ مقالة والباقى تحقيقات صحفية ، كما نشرت له الصحافة الانجليزية خلال فترة الحرب عدد ٢١١٤٩ صورة مختلفة ، وبعد الحرب تحدثت هذه الصحافة عن مصير هتلر وقصة اختفائه أو انتحاره بنشرها ٣٤٠١ مادة صحفية أغلبها من نوع الأخبار الصغيرة ، والتحقيقات الصحفية ، كما حرصت ١٢٢ صحيفة ومجلة انجليزية على نشر كتابه الأشهر « كفاحى » على حلقات يومية أو أسبوعية .

ــ ويذكر محسن محمد فى كتابه ــ حكايات صحفية ــ أن الصحفى الانجليزى الكبير « لورد ويذر مير » كتب مقالا فى أوائل عام ١٩٣٩ قال فيه « ان هتلر جنتلمان عظيم ، وحرصت معظم الصحف الانجليزية فى ذلك الوقت على أن تكرر هذا اللقب ، وتصف هتلر بأنه رجل وديع ومسالم ، وذلك لأن الشركات هددت الصحف بمنع الاعلانات عنها اذا ذكرت أن الحرب قريبة الوقوع !!

---

(١) هـ.ج. ويلز . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد « موجز تاريخ العالم » .
(٢) فرنان ترور ترجمة محمود الغندور : « الاعلام » ص : ٥٧ .
(٣) محمد عبد القادر حاتم : « الرأى العام » ص : ٢١٥ .
(٤) المصدر السابق ص : ٢١٦ .
(٥) ب . دينوايبيه ، ترجمة عبد العاطى جلال : « الصحافة فى العالم » ص : ١٧٢ .
(٦) محمد عبد القادر حاتم : « الرأى العام » ص : ٢٣٠ .
(٧) المصدر السابق ، ص : ٢٢٧ .
(٨) ادولف هتلر « كفاحى » ص : ٣٧ ــ ٣٨ .

موسوليني :

الدوتشي صحفيا .. !

موســـوليني :

الدوتشي صحفيا

لا يذكر « الفوهرر » فى الأذهان الا ويذكر « الدوتشى » أيضا ..

ذلك لأنهما ــ هتلر وموسوليني ــ قد تماثلا فى أشياء كثيرة جدا .. كان من بينها الظهــور وسط ركام الحــرب ، وعلى أثر الآلام العديدة التى خلفتها لوطنيهما ، والوطن نفسه يجتر هذه الآلام ، وكذا وسط مشاعر الضياع والقلق والآثار المدمرة الأخرى .. بالاضافة الى نظرات التشفى ، وصرخات اليتامى ، وأنين الثكلى ،، وصور الدمار ، والتحطيم الاقتصادى ، وتغيير الخرائط .. وما الى ذلك كله ..

فى هذه الأوقات يثور الشعور الوطنى ، على الرغــم من تمزقه ، ويصبح مستعدا لأن يستمع الى أية كلمة تقال ، لا سيما عندما تداعب آمال الشباب وأحلامهم ، فى يقظة قــوية ، تنهض بالوطن من عثاره ، وتعود به ــ مرة أخــرى ــ الى الحلبة وتبحث له من جديد عن مكان تحت الشمس ..

ومن هنــا ، فقـــد راحا يتماثلان كذلك ، فى الضرب على الوتر الحساس ، وتر العزة القومية وفى استغلال طبقة الشباب المتمرد ، ودمه الحار المتدفق ، والمستعد تماما لأن ينقــل هذه الحــرارة ، الى شرايين الآخرين ، والوطن كله ، فراحا يتحدثان اليه بالخطب النارية والشعارات

الطنانة ، وباستخدام لأقصى ما يمكن استخدامه من طاقات وجهود وسائل الاعلام ..

وتقول التعليقات الصحفية العديدة التى تناولتهما معا ــ هتلر وموسولينى ــ أنهما اكتشفا ذلك التماثل بين أفكارهما ، والى حد الاتفاق الكامل أحيانا ، دون أن يكون أحدهما قد عرف الآخر أو التقى به مرة واحدة ، وقبل أن تتم هذه المعرفة بسنوات عديدة ، أو يتم اللقاء بينهما .

انهما من نتاج الأحداث المريرة ، وصناعة ركام الحرب ، وميراثها البغيض .. رغم كل ما راجا يقدمانه من أحلام الوطنية المتعصبة ، وصرعات الديكتاتورية العسكرية ..

ومن الغريب أن يكون « موسولينى » .. القائد الايطالى الشهير ، وزعيم الحزب الفاشستى والرجل الذى لوى بشدة عنق العالم كله أكثر من مرة ، وأجبر الصحفيين والاذاعيين والأضواء كلها على أن تتجه اليه ، تتابعه فى حماسه ، وهو يخطب ، وهو يردد الأناشيد الحماسية وخلفه مئات الألوف ، وهو يوزع شارات الحزب على هؤلاء ، وهو يقود دراجته البخارية وسط شوارع روما ويذهب بها الى مقر قيادته ، وهو يكاد يسرق الأضواء حتى من هتلر نفسه .. من الغريب أن يكون هذا الرجل هو نفسه ذلك الصحفى الشاب الخجول ، الذى لا يكاد يحس بمجيئه أحد ، أو بذهابه أحد ، ولا كم قضى من الوقت داخل حجرة مكتبه ، أو عند رئيس التحرير .. كل ذلك ، بينما كانت مقالاته النارية تتحدث بغير طبيعته تماما ، لا سيما عندما يقوم بحملاته المقالية على الرأسماليين الايطاليين الكبار ، وعلى أصحاب المصانع العديدة ، ويلقى على رؤوسهم بالعديد من التهم ، ويفند مزاعمهم ، ويرد على رسائلهم بالحماس نفسه .. حتى أن رئيس تحريره طلب منه التريث والهدوء أكثر من مرة ، وقال له متسائلا : لماذا يبدو للقراء دائما ،

أنك تخطب فيهم وأنت تكتب ؟ وقال له مرة أخرى .. لا تنس أنك صحفي .. ولست أحد القساوسة ..

ومن أجل هذه المقالات الخطابية أو الخطب المقالية والتى كان يبدو أنها طابع صحافة الزعماء فى هذا الوقت .. أخذ الرجل المحرر الهادىء الطبع الثائر الكلمات ينتقل من صحيفة صغيرة الى صحيفة أخرى .. ولكنه عندما انتقل الى تحرير الصحيفة الاشتراكية « الأفانتى »(١) تبدل حاله كثيرا .. أو بتعبير أكثر دقة ، استطاع جانب الثورة العلنية فيه أن يتغلب على جانب الهدوء أو الثورة المكبوته .. فأصبح ظاهره مثل باطنه .. فهو ثائر فى دهاليز الصحيفة وأروقتها ، ثائر على زملائه من المحررين ، بل وعلى رئيس التحرير نفسه ، ثائر على القراء أيضا .. حتى أصبحت ثورته وجرأته وحماسه .. حديث المجتمع الايطالى .. بل والمجتمعات العادية والأندية والصالونات

ولكن ، وكما توقعت بعض الزعامات الايطالية الأخرى .. فقد انتقل الرجل — الصحفى — من الكتابة فى مجالات السياسة الداخلية ، والهجوم على الرأسمالية الايطالية ، الى مجالات السياسة الخارجية مهاجما الدول الرأسمالية نفسها ، ولكنه اختلف مع معظم زملائه من المحررين اليساريين وكان الاختلاف حول مسائل عديدة فى مقدمتها الوسائل المتبعة نفسها فى التعامل مع أعداء البلاد .. ثم امتد هذا الخلاف لينتقل الى مسألة انضمام ايطاليا فى الحرب الى صف الحلفاء ..

ولأنه كان فى ذلك الوقت قد وصل الى منصب رئيس تحرير الصحيفة الايطالية الاشتراكية « الأفانتى » فقد رأى أن من الأكرم له ، والتعارض يزداد بينه وبين زملائه والعاملين معه ، أن يستقيل من هذا المنصب ويحاول بنفسه أن يصدر صحيفة خاصة به يمكن عن طريقها

أن ينقــل آراءه الى الايطاليين فى كل مكان .. وأن تصــل اليهم هذه الآراء دون معارضة من أصحاب الصحيفة ، أو الزملاء .

.. وفعلا تمكن الرجل من اصــدار هذه الصحيفة التى أطلق عليها اســم « الشعب » (٢) .. بعد شهور قليلة من تركه العمــل فى الصحيفة الأولى ..

على أن التحول الأكبر ، والأكثر خطورة فى حيــاة الرجل ، والذى انتقل به من مجال الكتابة الصحفية الثائرة .. الى مجال الثورة نفسها ، فى المصــانع والحقــول والشوارع والأندية هو ما حــدث فى أوائل العشرينات .. وحيث بدأ الرجل يحس بنفس مشاعر الخوف والقلق على البلاد ، والتى أحس بها هتلر بعد ذلك بقليل ، خاصة فى ظل اضطراب داخلى كبير ، ودمار حضارى ومعنوى أكبر ، وحكومة ضعيفة مترددة .. ومواطن محروم ، يعانى ضائقة اقتصــادية كبرى ، وخوف من انقلاب شيوعى يجتاح البــلاد .. خلال ذلك كله .. بدا للرجل أن يستثمر عددا من العناصر الشابة المتمردة على الأوضــاع ، والمحــرومة أيضا والتى يعانى أهلها من البؤس والاقلال ، وتعانى هى من الاحباط النفسى الكبير الذى خلفته الحــرب من ورائهــا .. ومن هنا فقــد بدأ يجتذب اليه هؤلاء ، وهو يوزع الشعارات هنا وهناك ، ولا يترك جمعا من الجموع أو فرصــة من الفرص دون استغلالها .. وقد أسفر ذلك كله عن تأليف حركة قومية يرتدى أصحابها القمصــان السود ، وينتظمون داخل اطار الحزب الفاشستى .. هؤلاء الذين راحوا يهاجمون الحكومة وضعفهــا وترددها فى غير هواده .. والذين آمنوا بزعامة الرجل مطلق الايمان .. ليزحف هو ــ الدوتشى ومعناها القــائد ــ وخلفــه الآلاف منهم الى روما ، فى أكتوبر ١٩٢٢ ، حتى أصبح قائدها الوحيد .. بدون منازع .. تماما كما فعل يوليوس قيصر قبله بحوالى العشرين قرنا وبعد أن تخلص من القادة العسكريين المنافسين .. على النحو الذى ذكر من قبل .

وفى روما ، وكما هو شأن الداعية الماهر ، والذى يستند الى أساس غير قليل من الخبرة الصحفية ، ويوزع اهتماماته على وسائل الاعلام .. بدأ الرجل يجتذب اليه مزيدا من الشباب ورجل الشارع الايطالى بواسطة لفت الأنظار اليه فى كل مكان ، والى بعض « الفرقعات » الاعلامية والدعائية التى كانت تلهب خيال هؤلاء ، وتعدهم باستعادة المجد والرفاهية ، فمضى يسير من نجاح الى نجاح وقامت بتأييده أكثر طبقات وشرائح المجتمع الايطالى ، حتى كبار الرأسماليين ورجال الصناعة ، وذلك فى مواجهة « الثوريين الحمر » .. بينما راحت شعاراته العديدة تغطى الآفاق وتعمل عمل السحر فى عقول الايطاليين عامة والشباب خاصة ، ولا سيما تلك التى تقول : « كل ايطالى فاشستى — ايطاليا للأقوياء — المجد لايطاليا — يعيش الحزب الفاشستى » .

وقبل أن نواصل الحديث عن موقف الرجل من الصحافة ، نترك د . محمد عبد القادر حاتم يحدثنا عن بعض أساليب دعايته حيث يقول :

« كان موسولينى يعمل على تهيئة أفراد الشعب جميعه عندما يريد أن يخطب فى الجماهير ، وكانت وسيلته الى ذلك أن يحشد الاجتماعات بالشباب الحزبى الفاشستى الذى يقوم بالقاء الأناشيد المختلفة ثم يلقى الخطباء الخطب الرنانة وأخيرا يحضر موسولينى الاجتماع بعد أن يكون أفراد الشعب جميعهم قد تهيأوا للاستماع الى هذه الخطب .. كما كان موسولينى يحب دائما أن يعلن بنفسه أى خبر هام فى الحشود الجماهيرية وتنقله الاذاعة عن موسولينى رأسا ، فمثلا أعلن عن اجتماع ضخم فى روما سيحضره موسولينى وبدأ الاجتماع بالأناشيد من الشباب والخطب من الخطباء وكانت الموسيقى تعزف الأناشيد الحماسية وأخيرا جاء الدوتشى راكبا موتوسيكلا بسرعة فائقة ، وكان الدوتشى يقود الموتوسيكل بنفسه رافعا يده باشارة الفاشستية ويده الأخرى تقود الموتوسيكل ودخل الى منصة الخطابة وقال المذيع : الدوتشى سيتكلم ،

فبدأ الدوتشي خطبته « اليوم تلقيت برقية من القائد الايطالي بدخول القوات الايطالية المسلحة أديس أبابا .. وهنا مضى أكثر من نصف ساعة والشعب كله يهتف بصفة مستمرة بحياة الدوتشي .. ولم تشهد ايطاليا هتافا أو مظاهرة فى تاريخها مثل ما حدث فى هذا اليوم » (٣) .

لقد أحرز الرجل لايطاليا عدة انتصارات جعلت الشعب الايطالى يتعلق به .. ويرفع من قدره ويعتبره « الأنموذج » والقدوة .. كما تعلقت به قلوب الشباب أكثر من غيرهم .. وكان على الصحافة أن تعبر عن هذه المشاعر كلها ، وأن تتحدث هى الأخرى باعجاب شديد عن الرجل الذى استولى على ألبانيا ثم الحبشة ، والذى خلع من قلوب مواطنيه الخوف والقلق ، والضعف والتردد وأحل مكانها مشاعر القومية ، وأحلام الانتصار .. وهكذا لم يعرف عن الرجل أن الصحف قد هاجمته باستثناء قلة نادرة منها ، كانت تتخوف من اتجاهاته العسكرية ، وتخشى أن يدفع بها مرة أخرى .. الى ميادين قتال لا تقدر عليه ، كما جاءت رياح الهجوم أحيانا من ناحية الصحف الشيوعية المناهضة ..

كل ذلك ، والرجل — موسولينى — يعلن أن صحافة بلاده حرة تماما ، وأنها تتمتع بقسط من الحرية لا يتوافر لصحف أخرى كثيرة فى أوربا .. فهل كان ذلك هو ما حدث فعلا ؟.. أو هل كانت تلك هى الصورة الحقيقية .. لصحافة بلاده ..

الحق أن الرجل لم يبعد كثيرا عن الحقيقة .. فقد حاول جهده أن يعطى لهذه الصحافة قدرا لا بأس به ، وعلى وجه الخصوص ، فى أواسط وأخريات العشرينات ١٩٢٤ — ١٩٢٨ — لكن ذلك لم يدم طويلا ، بل نجد أنه يعود فيشرف بنفسه على وضع عدد من القوانين التى تحد من هذه الحرية .. تلك التى نجد أن مفهومها عنده ، أو من وجهة نظره الخاصة قد أصبح متغيرا .. فبعد أن كان يرى أنها حرية

لا تلتزم بشيء أو مطلقه .. عاد فخشى عاقبتهـا ، ومن ثم فقـد أصبح تفسيره الجـديد لها هو ذلك الذى يقـول على لسـانه هو شخصيا : « نعم ان الصحافة الابطالية حرة ، لأنها تخدم فقط قضية ونظاما » (٤) .

ويا له من تفسـير لمعنى الحـرية الصحفيـة .. وتوضيح لمدلولها ، كما يفهمها الدوتشى ..

المهم أنه تطبيقا لهذا المعنى راح يشرف على وضع عـدد من القوانين التى تهدف الى أن توضع الصحافة بكامل جهازها وأنشطتها ، والعاملين بها أيضا داخل اطار قـوى ويغلب عليه الطـابع العسكرى .. ذلك هو الاطار الحكومى نفسه .

وأكثر من ذلك ، فانه ــ وعلى الرغـم من كونه من بين رجـال الصحـافة السابقين ــ الا أنه رأى أن تقـوم الشرطة بأساليبها الخاصة بتطبيق القانون الصحفى ، والاشراف على تنفيذه اشرافا حازما .. زاد من سطوته أن التعليمات كانت صريحة تمـاما ، بأن تصـادر الصحيفة التى يرى أى ضابط شرطة صغير ، أو أى ضابط يقضى نوبتجيته فى قسـم الشرطة الذى يوجـد مقر الصحيفة أو مطابعها به .. فى امكان مثل هذا الضابط الصغير ــ وليس الرقباء فقط ــ أن يأمر بمصادرة الصحيفة ، وعلى أصحابها ورئيس تحـريرها أو مديرها المسئول الانصياع فـورا لقرار هذا الضابط دون عودة منه حتى الى رؤسائه ..

كذلك فقد ألزم القانون نفسه ــ قانون ٢٦ فبراير ١٩٢٨ ــ جميع العاملين بالصحف الايطالية بالاشتراك فى مؤسسة نقـابية ، تكون تحت الاشراف المباشر للحزب الفاشستى .. بما فى ذلك هؤلاء الذين يعملون فى مجالات الصحـافة الاقليمية ، أو صحـافة الهيئات أو المؤسسات .. ولم يكن هؤلاء جميعا يستطيعون الحصـول على عضوية هذه المؤسسة النقابية ، الا اذا قام بتزكيتهم عدد من أفراد الحزب ، أو السلطة ..

حدث ذلك كله ، قبل أن يقــرر موسولينى دخول الحــرب العالمية الثانية الى جانب دول المحــور مما سبب ألوانا من الغضب الصحفى ، والذى ظهرت بعض كلماته على صفحات الجرائد ، ولكنها كانت من هذه الكلمات « المخنوقة » والتى لم تجــد استجابة كبيرة ، أو تفاعــلا بين جموع القراء ، أو الرأى العام الايطالى .. فقد كان ما ينادى به الرجل ، وما يحسه هؤلاء تجاهه ، أقوى وأهم كثيرا من هذه الأصــوات التى كانت تطلب أن يكون الرقيب من بين رجــال الصحــافة ، وأن يكون التعطيل أو تكون المصــادرة ، بعــد اجــراء قانونى ، وحكم ينطق به القاضى . بعد اعطاء الصحيفة أو من يمثلونها فرصة الدفاع عنها ..

ولكن هذا الذى لم تكن ترضاه تلك الأصــوات ، مكبوتة وغير مكبوتة ، يتضاءل تماما أمام ما كان يخبئه القدر للصــحافة الايطالية .. اذ سرعان ما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وقررت ايطاليا الدخول فى معاركها يوم العاشر من يوليو عام ١٩٣٩ .. وحيث فرض ذلــك على هذه الصحافة صورة جديدة من صور الســيطرة استمرت حتى اجتياح الحلفاء لها فى يوليو ١٩٤٣ ..

أما هذه الصورة الجديدة ، فقد كان يبدو خلال تفصيلاتها ملامح وأبعاد التقييد الكامل وان انطلق من تلك النظرية القديمة التى تقــول : « لا يعتبر الفرد غاية المجتمع بل هو وســيلة له فقط »(٥) أى أنها تلغى وجود الحقوق الفردية تماما .. الا بمنحة من الدولة وذلك بالقدر الذى تقدم خلاله الفائدة فى انماء مؤسسات الدولة ..

وكانت العودة الى هذه النظرية ، خاصة خلال ظروف الحرب تعنى أشياء كثيرة عبرت عنها الاجــراءات الصــادرة فى تلك الأوقات والتى استمرت سائدة حتى سقوط الرجل نفسه ــ موسولينى ــ وقيام الحكومة الجديدة التى وقعت الهدنة فى ٣ سبتمبر ١٩٤٣ .. انها تقوم على هــذه « القيود » و « السدود » و « المحاذير » و « الممنوعات » كلها :

ـ تعديل أوضاع جميع المطابع الايطالية بحيث تصبح جميعها مطابع حكومية ، أو على حد تعبير صحفى ايطالى تصبح جميعها مطبعة واحدة حكومية لها عدة فروع مختلفة فى روما والأقاليم .. تخضع خضوعا تاما للقوانين العديدة التى تحدد أوضاعها ، مما خلق أزمة كبيرة فى هذه الصناعة ، وسبب هروب العمال منها ، حتى أن الصحف لم تكن تجد العمال الذين يقومون بطباعتها .. وقد استمرت هذه الأزمة ، بل واشتدت حدتها عن ذى قبل حتى بعد انتهاء الحرب العالمية بسبب عدم وجود « المطبعجى » نفسه ..

ـ وقد كانت هناك ثلاثة أشكال من الرقابة الموسولينية ، أو « الرقباء » أنفسهم .. بدأت فى صورة مكتب خاص يوجد بوزارة الداخلية ، ثم تطور هذا المكتب الى « أمانة دولة » لشئون الصحافة والاذاعة .. وأخيرا وزارة صحافة ودعاية .. وسيان كان المشرف هو مدير المكتب الخاص أو الأمين ، أو الوزير نفسه ، فقد كانوا جميعا من العسكريين ، وتساعدهم مجموعة أخرى من الرتب العسكرية الأقل ، وهؤلاء لم يقتصر دورهم عند حدود الرقابة من حذف وتعطيل ومصادرة ، فقط .. وانما امتد ذلك الى منح تراخيص الصدور ، أو منعها كما كانت تتدخل تدخلا ايجابيا وحازما فى القيام بجمع الأخبار التى يهم الدوتشى نشرها أو اذاعتها ، وتقوم بتوزيعها على الصحف والاذاعة ، مع أوامر صريحة بنشرها واذاعتها على حالتها .. ودون حذف أو تحريف أو اضافة ، وحتى دون استبدال كلمة بكلمة أخرى .. حتى خرجت الصحف الايطالية جميعها وهى عبارة عن نسخة واحدة بأسماء متكررة ..

ـ ويقول أحد الصحفيين الايطاليين فى مذكراته عن هذه الفترة أيضا ان الرقابة مارست بالاضافة الى ذلك أنها كانت توزع أمرا يوميا يبين للصحف الموضوعات والأخبار التى يجب ابرازها ، وتلك التى يجب أن تمر بها مر الكرام ، دون تناولها ولو بكلمة واحدة ، كما كان أعوان

الرقيب يمرون على دور الصحف ، ليس من أجل الرقابة والمتابعة فقط ، وانما كان يدخل فى أعمالهم بعض الصــور المهنية ، كتقــديم رؤوس الموضوعات واتجاهات الافتتاحيات ، كما كانت الرقابة تتدخل أيضا ــ خاصــة بعد أن أوكلت مهمتها الى وزارة الصحافة والدعاية ــ حتى فى شكل الصحيفة واخراجها وفى نوعية الصور ومحتواها وأعدادها أيضا ..

ومن الطبيعى أن تكون هناك ، وحتى يمكن تنفيذ ذلك كله ، ضحايا عديدة لهذه الصور الرقابية كلها ، وكانت هذه الضحايا من بين الصحف والمجلات والصحفيين معا ، فقد تمت مصادرة ٦٧ صحيفة فى روما والأقاليم لفترات تتراوح بين أسبوع واحد وثلاثة شهور ، كما أغلقت ١٩ صحيفة ، وسبع مجلات اغلاقا تاما .. كما تم الحكم بالسجن على ٨٣ صحفى ايطالى لمدد تتراوح بين ستة شهور وعامين وتم استبعاد أربعة من الصحفيين الى خارج البلاد ومنعهم من دخولها تماما ، وكان هؤلاء من مراسلى وكالات الأنباء الغربية .

وقد زاد من حدة هذه الأزمات كلها أحداث الحرب نفسها ، وكان من أبرزها ضرب مصانع الورق القائمة فى الشــمال الايطالى ، وتعــذر حصول هذه الصحف على الورق من بلاد أخرى الا بشق الأنفس بسبب قطع خطوط المواصلات ، واتجاه وسائله الى العمل الحربى .. كما قتــل عدد غير قليل من شــباب الصحفيين الايطاليين الذين انخرطوا فى ســلك الجندية ، أو فى اطار التعبئة ، بالاضافة الى هذه القيود السالفة الذكر .. تلك التى أثرت على حالة الصحافة الايطالية عامة ، بل واستمرت تأثيراتها الى ما بعد الحرب بسنوات .. وحتى أوائل ومنتصف الخمسينات نفسها ، وعلى وجه الخصــوص ، فى قلة العنصر البشرى الفنى ، وحتى النــدرة التامة ، خاصة بالنسبة لصناعة الطباعة والاخراج ذاتهما .. لقد أدى ذلكــ بعد الحرب ــ الى أن بعض الصحف والمجلات التى عادت الى الظهور ، لم تكن تجد من يقوم بالتحرير فيها ، فاذا وجدته فانها لا تجــد الفنيين

اللازمين لادارة المطابع الحديثة ، بكامل أعمالها ... وفى ذلك يقول مؤرخ صحفى مصرى :

« .. لأن ايطاليا قطعت زهاء ثلاثين عاما دون صحافة حرة ، فلم يصبها التطور الذى يصيب عادة الصحافات الحرة التى ينضجها التنافس ويعلى من شأنها الخلاف على المسائل العامة ، فقد عاشت الصحافة الايطالية فى كنف الحكومة الفاشستية تمثل اتجاها معينا وتخرج جميعها من مطبعة واحدة فانعدم التنافس فى ادارتها وتحريرها وتخلفت عن الصحافة الأوربية أجيالا متصلة »(٦) .

---

(١) Avunti

(٢) Il puplodel Italia

(٣) محمد عبد القادر حاتم : « الرأى العام » ص ٣٠٩ .

(٤) فرنان ترو ، ترجمة محمود الفندور : « الاعلام » ص ٥٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص : ٥٦ .

(٦) ابراهيم عبده : « دراسات فى الصحافة الاوربية » ص : ٢٢٨ .

فاندى ..

دستور للصحافة الشعبية

غــاندى :

دستور للصحافة الشعبية

على الرغم من أن « المهاتما » يعرف فى العالم كله بأنه الرجل الذى دعا الى استقلال الهند عن طريق « العصيان بغير عنف » ، ونبذ الصناعات الانجليزية والعودة الى صناعة بلده ..

وعلى الرغم من أن أشهر صورة له ، هى تلك المعبرة عن « الاستقلال الذاتى » الذى دعا اليه ، وهى صورته وهو يغزل ثوبه بمغزله اليــدوى الخاص ، وهو يحلب ماعزه ويشرب لبنها كلما أحس بالجوع أو يقودها من ورائه الى حيث يسير .

وعلى الرغم من أن الرجل كان يلوى اليه أعناق العالم كله .. وبشدة عندما يعلن عن صومه حتى تتحقق رغباته .. أو كلما سجنته الســلطات الانجليزية .. حتى لوى اليه هذه الأعناق كما لم يلوها من قبل عنــــدما انطلقت رصاصة من هندوسى متعصب سقط بعدها مضرجا بدمائه فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ ..

أقول .. على الرغم من ذلك كله ، وأيضــا .. عــلى الرغم من أن شخصية « غاندى » المحــامى كانت ، وما تزال هى المعروفة .. الا أننى كلما كنت أقرأ أو أسمع عن هذا الرجل ، كنت ازداد يقينا بأن له صــلة ما .. بالصحافة ..

فلا يعقل أن يكون للرجل — نبي القرن العشرين — كل هذا التاريخ ، دون أن تكون له مثل هذه الصلة ، بل أكثر من صلة أيضا ..

ومن هنا ، فقد بدأت أتلمس هذه الصلة ، وأسعى للحصول عليها عند مختلف المصادر ، حتى عثرت أخيرا على عدد كبير من شواهدها ..

ودليل واحد على شدة ارتباط المهاتما بالصحافة ، وأنه كان يعمل حسابها تماما فى مخططاته ويريدها أن تحمل آراءه الى القراء ، خاصة فى خارج الهند .. هذا الدليل يأتى من خلال أسلوبه للمقاومة نفسه ، والذى كانت الدنيا تهتز له ، وتتسابق الصحف والاذاعات ووكالات الأنباء فى نقل أخباره وتفصيلاته الدقيقة أولا بأول .. ذلك هو الصيام حتى تتحقق رغباته .. ولكنه حتى فى صومه هذا كان يتجاوز عن الاستجابة لأى شىء مهما بلغت أهميته ، الا أن الرجل كان حريصا على القيام بجميع مقابلاته مع رجال الصحافة ، قبل القيام بصومه ، بينما كان يؤجل كل شىء آخر .. الى أجل غير مسمى ..

وبينما كان غاندى يرفض الحديث حتى الى أقرب الأقربين اليه ، أو أخلص خلصائه ، أو الى أعضاء حزب المؤتمر الهندى الذى أصبح رئيسا له منذ عام ١٩٢٥ .. بينما كان ذلك كله يحدث فان المهاتما كثيرا ما كان يقطع صومه ، أو يعلن انتهاءه قبل موعده بعدة أيام ، وكان السبب — غير المعلن — لهذا هو اجراء مقابلة مع مندوب صحيفة عالمية كبرى ، أو مع صحفى عالمى جاء خصيصا الى الهند للكتابة عنه ، وعن قضية استقلال بلاده .. بل ان بعض مفكرى الهند يقولون أن الرجل قد أنهى صومه قبل الموعد المحدد ثلاث مرات ، اثنتان منها بسبب مقابلتين صحفيتين هامتين ، تتعلقان بموضوع الاستقلال نفسه ، والثالثة عندما اضطر الى ذلك بسبب وصول المسودة الأولى للوثيقة التى وضعت فيها بريطانيا مشروع استقلال الهند .. فخرج عن صومه لكى يناقشها على وجه السرعة ، وذلك قبل أقل من عامين من اطلاق الرصاص عليه .

ولكن هؤلاء يقولون .. بشرط أن تكون المقـابلة هامة .. فهنـاك عشرات من المراسلين والصحفيين المحليين الذين فشلوا فى مقابلته لأنه كان صائما ، بل ان هنـاك بعض الذين حضروا من خارج الحـدود خصيصا لاجراء هذه المقـابلة .. وفوجىء هؤلاء باعلان صـومه ، وعادوا بخفى حنين ، أو كان عليهم أن ينتظروا وقتا لا يعرفون عدد أيامه أو أسابيعه .

والواقع أن اهتمام غاندى بالصحافة لم يكن وليد رئاسته للمؤتمر الهندى عام ١٩٢٥ ، أو اعلانه عن مبادئه فى المقاومة ، ورآيه فى استقلال الهند ، فتاريخ الرجل نفسه يقول أنه كان يؤمن بالدور الذى يمكن أن تلعبه الصحافة فى نشر مبادئه وأفكاره ودعوته الاستقلالية ، وأن ايمانه بسلاح الصحافة ، كان لا يقل عن ايمانه بالأسلحة الأخرى التى استخدمها بكفاءة منقطعة النظير ...

ومن الغريب أن يتلازم ذلك الاهتمـام ، فى نفس أوقات الكفاح المصرى ، وحيث أدرك غاندى ، كما أدرك الزعماء المصريون فى نفس هذه الأوقات ، مصطفى كامل ، وعلى يوسف ، ولطفى السيد ، وغـيرهم أن الصحافة تستطيع أن تكون المدافعة عن حقوق الوطن والمـواطن ، وأن تحمل أصواتهم الى عقل الشـعب وقلبه ، وتناقش قضـايا الاسـتقلال والحرية ، وما يتفرع عنهما من قضايا أخرى ..

ذلك أن غاندى ، منذ سنوات كفاحه الأولى ، كان حريصـا كل الحرص على أن تخرج أفكاره الى النور ، تلك الأفكار التى كانت تراوده وهو بعد طالب علم فى انجلترا ، ثم أخذت تراوده بشـدة كلمـا اقترب موعد العودة ، حتى أنه راح يدون أكثرها وهو فى طريق عودته الى جنوب أفريقيا .. ليمارس المحاماة هناك ، ويدافع عن العاملين الهنـود هناك ــ الكوليز ــ وحيث كان يوجد فى الكاب والناتال والبوير حوالى ١٥٠ ألف هندى فى ظروف قهر وعسر .. منقطعة النظير .

رأى غاندى أن الدفاع عن هؤلاء لن يجدى اذا تم فى قاعات المحاكم وحدها ، فالقضاة الانجليز لن يقدموا كثيرا أمام ما يتعرض له هؤلاء من أعمال ، كما كان يعرف تماما ، أن ميدان المعركة الحقيقية فى الهند نفسها .. ومن ثم فقد رأى أن يتوجه الى هؤلاء جميعا بسلاح الصحافة ، فأصدر وأشرف على تحرير صحيفة « الرأى الهندى »(١) فى جنـوب أفريقيا ، وكانت أبرز كتاباته بها هى تلك التى تحمل آراءه التى حمل طوال حياته مسئولية الدفاع عنها ونشرها والتى لوت بشدة أعناق الناس فى كل مكان، كما أنها هى التى صدرت بعد ذلك فى كتاب يحمل أفكار غاندى وآراءه ، كان عنوانه مرة « هذا مذهبى » ، ومرة أخرى « مذكرات غاندى » كما اقتطفت منه عدة أقوال صدرت فى كتب منفرده أكثـرها شـهرة كتابه « حضارتهم وخلاصنا » الذى اتخذت منه بعض الطوائف انجيـلا لها ، ونادت بنبذ كل ما جاءت به الحضارة الحديثة ، ودعت أعضـاءها الى العودة الى الطبيعة ، وحياة الريف والصحراء والغابات ، ونبذ الحياة فى المدن الكبرى والعواصم حيث السأم والملل والضجيج والتلوث والجرائم الكبرى ..

بل ان هذه المقالات نفسها يكتبها غاندى ـ الكاتب الصحفى هذه المرة ـ بأسلوب الحوار بينـه وبين قارىء وهمى يتخيـله يجلس اليه ، ويناقشه هذه الأمور كلها ، والرجل يضع له النقط فوق الحروف ويقدم له رأيا بعد رأى ، وفكرة فى اثر أخرى ..

على أن من أبرز ما كتبه « المهاتما » فى هذه المجموعة من المقالات الصحفية «الاعترافية» ما تضمن رأيه فى الصحافة نفسها .. فهو فى كلمات قليلة جدا ، يقدم فكرته عنها ، ويعلن عن دسـتور لها .. وذلك عنـدما يكتب :

« الصحافة ينبغى أن تكون قائدة الشعب ، ورائدته ، وخادمتـه أيضا ، ان هدف الصحافة الأول يجب أن يكون خدمة الفرد والمجتمـع

والانسانية .. انها وهي تقوده ، وهي تضع نفسها في مكان الريادة وهي تدافع عن آرائه ، وهي تؤيد مواقفه ، وهي تقوم بحل مشكلاته ، انما تقدم أقصى درجة من الخدمة ، وأرفع مرتبة منها .. وان من أهداف الجريدة أن تدرك الشعور الشعبي وأن تعبر عنه ، وان من مهامها أن تثير بين الشعب بعض المشاعر والأماني المرغوبة ، كما أن عليها أن تكشف دون خوف عن نقاط الضعف والثغرات والعيوب التي تهدده »[2] ..

وان الانسان ليقف متعجبا .. فهل صاحب هذه الآراء هو زعيم ومحام ، أم انه الى العمل الصحفي أقرب ..

ربما يكون الجواب أن الزعيم والمحامي ، والصحفي ، هي أسماء عديدة لشخص واحد يعمل عملا واحدا .. له عدة وجوه ، أو جوانب ، وأن الزعامة والمحاماة والصحافة ــ جميعها ــ كانت وما تزال شيئا واحدا .. من وجوه كثيرة ..

خاصة عندما يكون الرجل .. هو غاندي .

(1) Indian opinim

(2) المهاتما غاندي ــ ترجمة الاساتذة الجامعيين : « هذا مذهبي » ص : ص ٣٠ .

فرانكلين روزفلت :

رئيس جمهورية الصحفيين

فرانكلين روزفلت :

رئيس جمهورية الصحفيين

.. كانت لهذا الرجل بعض مواقفه « الشهيرة » فى مواجهة الصحافة والصحفيين ، ومحاولة الحد من سلطاتهما ، وتقليصهما .. وتضييق الخناق عليهما ، وسحب عدد من امتيازاتهما ..

كما أن الصدام قد وقع بينهما أكثر من مرة .. خاصة فى أخريات عهده بالحكم ..

كذلك فان احدى المجموعات الصحفية الأمريكية ، قد بلغ بها الضيق مبلغه .. حتى أدى بها ذلك الى حد نشر اعلان مساحته صفحة كاملة .. وفى جميع الصحف الأمريكية ، تتحدث فيه عن حرية الصحافة ، وتعيد تذكير القراء والمجتمع الأمريكى بها ..

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان الرجل — الرئيس الأمريكى فرانكلين ديلانوروزفلت — من أصدقاء الصحافة المعدودين ، والمتميزين أيضا .. حتى أن رئيس نادى الصحفيين الأمريكيين فى واشنطون قال فيه مالم يقله فى أحد غيره .. وكان بين ماقاله أن ف.روزفلت لم يكن رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، بقدر ما كان رئيسا لجمهورية الصحفيين ! .. وقد فسر رئيس النادى بعد ذلك ما كان ينشأ من خلافات بين الرئيس والصحافة قائلا : أنها ليست خلافات جذرية أو عميقة ، وانما هى خلافات فى الرأى فقط ، تلك التى تساير طابع المجتمع الديموقراطى

الذى تتفق جميعا على بنائه ودعمه كما أننا نختلف يوميا على صفحات الجرائد والمجلات ، بل وفى نادى الصحفيين دون أن يؤثر ذلك فى وحدتنا أو تعاوننا ..

على كل .. لنبدأ بأهم جوانب هذا الخلاف نفسه .. أو على غير العادة ، لنبدأ بالوجه الآخر للصورة الذى يبرز من خلال تفصيلاته ملامح الصدام ، وطبيعته ..

والواقع أنه حدث خلال فترات رئاسته الأربع ، أن وقع أكثر من صدام ، وليس صداما واحدا .. بين الرجل من جانب وصحافة بلاده من جانب آخر .. لعل أبرزها ما وقع خلال فترة رئاسته الأولى .. وذلك عندما وافق الكونجرس الأمريكى على قانون « الانعاش الصناعى الوطنى » .. فقد خولت بنوده رئيس الولايات المتحدة سلطات اضافية جديدة وعديدة كان من بينها ما اعتبر الصحفيون أنه طعنة قوية ، بل وقاتلة على حد تعبير احدى الصحف ، موجهة الى صناعة الصحافة نفسها ، بل والى حريتها والعاملين بميادينها المتسعة ..

نعم ، لقد أعطى له هذا القانون سلطة اجازة اصدار أو عدم اصدار الصحف ـ الموافقة على الترخيص من عدمها ـ وكذا خوله سلطة انشاء جهاز رقابة عامة تنظر فى أمر تنفيذ الصحف لشروط منحها الترخيص من عدمه ..

وعلى الرغم من أن هذه البنود ذيلت بعبارة « فى حدود القانون » .. وعلى الرغم من أن المقربين من الرئيس ، وعددا من أعوانه راحوا يطمئنون أصحاب الصحف والمحررين الى أن ف . د . روزفلت لا ينوى العمل بهذه

البنود أو استخدام هذه الصلاحيات التي يخولها له هذا القانون الجديد الا أن قيامة الصحافة قامت ، وعلا ضجيج الصحفيين وارتفعت أصواتهم خلال الاجتماعات العديدة التي قاموا بعقدها في أنديتهم المنتشرة بطول البلاد وعرضها ، كما كتبوا ينتقدون هذا القانون نفسه .. قائلين بأن الصحافة الأمريكية ترفض قبول هذه الضمانات الشفهية التي يقدمها أعوان الرئيس ، تجاه قانون مجحف مدون حتى أن هذا الهجوم نفسه الذي قامت به الصحف ، كان يعني في جوهره عدم استخدام البنود المشار اليها ، والا لاستخدمت أولا .. خلال حملة الصحف عليها .. أي أن الحكومة قد جمدت هذه البنود من تلقاء نفسها .. وفي ذلك يقول « توماس بيري » معلقا على هذا الصدام نفسه :

« وهكذا جر القانون الى اختبار لم يكن اختبارا بالفعل لأن الصحف لم تقم بأية محاولة للتقيد به ، فظلت تصدر كما في السابق ، بغض النظر عما تحبه الحكومة أو تكرهه ، فمرت الحكومة بالأمر مر الكرام اذ أدركت المحظور الذي يترتب على منازلة مؤسسة بالغة القوة كالصحافة الأمريكية .. وهكذا ربحت الجرائد هذه الجولة المهمة بواسطة احجام الحكومة عن تنفيذ القانون »(١) .

كذلك فقد حدث أكثر من صدام آخر ، ولكنه لا يرقى الى مستوى أو أهمية الصدام السابق .. نعم ، كان يحدث الصدام عندما تخالفه بعض الصحف الرأي ، وهو ما كان يكرهه تماما .. كما كان يحدث أيضا عندما يبدو له أن بعض الصحف تعارض فوزه بالرئاسة ، بل انه صرح ذات مرة الى أن معظم الصحف الأمريكية تعمل على ابعاده عن منصبه الكبير الذي شغله في حياته أربع مرات .. كما أن ضيقه بالصحافة ، وتبرمه بالصحفيين

قد بلغ مبلغه ــ وهو الصدام الكبير الثانى الذى حدث فى عهده ــ عندما ارتفعت أصواتهم واندفعت أقلامهم تعارضه بشأن بعض مشروعاته الداخلية ، وعلى وجه الخصوص مشروعه الكبير القاضى بتوسيع هيئة المحكمة العليا ، والذى هاجمته ١١٨ صحيفة يومية ومجلة فى شبه حملة صحفية قوية ومنظمة .. حتى تضعضعت أركان المشروع ، وركن على الرف .

كذلك فقد ثارت زوبعة أخرى ضد الرئيس ــ ولا أقول صداما كاملا ــ وذلك عندما حطم بنفسه التقاليد التى وضعها لمؤتمرات البيت الأبيض الصحفية .. تلك التى كان يعقدها فى مكتبه وعلى مسمع ومرأى من الجميع .. ولكنه رأى أن يغيرها ذات مرة ومنح حديثا خاصا لأحد الصحفيين دون غيره من زملاء المهنة..كما سمح له بأن ينقل عنه مباشرة.. وكانت النتيجة هى ما عبرت عنه دوان برادلى قائلة : « وقد أثار هذا عاصفة من الاحتجاج لدى رجال الصحافة بلغت من الشدة حدا جعله لا يكررها أبدا »(٢) ..

ذلك كله عن أبرز مواقفه فى مواجهة الصحافة والصحفيين ، أو مواقف هؤلاء فى مواجهته .. تلك التى تمثل الوجه الآخر للصورة .. فماذا عن الوجه الأول لها ؟

الواقع أن كلمة رئيس نادى الصحفيين بشأن الرجل كانت صادقة الى حد معقول ذلك لأن من الثابت أن صور علاقاته الحسنة ، ومفردات هذه العلاقات ، وتفصيلاتها وكذلك ، أسلوب تعامله معها ، جميعها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه كان من كبار الأصدقاء الذين يحرصون على اقامة الجسور الدائمة ، ودعمها ، وتقوية الأواصر والروابط وعلاقات

الود ، بينه وبين الجهاز الصحفى الأمريكى ككل .. يستوى فى ذلك اصحاب الشركات والتكتلات الصحفية ، ورؤساء التحرير وكبار الكتاب والمعلقين والمحللين ومندوبى البيت الأبيض ، وكذا المراسلين الأجانب بالعاصمة الأمريكية .. رغم هذا الفتور ، وهذه القطيعة التى وصلت فى بعض الأوقات – كما شاهدنا – الى حد الصدام الكامل ..

وخذ عندك هذه الصور العديدة ، لتلك العلاقة الحسنة ، بل والحسنة جدا والتى كانت الطابع المسيطر لتعامله مع دولة القلم والحبر والفكر والرأى والصورة والخبر والتحقيق الصحفى .

– فمن المعروف أن الرجل – فرانكلين روزفلت – لم يغلق باب البيت الأبيض أو باب مكتبه فى وجه صحفى .. خلال أغلب فترات حكمه .. ولم يكن ذلك بالطبع لأنه يعلم أنه عندما يغلق مسئول بابه فى وجه صحفى ، فان الصحفى يأتيه من الشباك .. وانما لأنه بعقليته الشعبية التى كان يصدر عنها فى كثير من تصرفاته ، ولايمانه منقطع النظير بالدور الذى كان على الصحافة أن تؤديه .. كان يؤمن تماما بأن الصحافة هى مرآة الرأى العام فى بلده ، وهى التى تقدم له الصورة الحقيقية للمواطن الأمريكى بأفكاره ومشكلاته التى تؤرقه .. وأحلامه أيضا .. ومن ثم فقد كان يقدر رسالة الصحافة حق قدرها .. ويرى فى كل صحفى يطرق بابه وفى كل صحيفة أيضا ، ذلك الجسر الذى يربط البيت الأبيض ، بالشارع الأمريكى ، على عظم طوله واتساعه وتشعبه .

– وكان من الطبيعى أن ينتقل هذا الاهتمام من الرئيس الى جميع أعوانه ، وأعضاء وزارته ، وكبار رجال الدولة أيضا ، بعد أن وجدوا منه كل هذا الايمان بالدور الصحفى والاقتناع بالرسالة الصحفية ..

بل يقال أن أوامره الى هؤلاء كانت صريحة جـدا ، بامداد الصحـافة بكل ما تريده من معـلومات وحقائق .. وعـد ذلك من قبيل المصلحة العليا .. مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، ومن ثم فلم يعرف أن وزيرا من الوزراء ، أو رجـلا من رجال البيت الأبيض قد أغلق بابه فى وجه مندوب أو مراسل ، أو أوصده دونه ..

— بل انه فى أكثر الأوقات التى يخشى فيهـا جانب الصحـافة - زمن الحرب — فان الرجل عندما اضطر الى فرض الرقابة .. قال فى البيان الذى وجهه الى الشعب الأمريكى وصحافته :

« ان جميع الأمريكيين يمقتون الحرب ، ولكن التجارب التى مرت بهذا الشعب ومرت بغيره من الشعوب ، قـد بينت أنه لابد من وجـود رقابة ما فى زمن الحـرب .. ونحن فى حالة حرب » ثم أمر بانشاء مكتب الرقابه الأمريكى فى ١٩ ديسمبر ١٩٤١ ..

وحتى فى هذه الحـالة الأخيرة ، فانه قام باختيار « بيرون برايس » رئيس التحـرير بوكالة الأسوشيتدبرس مشرفا على هذا المكتب ، حتى يكون قد اختار واحدا من الأسرة الصحفية ذاتها ، بينما كان فى مقدوره أن يعـين واحـدا من رجاله أو رجال البيت الأبيض أو وزارة الداخلية أو الخارجية ، أو أحد القـادة العسكريين كما حدث ويحـدث فى دول كثيرة .. كمـا أنه أخضع كل ما يتعلق بالبريد والاتصـالات السلكية واللاسلكية والصـور والكتب والمكتبات لدائرة أعمـال هذا الرجـل نفسه .. وأكثر من ذلك فقد طلب هو شخصيا منه أن يضع نظاما خاصا للرقابة الاختيارية بالتعـاون مع أصحاب الصحف ومحرريها .. وسائر وسائل الاعلام ..

ـ وحتى فى ميادين المعارك نفسها ، وعلى الرغم من أن بعض أعضاء قيادته العسكرية كايزنهاور وغيره كانوا يعارضون منه ذلك ، فان الرجل سمح باصدار العديد من الصحف والمجلات العسكرية المتخصصة فى جبهات القتال نفسها ، كما أحرزت الصحف ووكالات الأنباء الأمريكية تطورا ملحوظا خلال الحرب العالمية الثانية .. يقول عنه د . ابراهيم عبده :

« لقد حققت الصحف ووكالات الأنباء الأمريكية ابان الحرب الثانية أعظم انتصار فى تاريخها جميعا .. فقد اتسع مجال العمل حتى شمل الكرة الأرضية كلها ، ولقى العاملون فى حقل الصحافة عوائق الرقابة ومصاعب المواصلات ، وأخطار الأسلحة المستعملة والأمراض الفتاكة وغير ذلك من متاعب ، وكان سجل ما تم طوال ثلاث سنوات وتسعة أشهر من اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب .. كان هذا السجل بارزا فى كمه وكيفه ، ونقلت أخبار الحرب فى صورة كاملة منقطعة النظير » (٣) ..

ـ وقد أصدر « جراهام ج . وايت » الذى يعمل محاضرا فى الأدب الأمريكى بجامعة سيدنى كتابا جديدا ـ ١٩٧٩ ـ بعنوان « روزفلت والصحافة » يتحدث فيه عن هذه العلاقة التى كانت فى جانب منها عاصفة ومعقدة .. وفى أكثر جوانبها مشرقة ومتينة ، بين هذا الرئيس الأمريكى وبين صحافة بلاده .. وذلك من واقع اتصاله الوثيق بالجانب الصحفى للرئيس ، وحيث حضر المؤلف جميع مؤتمراته الصحفية تقريبا .. كما حضر له أكثر من لقاء ومؤتمر سياسى .. وكان من أبرز ما كتبه الاشارة الى أن الرئيس كان محل اعجاب الصحفيين

عامة ومندوبى البيت الأبيض خاصة .. وأن مؤتمراته كانت أكثر انفتاحا وأقل رسمية من المؤتمرات التى كان يعقدها أسلافه كما أنه كان يحضر هذه المؤتمرات أكبر عدد من المندوبين .. وكان الرئيس يرد على جميع أسئلتهم ، ويتباسط معهم فى القول ، كما عرف عنه أنه كان يصافحهم جميعا ، يدا بيد .. وأنه عقد خلال سنوات حكمه ٩٩٨ مؤتمرا صحفيا .. وكثيرا ما كان يدعو عددا من الصحفيين لتناول طعام الغذاء معه .. كما يقرر كذلك ، أنه على الرغم من كل ما كان الرئيس يبذله من أجل دعم هذه الصلة وتحسينها باستمرار ، فان أغلب الصحف كانت تعارضه طوال فترة رئاساته بينما هو لم يحاول أن يوقف — على حد رأيه — تيار معارضتها له .

— كما كان هناك اجماع على النشاط الصحفى المتميز لزوجة الرئيس ، تلك التى كانت حريصة على أن تنافس زوجها فى عقد المؤتمرات الصحفية ، حتى أنها عقدت أحيانا أكثر من مؤتمر واحد أسبوعيا ، كما كانت تعقد مؤتمرات عديدة للصحفيات ، تخاطبهن خلالها بدون حواجز أو رسميات ، كما كانت توجه لهن الدعوة لتناول الغذاء على مائدتها .. وبعد الغذاء تصحبهن الى زيارة لجميع حجرات البيت الأبيض ، بما فى ذلك مكتب الرئيس الخاص ، ومكان احتفاظه ببعض أشيائه الخاصة وطوابعه ، وبريده .. ويقال كذلك أنها كانت تجيب على جميع أسئلة الصحفيات ، بما فى ذلك الأسئلة الخاصة جدا عن حياة الرئيس ، وحتى حياته معها وما الذى يحبه ؟ وما الذى يكرهه فيها ؟ ومتى يتفقان ، ومتى يختلفان ؟ وكيف يعالجان مشكلاتهما الخاصة ؟ وما هى صفاته التى لا يعرفها الناس عنه ؟ وما هى أبرز

نواحي ضعفه ؟ وكيف يتخذ قراراته الهامة ؟ وماذا يفعل ليلتها ؟.. الى غير هذه كلها من الأسئلة الأكثر اقترابا من حياتهما الخاصة والتى يقال أنها كانت ممنوعة على الصحفيين ، أو لم يكن هنا من يستطيع توجيهها اليه .. من الرجال ..

وعلى أية حال ، فانه يبقى لهذا الرجل هذه الصور العديدة كلها .. صور الاعجاب الى حد الغزل مع الصحافة والصحفيين .. صور الصديق الذى يقف مع صديقه دائما ، وفى جميع الأحوال ، ولكن لا بأس من قليل مما يعكر صفو العلاقة بينهما .. الى حين ، لتعود بعد ذلك أقوى مما كانت . أن هذه الأزمات الطارئة .. حتى وان كانت قد وصلت فى بعض الأحيان ـ كما شهدنا ـ الى حد وقوع الصدام ، فقد كانت تمثل اختبارا لقوة الصحافة ومدى ايمان العاملين بها برسالتها .. وعلى حد تعبير توماس بيرى : « وعلى كل فقد خرجت الصحافة من هذا الاختبار ظافرة كما فعلت فى اختبارات عديدة سابقة ، بالتمسك بحقها فى نشر الحقيقة » [٤] ..

---

(١) توماس بيرى ، ترجمة مروان الجابرى : « الصحافة اليوم » ص : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) دوان برادلى ترجمة محمود سليمان « الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى » ص : ٧٨ .

(٣) ابراهيم عبده : « الصحافة فى الولايات المتحدة الامريكية » ص : ٢٧٥ .

(٤) توماس بيرى ، ترجمة مروان الجابرى : « الصحافة اليوم » ص : ٥٧ .

شارل ديجول :

سلاح خطير جدا ..

تلك هي :

الصحافة السرية :

شـــارل ديجـول :

سلاح خطير جدا
تلك هى :
الصـحافة السرية

على أثر تهاوى المدن الفرنسية أمام الجيوش الألمانية وتوقيع الهدنة فى يونيو ١٩٤٠ .. بدأت الرقابة الألمـانية تعمل عملها فى التضييق على صحف المنطقـة المحتلة ، بل وفى خنق الصحف التى لا تستجيب لمطالب الرقيب « ستافل » ولا تنشر ما يرى نشره من أخبـار يوزعها هو بنفسه على رؤساء أو مدراء تحريرها فى مؤتمراته التى يعقـدها .. أو يوزعها باحدى الطرق الأخرى ، أو توزعها وكالة الأنبـاء الألمانية « د.ن.ب » بمعـرفة المكتب الفرنسى للاعـلام .. كما اتبعت هذه السلطات وسيلة أخـرى للضغط على الصحف الفرنسية حيث كانت تخفض « تموين » الصحيفة المشاغبة من الورق .. أو تمنعه فى بعض الأحيان .. حتى نجحت سلطات الاحتلال فى ازاحة بعض الصحف عن طريقها ، خاصة الصحف السياسية ، بينما بدأت الصحف الأخرى تظهر الخضوع — رغم أنفها — لقواعد الرقابة التي فرضها النظام الألمانى .

.. ولكن تلك الصـورة لم تكن تمثل الا الوجه الأول للعمـلة .. وجه ما يجـري فى المناطق الواقعة تحت القبضـة الفولاذية للجيوش الهتلرية .. وصحيح أنه كان الوجه الأكثر بروزا ، ووضوحا ، وسيطرة .. ولكن الصحيح أيضا أنه كان هنـاك ذلك الوجه الآخر وجه ما يجرى فى المنطقة غير المحتلة .. وحيث نلمح الفارس ديجول وهو يرتفع بقامته المديدة وسط أعضاء حكومة فرنسا الحرة .. هؤلاء الذين انتقلوا الى

« فيشى » مغلنين أن الحرب ما زالت قائمة .. ومن ثم اعلانهم استمرار قيام صحف هذه المنطقة بأدوارها الاعلامية والتوجيهية والتفسيرية خلال هذه الأوقات العصيبة من بداية الأربعينات بل ان هذه الحكومة ، وبتوجيه من ديجول نفسه كانت تحاول قدر ما تستطيع أن تساعد صحف هذه المنطقة على الصدور واستمرار الحياة ..

على أن العمل الديجولى الآخر ، والذى دل على ذكاء وحاسة اعلامية كبيرة ، بل وقيادية وطنية أيضا .. هو ما كان يفعله هذا الصديق للصحافة والصحفيين بأن يشجع اصدار الصحف السرية أو « صحف المقاومة » فى المناطق الفرنسية المحتلة ، خاصة بعد وضع الحلفاء أقدامهم على الشمال الأفريقى ، واحتلال الألمان للمنطقة الجنوبية من فرنسا .. وحيث تبع ذلك ـ وكما توقع ديجول فى حديث له مع أعضاء الحكومة الحرة ـ سقوط عدد من الصحف الفرنسية الكبرى .. تلك التى كان الاعتماد عليها كثيرا وأساسيا فى مخاطبة الشعب الفرنسى .. وهى أمثال صحف « الطان » و « الفيجارو » و « البروجرية » وغيرها بينما كانت الصحف الأخرى ، قد رضخت للقوى الأكبر منها .. أو استسلمت للرقابة الصارمة .

وسط هذا الضباب المتكاثر فى السماء الفرنسية .. وبين أشواك غابة الاحتلال كان صدور الصحف السرية ، يمثل فكرة بعيدة المنال ، صعبة التحقيق ، تحتاج الى قدر كبير من الشجاعة .. بل كان صدور صحيفة واحدة منها يعتبر مخاطرة غير مأمونة العواقب ، مع رقابة لا ترحم تستند الى احتلال عسكرى يبث عيونه ، تماما كما تنتشر أسلحته فى كل مكان .. ولكن ، ومن زاوية أخرى ، فقد كانت هذه الفكرة ، تمثل ذلك البصيص القليل من الضوء ، خيطا واحدا من خيوط الأشعة ، وسط ضباب الأحداث وظلام الأفق ، ومشاعر الخوف والقلق والترقب .

وأعتقد ، أن سوابق اصــدار مثل هذه الصحف كانت تتجمــع فى رأس ديجول وتلح عليه بشــدة ، وعلى رؤوس الآخــرين ممن كانوا يناقشون فكرة هذا العمل .. فقد صدرت مثلها أثناء نضال « المستعمرات الأمريكية » من أجل الاستقلال فى العقد السابع من القرن الثامن عشر ، كما أصــدرها الثوار من اليونانيين أكثر من مرة فى مواجهــة سلطات الاحتلال التركى .. كما صــدرت أيضا أثناء ثورات عــدد من الشعوب على الانجليز والفرنسيين أنفسهم .. وكان من بينها ما أصدره المصريون قبل وأثنــاء وبعــد ثورتهم الكبرى عام ١٩١٩ ــ على الانجليز ــ فى القاهرة والأقاليم ..

باختصار .. لم يكن هنــاك من خاطر يلح على الرجل ، وهو يعيد تنظيم صفوفه ، ويرى فى الاعــلام والدعاية سلاحا مؤثرا أبرز من ذلك الذى يدعو الى مد يد العون لمثل هذه الصحف القليلة جــدا .. والتى لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .. وأكثر من ذلك تشجيع اصدار صحف جديدة بل واصــدارها من مواقع المقــاومة السرية المنتشرة فى مختلف أرجاء فرنسا .. ومن ثم فقد تتابع اصدار هذه الصحف « السرية » التى تحمل أسماء عديدة كان من أبرزها :

« ديفانس دى فرانس (١) ــ فران تيرور (٢) ــ ليبراسيون (٣) ــ كومبا (٤) ــ فرون ناسيونال (٥) » .. وغيرها ..

وقد أعدت لطباعتها مطابع خاصة ، بعضها كان فى الأصل من مطابع الصحف التى توقفت عن الصــدور ، وبعضها الآخر من مطابع الصحف الاقليمية ، كما أن بعض هذه الصحف نفســها كان يطبع فى عــدد من القرى وبطريقة سرية جدا .. ثم يخرج مع القوافل الصباحية التى تنقل الخضر والفاكهة والألبان الى المدن الكبرى ، على عربات يقودها عدد من أفــراد المقــاومة حيث يتسلمها آخــرون يقومون بتوزيعها سرا .. وأما مشكلات الحبر والورق وغيرهما فقــد كان يسهل الحصول عليهما

من بعض المؤسسات الفرنسية وبيوت الأوراق والطباعة ومما يزيد عن حاجة بعض الصحف التى كانت تطبع كمية أقل من تلك التى حددتها للسلطات .. وبكثير .. وكان الورق الباقى يجد طريقه الى الطوابق السفلى من بيوت أحياء المدن الفرنسية ، ليخزن هناك ، أو يطبع فورا فى تلك الأماكن .. وحتى عن طريق سرقة « بوبينات » الورق من مخازن تلك الصحف التى أيدت الاحتلال لتعيش ، ومن مخازن قوات الاحتلال نفسها .. أضف الى ذلك كله بعض « خصائص » الصحافة التى كان عليها أن تصدر فى مثل هذه الظروف فمن الطبيعى أن تكون هذه الصحف السرية ، غير مرتبطة فى صدورها بوقت محدد ، أو بساعة معينة ، فقد كانت تصدر « حسب التساهيل » ، كما لم ترتبط أيضا بشكل معين فى اخراجها ، ولا بعدد محدد من الصفحات ، فقد كان ذلك فوق طاقتها ، وطاقة أصحابها حتى أن بعضها كان يصدر أحيانا فى ورقة واحدة فقط ، بل صدر بعضها أحيانا فى ورق سميك ، من ذلك النوع الذى تصنع منه الأكياس والقراطيس وأكثر من ذلك صدرت أيضا على ورق مقوى ، كان فى الأصل معدا لعمل علب السجائر والأحذية ، حتى اذا جاءت الصحيفة السرية على الكمية التى حصلت عليها من هذا الورق ، بدأت البحث عن كمية أخرى ، أو عن نوع آخر ، حتى صدرت صحف على « مناديل الورق » و « المناشف » .. وهى الطريقة القديمة التى استخدمها صحفى فرنسى أثناء عهد « لويس فيليب » فى الأربعينات من القرن السابق ، وجميع هذه الطرق كان يعلم بها رجال المقاومة ، وقادتها ، بما فى ذلك ديجول نفسه .. حيث حملت من أفكاره وتعليماته ورسائله كثيرا .. حتى وصفها أكثر من مرة بأنها « سلاح خطير جدا فى يد المقاومة » .. تستطيع أن تستخدمه الاستخدام المناسب لاحراز النصر وتحقيق التحرير » ..

على أن من أبرز هذه الصحف السرية التى ساعد الرجل على اصدارها ، ومضى يمدها بعونه منذ صدورها وحتى التحرير تلك

الصحيفة المسماه « ديفانس دى فرانس ــ الدفاع عن فرنسا » .. والتى أقبل أفــراد المقــاومة عليها وساعدوا على توزيعها بين طوائف الشعب الفرنسى بمختلف الطرق ، بل كانوا يهربونها الى خارج فرنسا أيضا .. والى المنــاطق الأخــرى التى كانت تعانى سطوة الاحتلال الألمــانى .. أو تشرب من نفس كأسه ..

وقد استمرت هذه الصحف السرية فى عملهــا بوازع وطنى يدفــع المسئولين عنها الى العمل المتواصل ، وبذل كل الجهود التى كانت تعتبر فى مقدمة أسلحة المقاومة ضدها ، ولم يفت فى عضها أن الألمــان كانوا أحيانا يعثرون على نسخها ويقومون باحراقهــا ، كما قبض هؤلاء على كثير من محررى وموزعى هذه الصحف ، وتعرضوا للسجن والتشريد ، كما تعرضوا لعقوبة الاعــدام رميا بالرصاص ، فما فت ذلك فى عضد الآخرين ، ولا أوقف صدور مثل هذه الصحف التى يعترف لها التاريخ الفرنسى بكل ما قدمته .. تمــاما كما يعــرف للرجل الذى شجعها على الصدور ، وأيدها ، ودفعها الى الاستمرار ومواصلة الكفاح .. يعرف له دوره الكبير .. ويعترف له به .. للقــائد الفارس صــديق الصحــافة الجنرال دى جول .

---

(١) Defense de la France

(٢) France — Tireur

(٣) Liberation

(٤) Combat

(٥) Front National

ايزنهاور .. :

نصف .. لها
ونصف .. عليها

ايزنهاور :

نصف .. لها
ونصف .. عليها

هذا رجل كانت له مواقفه العديدة من الصحافة ، والمختلفة الى حد بعيد ، والى درجة التناقض .

ولكن قراءة سريعة لتاريخ الرجل نفسه — دوايت ايزنهاور — تبين أن هذه المواقف العديدة ، رغم تفاوت حدتها للرئيس الأمريكى من صحافة بلاده ، يمكن أن تختصر فى موقفين أساسين تنطلق منهما أو تتفرع جميع المواقف الأخرى ، كما تتصل بهما كذلك اتصالا وثيقا ..

فهو .. منذ بدأ اسمه يظهر على صفحات المجلات المتخصصة — مجلات الجيش الأمريكى — .. وعندما كان يتسلل على استحياء وفى مرات قليلة جدا ، بل ونادرة ، الى سطور الصحف العامة أو السيارة ، فقد كان هو نفسه يمتعض كثيرا .. ويبدو أن هذا الموقف الجاد الجامد .. قد صحبه وهو يقفز الى الرتب العسكرية المتقدمة .. ثم عاد يصحبه وهو يتقلد مناصب القيادة العسكرية ، فيقابل رجال الاعلام عامة والصحفيين خاصة ، بذلك الوجه المتجهم ، وبملامحه العسكرية الجافة ، تلك التى كان يجيد رسمها تماما ، أو كانت هى بعض طبيعته العسكرية التى كانت تسرى فى دمائه ودماء غيره من العسكريين ، بملامحهم الجادة دائما ، الخشنة أبدا .. حتى وهم فى أوج مجدهم وقمة انتصارهم .. حتى ليخيل اليك أن تلك هى طبائعهم التى ولدوا عليها ..

تماما كما يقولون أن فلانا ولد ليكون عسكريا ، وأن فلانا ولد ليكون صحفيا .. وأن فلانا ولد ليكون فنانا .. وهكذا كان الرجل من هذه الطبقة من القادة العظام ، الذين ــ كما يبدو ــ ولدوا ليكونوا من كبار العسكريين ، والذين كان اقتناعهم يزداد دائما ، وبمرور الوقت ، ومع تأزم المواقف وضجيج المعارك ، ودخان البارود ، ومنظر الدم .. أن الاعلاميين عامة ، والصحفيين خاصة هم من « المتطفلين » .. وأن تطفلهم هذا قد يؤدى الى عواقب عسكرية وخيمة .. بل ان هذا التدخل منهم ، قد يزعج القائد العسكرى أيما ازعاج ، وقد يتسبب فى تعقيد الأمور .. أيما تعقيد ..

بل يقولون أن عبارات كثيرة كان الرجل يرددها وكأنه يحفظها عن ظهر قلب ، أو كان يفاجىء بها الاعلاميين من صحفيين واذاعيين .. وحتى رجال الاعلام العسكرى نفسه والتابعين لجيوش الحلفاء ، أو للقوات الأمريكية المسلحة .. انها عبارات من مثل :

ــ وماذا يريد المستمع من قائد عسكرى ؟

ــ وما دخل القراء بتطورات المعارك على الجبهات المختلفة ؟

ــ وما الذى يعنى صحيفتكم بالنسبة لهذه المسألة ؟

ــ ولماذا تدس المجلة أنفها فى حياة الضباط والجنود ؟

ومن هنا ، فقد كان اللقاء به يمثل صعوبة كبيرة ، ليس أكبر منها سوى انتزاع عدد من الأخبار من بين أنيابه .. ان المحرر فى هذه الحالة يكون قد انتزعها من بين أنياب الأسد نفسه ولذلك كله ، فلم يكن ينجح فى هذا اللقاء ، الا المخبر القدير ، والمراسل المتمرس ..

بل يحكى عنه ، أن أحد المراسلين الحربيين التابعين لوكالة أنباء أجنبية ، طلب مقابلته وأخذ يلح فى هذا الطلب ، والرجل يحول جميع

طلباته الى الضباط الصغار ، أو الى ياوره الخاص أو الى أركان حربه .. أو الى مكتب الأنبـاء الأمريكى التابع لجهاز الحرب .. ولكن المراسل يستمر فى محـاولاته ولا ييأس أبدا .. بل يظل يتمسك بحبـال الصبر ويتابع القـائد العسكرى ، و « ينام » له قرب مركز قيادته .. وعندما يقولون ذلك لايزنهاور يبعث فى استدعاء المراسل ، ويطلب منه أن يقوم بجولة فى الميدان .. يعود بعدها الى لقائه لمدة نصف ساعة فقط !!

وبعد أن يقوم المراسل بهذه الجولة التى استمرت أكثر من يوم ، وبرفقته بعض رجال الأمن يواصل .. الى مركز القيـادة ، والى مكتب ايزنهاور نفسه ..

ولكن القـائد العسكرى يفاجىء المراسل بسـؤال عمـا شاهده ، ويواصل سؤاله عن انطباعاته الخاصة بخطوط الدفاع وتوزيع الأسلحة والكتائب ، والمعسكرات المختلفة ، كمـا لم ينس أن يسـأله عن روح الجنود المعنوية ، ودرجة ارتفاعها ، وعن درجة انتظامهم والطعام الذى يقدم لهم ، ونوعيته ، ورأيه بشأنه ..

سأله ايزنهاور عن ذلك كله ، وجلس هو يستمع ، واجابات المراسل تترى اجابة فى اثر أخرى ، دون أن يترك له فرصة واحدة ، ليقدم سؤالا واحدا .. حتى أخذ ينظر فى ساعته ثم دخل أحـد رجاله من العسكريين ليعلن عن انتهاء المقابلة .. التى قام فيها ايزنهاور بدور الصحفى .. وخرج المراسل من باب مكتبه وهو يضرب كفـا بكف .. فقـد خـرج كمـا دخل تمـاما !!

وصحيح أن الموقف لم يكن كذلك دائما ، فقد قابل الرجل عددا من الصحفيين ، وفازوا منه بأحاديث هامة ، ولكن ليس فى جميع الأحوال .. ومع مزيد من ابراز الطابع العسكرى المتجهم .. كل ذلك رغم أن تقارير المخابرات الحربية نفسها كانت تتحدث بفخـر زائد عن احترام المراسلين

الغربيين عامة ، والأمريكيين خاصة ، لشرف مهنتهم ، وعملهم على صالح بلادهم ، وقيامهم بمسئوليتهم كاملة .. بحيث لم يتسرب الى أعمدة الصحف أو الى أمواج الأثير ، ما يفيد منه الأعداء ، من أخبار عسكرية ، مهما تكن درجة أهميتها .. مما كان يثير غضب المخابرات الألمانية ومحللى أخبار العدو ــ الحلفاء ــ كثيرا .. حتى كان ذلك مثار شكوى هتلر نفسه .

ولكن .. على الرغم من ذلك كله ، فقد كان الرجل يرى أن العسكرية شيء .. وأن الصحافة والاذاعة والدعاية أشياء أخرى .. وأنه اذا دخلت هذه الوسائل من الباب ، خرجت العسكرية بكل خططها ، وتحفظاتها وأسرارها وعالمها .. من الشباك .

كان ذلك هو الموقف الأول للرجل ، وكانت هذه بعض صوره ــ وهى كثيرة ــ ومن هنا فقد أثار قرار الرجل بترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهورى ضجة اعلامية كبيرة .. فقد كان رجال الاعلام عامة ، والصحافة خاصة ، يعرفون أن فرصته للفوز بهذا المنصب كبيرة ، ومن ثم فقد كانوا يخافون من استمرار الطابع العسكرى له ، فى التعامل معهم .. وبنفس الأساليب ، وحيث يعنى ذلك وضع تقاليد جديدة لعلاقة الرئيس بالصحافة لا شك أنها ستحد من نشاطهم كثيرا .. وقد تؤثر حتى على الرؤساء من بعده ، وأول ما كانوا يخشونه منه ، أن يعمد الى الغاء المؤتمر الصحفى الأسبوعى الذى كان الرؤساء يتابعون عقده بالبيت الأبيض ، والذى كان يحضره العديد من المحررين ، ويعتبر هو ترمومتر العلاقة بين الرئيس من جانب ، والصحافة الأمريكية من جانب آخر ..

ونجح الرجل ، وأصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهورى .

وعلى الرغم من أن بعض الصحفيين قد تحدث عن مخاوفه بصوت عال ، وأن عددا من المراسلين راحوا يتحدثون عن ذكرياتهم ، والرجل العابس الوجه ، القاسى الملامح يواجههم ، أو يحاول أن يقوم هو بدور الصحفى ، أو يردد أقواله عن الصلة المفقودة — فى رأيه — بين العسكرية والاعلام ، أو بين القادة والصحفيين .. على الرغم من ذلك كله فقد بدأ الرجل بداية طيبة مع هؤلاء من « الفضوليين » اذ جاء الى قاعة المؤتمر الصحفى الأول مبكرا عن موعده ، وأخذ فى مداعبة عدد من مراسلى البيت الأبيض ، وكان بعضهم من الذين عملوا معه فى ميادين المعارك ، كما كان يبدو وجهه مبتسما وكأنه ما يزال يخوض معركته الانتخابية ، بل وأكثر من ذلك ، فانه أعلن أكثر من مرة عن ترحيبه بأى سؤال يقدمه له أى منهم ، خلال الوقت المخصص للمؤتمر الصحفى ، أو أى وقت آخر .. بل لقد أضاف الرجل الى وقت المؤتمر عدة دقائق أخرى ، وهكذا .

وأسقط فى أيدى المحررين ومراسلى البيت الأبيض ، وبلغت دهشتهم مداها ، من هذا الأسلوب الجديد تماما على الرجل ، والذى لم يكن أحدهم يعرفه عنه ، أو يتوقعه .

ولكن الرجل الذى كان قد قرر أن يغير من أسلوبه العسكرى ، وأن يحرص على أن يكون صديقا للصحافة والصحفيين ، قدر استطاعته ، كان قد أعد لهم أكثر من مفاجأة أخرى .. وكان من بين هذه المفاجآت على سبيل المثال لا الحصر :

— دعوة عدد كبير من المراسلين الى مصاحبته فى بعض رحلاته .

— اضافة عدد آخر من أجهزة وخطوط التليفون فى الحجرة المجاورة لقاعة المؤتمرات والتى تتصل مباشرة بالصحف ووكالات الأنباء .

— عدم رفض رغبة أى صحفى فى مقابلته قبل أو بعد انتهاء المؤتمر.

ـ دعوة المراسلين الى بعض المؤتمرات التى يرى الرئيس عقدها في أوقات أخرى غير الوقت الأسبوعى المحدد لها ـ ما بين العاشرة والعاشرة والنصف من صباح كل أربعاء ـ ويتم ذلك عن طريق اشعارهم بمواعيد المؤتمرات الجديدة أو الاستثنائية بطرق كريمة ولطيفة .

ـ ارسال صور من البيانات التى يقوم الرئيس بالقائها والمعدة سابقا ، حتى دور الصحف والمجلات وأبواب وكالات الأنباء بالاضافة الى ما يقدم لهؤلاء أثناء عقد المؤتمرات نفسها .

ولكن ، هل كانت هذه الاجراءات الجديدة كلها كافية لتغيير صورة الرجل الأولى فى أذهان هؤلاء ؟ ولرسم هذه الصورة الجديدة التى كان حرصه ـ كما يبدو ـ بالغا على أن تستقر فى مخيلتهم ؟ ..

الواقع أن الصحفيين قد انقسموا فى مدى استجابتهم لاجراءات ايزنهاور الجديدة ، وأسلوبه الجديد فى التعامل مع الصحافة .. فالبعض منهم كان يرى فى ذلك تغييرا جذريا ، وسوف يستمر الرئيس عليه ، طوال فترة حكمه ، بل وسوف يضيف اليه جديدا مما يساعد على دعم هذه الصداقة الوليدة بينه وبين مرآة الرأى الأمريكى والعالمى ، والبعض الآخر كان يرى أنها مجرد اجراءات خاصة بأسابيع وشهور الرئاسة الأولى ، وأنها تصرفات وقتية فقط لا يلبث بعدها الرجل أن يعود الى مواقفه الأولى ، والى عسكريته الجافة ، فقد ولد الرجل عسكريا .. وسوف يموت عسكريا .

ولكن ، من الغريب أن يقدم الرئيس بتصرفاته التى تلت الأسابيع الأولى لحكمه ، ما يؤكد الرأيين معا .. بل ما تسبب بعد ذلك فى مزيد من الحيرة لهؤلاء الذين راحوا يتابعون علاقته بالجهاز الصحفى ..

فبينما نجد أن ايزنهاور يفعل كل ذلك ، ويقدم هذه التسهيلات الجديدة للصحفيين ، بل وبينما نجده يقدم أكثر منها ، ومما لم يفعله رئيس آخر من قبله ومثال ذلك موافقته على تسجيل هذه المؤتمرات على أشرطة

وتقديمها الى الصحف والاذاعات التى تريدها .. كما وافق كذلك على أن تصورها محطات التليفزيون .. فى أفلام خاصة .. ولكن حتى هذه أيضا وجدت من يقول بأن الرئيس قام بتحويل المؤتمرات الصحفية ذات التقاليد الراسخة ، الى استعراضات تليفزيونية واذاعية ، خاصة عندما وافق على اذاعتها أو بثها على الهواء مباشرة .. بل راح هؤلاء يضيفون الى هذا الموقف من الرئيس عدة مواقف أخرى عدوها عليه لا له ، ومن ذلك مثلا أنه بادر فقضى من الأساس على أسلوب المعاملة الخاصة لصحفيين معينين ، مما أثار جدلا كبيرا ، لأن هؤلاء كانوا يتمتعون بهذه الحقوق منذ عهد الرئيس « ترومان » .. ومن بينها كذلك ما صرح به ذات مرة داخل اجتماع مجلس الوزراء .. حيث قال بالحرف الواحد :

« ان أى شخص يكون لديه وقت للاستماع الى المعلقين أو قراءة مقالات أصحاب الأعمدة لا يكون لديه كما هو واضح عمل يشغله »(١)..

كذلك أخذ عليه هؤلاء ما حدث فى مؤتمر الحزب الجمهورى عندما أنحى باللائمة على الصحافة الأمريكية ، بسبب الطريقة التى كانت تغطى بها شئون الحزب بل وبالنسبة لهذه النقطة بالذات فان أكثر الصحفيين الأمريكيين ، بل وأكثر الأمريكيين أنفسهم ، كانوا يرون عكس ذلك تماما . ومن ثم فان الصحافة الامريكية ــ فى رأى هؤلاء ــ كانت مشايعة له بشدة ، رغم تخوف رجالها منه ، كما أنها ساعدت على نجاح كثير من الرؤساء الجمهوريين .

وربما من أجل هذا الغموض نفسه الذى غلف علاقة الرجل بالصحافة ، فقد حدث خلاف كبير بين عدد من المؤرخين ، البعض ــ كما حدث بالنسبة للصحفيين أنفسهم ــ يتحدث عن الوجه الأول لصورة الرجل ، أو عن نصفه « العسكرى » ، والبعض الآخر يتحدث عن الوجه الثانى أو عن نصفه « الصحفى » مما يجعلنى أكرر ذلك التساؤل الذى سبق أن قدمته فى كتابى « فن الخبر » عند حديثى عن هذه المؤتمرات

نفسها .. فهل كان لهذا الرجل ــ حقا ــ موقف شعبى بسيط من الصحافة يبدو خلال مؤتمراته ولقاءاته ، يخالف تماما موقفه الرسمى منها ؟

لقد قدمت مؤلفة وصحفية أمريكية ــ دوان برادلى ــ تفسيرها لذلك عندما كتبت تقول عن علاقة الرؤساء الأمريكيين بالصحافة ، وهو تفسير معقول ، ومقبول أيضا :

« والخصومة الشخصية والسياسية تكمن وراء الكثير من نقد الصحف للحكومة ، فرئيس التحرير الديمقراطى الذى كان يعارض بشدة أحد المرشحين للرئاسة ، ولكنه نجح رغم ذلك لن يغفل أخطاءه الكثيرة التى يرتكبها وهو فى السلطة ، ورئيس التحرير الجمهورى الذى يؤمن أن الحكومة الديمقراطية تدير دولة رفاهية سيظل يبرز هذا باستمرار لقرائه ..

وفضلا عن ذلك ، يوجد بالفعل خلاف كبير حقيقى فى الرأى بين الحكومة الأمريكية والصحافة الأمريكية ، فالحكومة تعتبر من أهم مصادر الاخبار التى قد تهم أو ينبغى أن تهم كافة المواطنين ومع ذلك فان الحكومة جهاز بالغ التعقيد والصعوبة ، وقد لا يكون من المفيد فى جميع الأحوال أن يذاع كل شىء يقال أو يعمل فى واشنطن عن طريق الصحافة ..

وكثيرا ما يتمركز الصدام حول الرئيس ، لأن الرئيس هو رأس الحكومة ، وقد حاول بعض الرؤساء ترويض القوة الجبارة للصحافة ، وحاول البعض الآخر هزيمتها فى معركة ، ولكن لم يستطع أحد أن يحقق نجاحا كاملا .. كما لم يفشل أحد فشلا كاملا »(٢) ..

.. أقول ربما يفسر ذلك آراء الجانبين ، وحيرة الدارسين والمؤرخين، بين وجهى صورة الرجل ، أو بين نصفه العسكرى ، ونصفه الجماهيرى الصحفى .. بين الماريشال القاسى الملامح ، المتجهم الوجه ، وبين « آيك » اللطيف ، بابتسامته العريضة ، وحبه للمحررين وقلبه الكبير الذى وسع

عشرات منهم ، كما وسع أيضا سائقته الخاصة : ل . كاى سمر باى[3]. التى تحدثت الصحف عن غرامه الكبير بها ... ويالها من قصة مثيرة للرئيس القائد العسكرى .. والعاشق أيضا ..

ولكنها الصحافة .. التى ما تزال تتحدث عن هذه العلاقة الغرامية ، حتى عندما عقدت زوجته (مامى) مؤتمرا صحفيا هو الوحيد فى حياتها من نوعه لتنفى فيه هذه العلاقة ، فان الصحافة أخرجت لها لسانها .. وقالت : ولو .. لقد أحب الرجل سائقته فعلا والى درجة العشق !!

---

(١) روان برادلى ترجمة محمود سليمة : « الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى » ص ٧٨

(٢) المصدر السابق ، ص : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) Lt kay summersby

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جون كيندى :

السلم والتقدم
بطريقة صحفية

جون كنيدى :

السلم والتقدم بطريقة صحفية

كثيرة هى البدايات التى يمكن أن تكون مقدمة للحديث عن هذا الرجل .

بل ان الكاتب نفسه ليقع فى حيرة شديدة ، عند محاولته اختيار مقدمة ذات دلالة تعبر فى دقة ووضوح عن حياة هذا الرجل القصيرة للغاية ، الحافلة جدا ، وأيضا عن قصة اغتياله التى شغلت الرأى العام العالمى ، وما تزال تشغله ، حتى الآن .

فهل نبدأ بتلك القصة ، وبخبر الاغتيال الذى نشرته جميع صحف العالم ، وأعلنته اذاعاته ، ومحطات تليفزيونه ، ومن ثم أصبح من أهم الدروس الصحفية ، التى يقدمها الأساتذة والمتمرسون ، فى أقسام الاعلام وكلياته ومعاهده ومدارس الصحافة .. فى العالم كله ؟ .. نعم ان قصة الاغتيال هى قصة صحفية فريدة فى نوعها ، وان السرعة التى انتقل بها الخبر الى العالم كله ، وأساليب تغطية وسائل الاعلام له ، والتقارير والقصص والتحقيقات والموضوعات الاخبارية والمقالات ، وحتى الصور التى نجح البعض فى التقاطها .. جميعها جديرة بأن تدرس ، كما حظيت بعناية تستحقها عند هؤلاء .. فهل نبدأ بها ؟

أم نبدأ بقصة انتخابه فى ظروف بالغة الصعوبة ، ولا يحسده عليها أحد ؟

أم نبدأ ببرامجه السياسية والاقتصادية والتنموية والانسانية التى ما تزال حديث المجتمعات ، ويحاول عدد من رؤساء الدول تقليدها ، بشكل أو بآخر ، وبانعكاساتها الصحفية وسيطرتها على الصفحات والسطور ؟

أم نقتصر هنا ، فى حديثنا عنه ، على علاقته بالصحافة والصحفيين ، وهو أيضا — وكما سنرى — يعتبر موضوعا خصبا للغاية ؟

ويالها من مقدمات ، أو استهلالات محيرة حقا ، وصعبة أيضـا ، وليس أكثر منها صعوبة سوى محاولة الجمع بين جميع هذه المعالم المتصلة بها .. فى اطار هذه السطور .

ذلك لأن الرجل — جون كنيدى — ومنـذ وقع اختيار الشـعب الأمريكى عليه فى نوفمبر ١٩٦٠ ، وحتى انطلقت تغتاله رصاصات الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٣ ، بل وبعد هذا التاريخ أيضا ، وهو يسرق الكاميرا ، والأضواء ، والسطور ، والكلمات ، والخطب ، والحروف ، والنقط أيضا .

لقد استقبلت الصحافة العالمية عامة والأمريكية خاصة أخبار اختياره للرئاسة بكلمات تعبر عن الحذر ، والقلق ، والخوف على مستقبل البلاد ، والسلام العالمى ، بل لم يتورع بعض الصحفيين عن اعلان شكوكه التامة فى امكانية نجاح هذا الرجل فى قيادة القارب الأمريكى .. وكان هؤلاء يجدون فى المناخ العام السائد ، بعض أسباب تخوفهم ..

فالرجل ، هو أصغر رئيس يتم انتخابه فى تاريخ الولايات المتحـدة الأمريكية ، وهو لم يتعد بعد مرحلة الشباب ، كما أن فوزه على منافسه الجمهورى ريتشارد نيكسون — نائب الرئيس السابق ايزنهاور — قـد تم بأغلبية ضئيلة من الأصوات ، وعندما ظهرا معا على شاشة التليفزيون الأمريكى فى سلسلة من المناظرات تحدث لأول مرة على هذه الشاشة ، كان من الواضح أن الرجل محدود الخبرة وأن منافسه يتفوق عليه بما اكتسبه

خلال السنوات الثمانى التى قضاها فى حكومة ايزنهاور .. وحتى عندما عادت الصحف الى مراكز معلوماتها لتحدثها عن تاريخ الرجل وجهوده ، لم تجب أجهزتها بأكثر من أنه كان مواطنا أمريكيا نصف مشهور وعضوا عاديا بمجلس الشيوخ باستثناء بعض الأحاديث الصحفية التى قدمته بينما جاءت اجابة العقل الاليكترونى فى صحيفة « نيويورك تايمز » مخيبة للآمال .. اذ راحت تقدم الأرقام العديدة التى تؤكد حالة الرخاء الذى حصلت عليه البلاد فى عهد الجمهوريين ..

وزاد من مشاعر الخوف والقلق ، تلك التى كانت تتردد على الصفحات ، وتنتقل الى شفاه الأمريكيين وكعادتهم ـ بسرعة البرق ـ أن الرجل قد اختير لقيادة القارب الأمريكى وسط بحر متلاطم الأمواج فالتوتر الدولى على أشده ، والروس قد أسقطوا طائرة الاستطلاع الأمريكية : (يو ٢) وأسروا قائدها ، ووضعوا الولايات المتحدة الأمريكية فى شخصه داخل قفص الاتهام ، وقاموا بمحاكمتها على ذمته ، أو بمعرفته، وفيدل كاسترو ينتصر على باتيستا فى كوبا ، ويتحول الى « شوكة » شيوعية مناوئة للولايات المتحدة ، والوجود السوفييتى يتزايد فى دول أفريقيا المحررة بمعرفة عبد الناصر وسباق الفضاء يتحول الى سباق تسلح رهيب ، وخطر نشوب حرب هيدروجينية يبدو محتملا ، حتى بسبب خطأ فى التقدير أو فى حسابات العقول الاليكترونية أو تشابك بعض أسلاكها ، والروس يرفضون ، ويعقدون محادثات نزع السلاح ، وخروشوف يستثمر ذلك كله لصالحه ، ولصالح بلاده .

فهل يستطيع الشاب الطموح ، بوجهه « التصويرى » أن يواجه ذلك كله ؟ وهل يمكن لمثل هذه الابتسامة العريضة التى يوجهها دائما الى المندوبين والعدسات ، أن تفيد كثيرا فى حل مثل هذه المشكلات ، أم ينتصر الرأى الذى تردده صحافة الجمهوريين ، والقائل بأن توزيع

الابتسامات يصلح فقط للجلوس أمام الكاميرا .. ولكن ليس أمام الدب الروسي، القوى ، الخبير المجرب ، الداهية ، خروشوف ..

ولقد كان من المنتظر ازاء ذلك كله ، أن يبادر الرجل وفى مواجهة هذه الأنكار والآراء كلها الى تعيين عــــدد من الوزراء والمستشارين « المخضرمين » والذين يغطى الشعر الأبيض رؤوسهم أو ـــ على الأقل ـــ ممن عرفوا بخبراتهم فى مجالات الاحتكاك والتوتر السابقة .. ولكن ، ضاعف من تخوف الاعلام الأمريكى عامة ، والصحفى خاصة أن الرجل قد قرر المضى فى الاتجاه المعاكس تماما ، أو المخالف لهذه الآراء والأفكار نفسها ، فهو يصرح فى خطاب تنصيبه وبحماس الشباب قائلا : « لقد تم تسليم الشعلة الى جيل جديد من الأمريكيين »(١) .. وكان له ذلك حقــا حيث قام باختيار أعضاء مجلس وزرائه ، ومستشاريه ومعاونيه .. جميعهم من الشباب الذى بدأ يهيمن على مقاليد الأمور والمناصب المختلفة فى أكثر أجهزة الدولة ..

لقد بدا وكأن الرجل لا يلقى بالا الى هذه الأقوال والأفكار كلها .. بل وكأنه يريد أن يثبت ، بالقول وبالفعل عدم صحتها .. ولكنه ، من زاوية آخرى بدأ يلوى عنق الصحافة اليه ويجبر الأضواء على أن تتقدم نحوه ، ثم تتركز عليه ، مع كل يوم يمر من أيام حكمه .. وكأنه يقــول لرجال السلطة الرابعة فى بلاده .. لقد تسرعتم فى الحكم ، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك قالها الرجل بأسلوبه الخاص ، وطريقته المعينة التى عبرت عنها علاقته بصحافة بلاده ، وكانت هذه بعض صورها ..

لقد بدأ الرجل فترة حكمه والخلاف ناشب بين الصحف الأمريكية على حقيقة موقف سلفه ـــ ايزنهاور ـــ من الصحافة ، وذلك على الرغم من الاجراءات العديدة التى قام بها على ســبيل الاقتــراب من الصــحافة والصحفيين ، والغاء صورته العسكرية ، وتصرفاته ـــ أثناء الحرب ـــ من أذهانهم .. كما بدأها أيضا ولسان حال أكثر الصحف ، خاصــة صحف

الجمهوريين تهاجم صغر سنه وقلة خبرته .. ولكنه منذ بدأ وهـو يلفت الأنظار اليه بكثرة قراءته لها ، ومتابعته الدقيقة لموادها ومناقشته لوزرائه ومستشارى البيت الأبيض وأعوانه ، بل وزوجته جاكلين ، تلك المناقشة التى تتناول ما تأتى به الصحف عن هؤلاء ، وما تكتبه من أخبارهم ، أو تنقله على ألسنتهم ، حتى عرف عنه أنه يقرأ الصحف بانتظام أكثر من أى رئيس آخر من أسلافه ، بما فى ذلك هؤلاء الذين كانوا يعملون بها فى بدء حياتهم ، كما كان يستوى عنـده فى مجالى القراءة والمتابعـة صـحف الديموقراطيين وصحف الجمهوريين معا ..

ويبدو أن هذه المتابعة الدقيقة للمادة الصحفية قد أطلعته على أهمية الاقتراب من هؤلاء ، ووضعت يده على أسس هذا الاقتراب ، كما عادت بذاكرته الى أيام عضويته لمجلس الشيوخ ، وصداقته لعدد من مندوبى ومراسلى الصحف الأمريكية ، وحيث كان هؤلاء يبدون تعاونا كبيرا معه ، كما بادلهم هو هذا التعاون نفسه عن طريقه تصريحاته العديدة ، واعلان رأيه فى المسائل الهـامة التى كانت تعرض للبـلاد .. والى حـد الادلاء بالأحاديث الصحفية الكاملة والعـديدة ، والتى كانت هى أول ما لفت الأنظار الى نشاطه .. والى اسمه نصف المعروف فى هذا الوقت ..

واذن فالصحافة تستطيع أن تقدم له الكثير ، ولبرامجه الطموحة ، فى السلام والتقدم فليمد لها يد التعاون ، وليبحث عن أصدقائه القدامى من مندوبى ومراسلى مجلس الشيوخ ، وليتخذ منهم قواعده الى عقل وقلب زملائهم .. والى التأييد فوق الصفحات .. هذا كله من جهة ، ومن جهة أخرى ليدع أعماله تتحدث معلنة عن نفسها ، ولتجبر هى العدسـات والأضواء على أن تتحول اليها .. رضيت بذلك أم كرهت .

وقد رأى الرجل أن تكون خطوته الثالثة ـــ بعد القراءة الدقيقـة والمتابعة والاتجاه الى الصحفيين الأصدقاء ـــ هى تلك الخطوة التنظيمية بنقل قاعة المؤتمرات الصحفية للرئيس من قاعة الاتفاقية الهندية القديمة

الى قاعة أخرى ضخمة بوزارة الخارجية ، تتسع لأكثر من ضعف عـدد الصحفيين الذين كانوا يحضرون فى القاعة القديمة ، وبذلك وسـع من قاعدة الحضور ، وأمكن لحوالى خمسمائة صحفى متابعة هذه المؤتمرات الصحفية للرئيس كنيدى ، كمـا أمكن بذلك أن يحضرها رجال الاذاعة والتليفزيون بأجهزتهم العديدة ، ومصادر الأضواء ، والاشتراك فى تبادل الأسئلة والاجابات ، واذاعة ذلك كله ، وبثه على الهواء مباشرة .

كذلك ، وتدعيما لهذه العلاقة الجديدة التى كان الرجل يوالى اقامة جسورها ، فانه بادر بتعيين عدد كبير من شباب المحررين والاذاعيين ورجال العلاقات العامة .. ليمثل هؤلاء فريق عمل متكامل فى حقـل العـلاقات الصحفية ، يوالى العمل فى اعـداد هذه المؤتمرات ، وتجهيز البيانات ، وتسهيل المهـام الصحفية ، والاتصال بأجهزة الاعـلام وترتيب وعمـل اللقاءات الهامة ، واعداد زيارات الاعلاميين للبيت الأبيض ، حتى أصبح مجموع العاملين بهذا المجال بالبيت الأبيض أكثر منه بالنسبة لأى رئيس آخر . كما تبع ذلك مضاعفة مكاتب الصحفيين ، وأجهزة اتصالهم بصحفهم داخل واشنطن وخارجها وداخل الولايات المتحدة وخارجها ، خدمة لمراسلى الصحف ووكالات الأنباء العالمية بالعاصمة الأمريكية .

وقد لفتت هذه الاتجاهات الكنيدية كلها أنظار الصحف والمجـلات حتى أنه فى ٢ أبريل عام ١٩٦٢ نشرت مجـلة « يو اس نيوز أندويرلد ريبورت »(٢) تقريرا صحفيا عن صورة الرئيس ــ كيندى ــ وكيف كان يجرى بناؤها ، تحدث عن الوسائل التى كان يلجأ اليها الرجل فى خطب ود الصحفيين ، ومن بينها بالاضافة الى ذلك كله أنه كان يوافق على اجراء المقابلات الخاصة وتقديم الأحاديث لعدد منهم ، كما كان رؤساء التحرير وأصحاب الصحف يدعون من آن لآخر ، وأحيانا بانتظام فى سلسلة من الولائم بالبيت الأبيض ، كما كان يدعى اليها كذلك من ينوب عن مراسلى الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء والصحف الامريكية من خارج واشنطن

العاصمة .. كما دعى لحضور الولائم أيضا بعض ممثلى الصحافة فى أنحاء البلاد .. كما لم تقتصر تلك الولائم على « مراسلى واشنطن » أو مندوبى الصحف أو وكالات الأنباء من القائمين بالعمل الاخبارى وحده ، وانما كان يدعى لحضورها كتاب الأعمدة والمقالات وبعض المعلقين والمصورين..

ومن العجيب ، أن عملية استطلاع قامت باجرائها بعض معاهد الرأى العام فى الولايات المتحدة الأمريكية أظهرت أن رجال الاعلام كانوا يحتلون دائما ولمدة عام كامل ، مكانا مرموقا فى قائمة الداخلين من أبواب البيت الأبيض الأمريكى ، أو ضيوف الرئيس كنيدى ، أو ضيوف زوجته ، وبعبارة احصائية وجد أن « واحدا فى المتوسط من كل خمسة ضيوف يدعون الى البيت الأبيض ، لابد وأن يكون كاتبا أو صحفيا »(٣) ..

.. ويجمع الخبراء على أن هذه الأساليب لم تكن وحدها التى نجح الرجل عن طريقها فى أن يصبح واحدا من أقوى الرؤساء فى التاريخ الأمريكى ، وأن يكتسب على الفور مكانة كبيرة ، وشعبية هائلة ، بل انه أضاف اليها ما ظهر من مواهبه العديدة فى قوة التأثير والذكاء وسحر الكلمة المختارة بعناية شديدة وحسن الصورة .. أضاف الى ذلك كله أنه كان يطلب من وزرائه ومستشاريه الاهتمام برجال الاعلام ، كما كان السكرتيرون الصحفيون لحكام الولايات يدعون الى البيت الأبيض وأندية الصحافة لعمل المقابلات الشخصية حول أهداف الرئاسة وممارستها .. كما كان هو نفسه يصحب وعلى طائرته الخاصة أكبر عدد ممكن من الصحفيين ، خلال رحلاته السياسية أو السياحية ..

على أن من الأهمية الاشارة هنا الى أن أكبر ما كان يساند الرجل فى اقامة جسور هذه العلاقة ، ودعمها ، وفرض حبه واحترامه ذلك العمل الكبير الذى كان يقدمه ، والذى كان يحس به المواطن الأمريكى العادى.. فكان من بينه انجازاته تطوير مرافق البلاد والبدء فى انشاء صناعات جديدة وتوفير التدريب بأجر للعمال العاطلين ومنح الولايات سلطة جديدة

لتوسيع نطاق التأمين ضد البطالة ، واتساع دائرة التأمين الاجتماعي ، وتخفيض سن منح المعاش للامريكي الى ٦٢ سنة فقط بدلا من ٦٥ وزيادة الحد الأدنى للاجور ، وتكثيف الجهود نحو القضاء على التفرقة العنصرية، وحيث أعلن بالحرف الواحد وفى خطاب أذيع من البيت الأبيض الى الشعب الأمريكى « أنه قد أصبح عليه وعلى الأمة الامريكية التزاما أدبيا بأن تضمن المساواة الكاملة للزنوج الأمريكيين » ثم تقدمه الى الكونجرس بمشروع قانون يهدف الى القضاء على التفرقة فى التصويت ... وذلك بالاضافة الى مواقف التحدى الخارجية العديدة التى واجهها الرجل بشجاعة وحكمة معا ، ومن أبرزها أزمة اقامة الاتحاد السوفييتى لقواعد الصواريخ الهجومية فى الأراضى الكوبية ، والتى يستطيع الروس منها أن يوجهوا تهديدا نوويا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، ودول أمريكا اللاتينية الحليفة .. والتى انتهت بموافقة الروس على فك هذه القواعد ونقلها الى بلادهم تحت رقابة هيئة الأمم المتحدة .. وحيث عد ذلك انتصارا كبيرا للرجل ، فى أقوى مواجهة له مع الدب الروسى .. وذلك كله بالاضافة الى برامج المعونة التى قدمها لعدد من دول العالم، والتى ساهمت بقدر كبير فى تحسين ملامح الصورة الأمريكية فى هذه البلاد ..

لقد نجح الرجل بكل ذلك ، وأصبح صديق الصحفيين الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بل كانت معاملته لهم ، ورعايته ، وحدبه ، مما يحسد عليه هؤلاء ، أو يحسدهم عليها الصحفيون فى أنحاء المعمورة .

ولكن يبدو أن رجال الصحافة عامة ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة ، يطالبون دائما بالمزيد من التسهيلات ، والجسور ، فاذا حصلوا على المزيد طالبوا بالجديد ، فاذا نالوا الجديد بحثوا عن غيره كما يبدو كذلك أن هؤلاء لا يرضون بغير العجب العجاب .. أو أن رضاءهم قد أصبح شيئا من المستحيلات أضف الى ذلك كله تأويلاتهم العديدة لمواقف الرجل ومحاولة البحث عن أخطائه وتسقطها ، وانتهاز الفرص لاظهار ذلك .. وبأكثر من أسلوب .

ـــ فالرحلات التى يصحبهم فيها الرئيس ، وعلى طائرته الخاصة الفخمة جدا .. هى رحلات موجهة وتأخذ عندهم صورة من صور تقييد الأنباء وعدم انسيابها الكامل ، فى حرية مطلقة .

ـــ والانتقال بالمؤتمرات الى القاعة الكبرى .. عند البعض يعد مظهرا من مظاهر النجومية ، وارضاء الذات .. وحماس الشباب .. وانبهارهم بالأضواء .

ـــ وتسجيل المؤتمر الصحفى اذاعيا وتليفزيونيا واذاعته وبثه على الهواء تماما كما كان فى عهد سلفه ايزنهاور مجرد استعراض تليفزيونى لا مبرر له ، الا محاولة زيادة شعبية الرئيس ، وحتى تصل ابتساماته .. الى كل بيت أمريكى .

ـــ وحتى هؤلاء الذين فازوا بأحاديث خاصة منه ، وحققوا عن طريقها أكثر من سبق صحفى ، وجد من يقول أنهم من الذين كانوا يخشى جانبهم ، ويعمل على كسب ودهم ، وأما غيرهم فقد كانت الأبواب توصد من دونهم ، وكذا مصادر الأخبار ، كما كانوا يعاقبون أيضا عن طريق نقد أخبارهم ، ورواياتهم الاخبارية ..

ـــ كذلك فان قدامى الصحفيين ـــ خاصة من مراسلى البيت الأبيض ـــ كانت الغيرة تدخل الى قلوبهم وهم يشاهدون الرئيس يحتفى بعشرات من الوجوه الصحفية الجديدة ، بل ويقرب هؤلاء منه الى حد الصداقة ، كما كان هؤلاء يرون فى ذلك خطرا فادحا على حيدة الأنباء وموضوعيتها استنادا الى هذه العلاقة الحسنة ، والصداقة المتينة .

ـــ وبالمثل ، فان متابعة الرئيس لما ينشر فى الصحف ، ومناقشته لهم فى أسلوب النشر ، ومحتوى المادة المنشورة ، والى حد تناوله لتفاصيلها ، عده بعض هؤلاء نوعا من التوجيه لهم ، والرقابة المستترة التى يمارسها هو شخصيا ، وبأسلوب غير مباشر .. والدليل على ذلك أن كيندى كان

يتيح لهم أن يعرفوا ما يفكر فيه بشأن طريقة تناولهم لخبر من الأخبار ، وأسلوب ذلك التناول .. مما يعد من قبيل هذا التوجيه ، أو الرقابة غير المباشرة .

ومن أجل ذلك كله ، فقد كانت تقع أحيانا بين الرئيس وبين أعوانه ومستشاريه من جانب وبين الصحفيين من جانب آخر بعض «المناوشات» والخلافات التى كانت تنجم عن فهم أو سوء فهم .. ولكنها على أية حال لم تصل الى درجة التصادم الكامل ، الا مرة واحدة فقط ، وبشأن أزمة قواعد الصواريخ الكوبية نفسها .

فبعد أن امتدحت الصحف العالمية عامة والأمريكية خاصة ، وبالاجماع بالنسبة للأخيرة ، مسلكه حيال هذه الأزمة التى كادت تفضى الى حرب عالمية ثالثة .. وكذا بعد أن بدأت تغير نظرتها اليه تغييرا كاملا .. اذ خرجت بعض الصحف لتقول أن أهم المعلومات المتصلة بهذه الأزمة نفسها وبتفصيلاتها الدقيقة ، ومواقفها العصيبة قد حجبت عن الصحافة الأمريكية .. وزاد من حدة الأمر اعتراف مساعد وزير الدفاع الأمريكى — آرثر سيلفستر — بأن شيئا من تقييد الأنباء والسيطرة عليها قد حدث فعلا أثناء هذه الأزمة .. وأن النجاح الذى أحرزه الأمريكيون حيالها يبرر هذه الاجراءات ..

وانفجرت الأزمة كاملة ، وجن جنون الصحافة ، وأخذت توجه اللوم ، والنقد ، والهجوم الى الرئيس كيندى وادارته ، وقالت صحيفة « واشنطون ايفننج ستار » فى مقال افتتاحى لها ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر : « لم يسمح لأى مراسل صحفى أن يكون فى الموقع ، وحجبت عن الجميع التسهيلات التقليدية التى كانت تقدم عادة لهذا الغرض لأسباب واضحة الزيف ، وهكذا فان مستر سيلفستر وحاشيته ، ونحن واثقون أنهم كانوا ينفذون الأوامر كانوا يتحكمون فى كل

ما ينشر .. »(٤) الى أن قالت الصحيفة : « وربما فات مستر سيلفستر نتيجة واحدة محتملة من نتائج الأساليب التى استخدمناها ــ على حد قوله ــ ألا وهى أنه وأن رؤساءه قد أصبحوا من الآن فصاعدا محل شك .. فما يقولون قد يكون هو الحقيقة ، ولكن هذه الحقيقة سوف تقبل منهم ممزوجة بحبة من ملح الشك .. » (٥)

كما نشر « آرثر روك » مقالا بمجلة « فورتشن » (٦) ضمنه نقدا شديدا لهذا التقييد للأخبار ، وسخر فيه من تلك الاجراءات .. ثم رأى فى نهايته أن يوجه اللوم الى الصحافة نفسها التى سمحت فى تغطيتها لأنباء أزمة الصواريخ .. أن تخضع للتأثير .. كما نشرت مقالات أخرى عديدة تتناول هذا الموضوع نفسه ، بأكثر من أسلوب .

حتى كان يوم الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٣ .. وعلى أرض مدينة دالاس ، بولاية تكساس الأمريكية .. وبين عشرات من الأعوان والمستشارين ، والوزراء ، ومئات من رجال الشرطة والشرطة السرية والمخابرات ، وعلى بعد خطوات قليلة من عشرات من رجال آمن الولاية المشهورين بقبعاتهم ذات الطراز القديم ، والى جانب زوجته ، وجوار جون كوناللى حاكم الولاية القوى .. وبينما الموكب الكبير يتقدم ، اذ انطلقت ثلاث رصاصات لتصيب الرجل فى عنقه وجمجمته ، يميل بعدها الى الأمام .. ثم يسقط فى مشهد تراجيدى بالغ التأثير .. يصبح بعدها جون كيندى مانشيتا لصحف العالم كله ، وأول خبر فى نشرات الاذاعات .. ودرسا لطلاب الاعلام ، ومدارس الصحافة وهواة التصوير .. ومعاهد الشرطة وخبراء الجريمة أيضا ..

---

(١) فرانسيس واتينى وآخرون : « موجز التاريخ الامريكى » ص ١٨٤ .

(٢) U.S Newsaworld Report

(٣) روان برادلى ، ترجمه محمود سليمة : « الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى » ص : ٨٠ .

(٤ــ٥) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٦) fortuve

أهم المراجع العربية والمعربة

١ ـــ ابراهيم امام ـ تطور الصحافة الانجليزية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .

٢ ـــ ابراهيم عبده ـ تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية ـ القاهرة ـ ١٩٤١ .

٣ ـــ ابراهيم عبده ـ الصحافة فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ سجل العرب ـ القاهرة ـ ١٩٥١ .

٤ ـــ ابراهيم عبده ـ دراسات فى الصحافة الأوربية ـ مطبعة جامعة فؤاد ـ القاهرة ـ ١٩٥١ .

٥ ـــ ابراهيم عبده ـ محنة الصحافة وولى النعم ـ سجل العرب ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

٦ ـــ اجلال خليفة ـ الصحافة ـ دار الطباعة الحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .

٧ ـــ احسان عسكر ـ نشأة الصحافة السورية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ

٨ ـــ أحمد حسين الصاوى ـ فجر الصحافة فى مصر ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ .

٩ ـــ أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ علاقة مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

١٠ ـــ أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ـ تاريخ أوربا فى العصر الحديث ـ مترجم عن هـ.ا.ل فيشر ـ دار المعارف ـ مصر .

١١ ـــ اسماعيل مظهر ـ سير ملهمة من الشرق والغرب ـ مترجم عن صمويل نينسون ووليام دى ويت ـ النهضة المصرية ـ القاهرة.

١٢ ــ بهاء فهمى ــ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ــ مترجم عن ا . جرانت وهارولد تمبرلى ــ سجل العرب ــ القاهرة .

١٣ ــ جورجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ دار الهلال ــ القاهرة ــ ١٩٣٧ .

١٤ ــ جورجى زيدان ــ تاريخ مصر الحديث ــ دار الهلال .

١٥ ــ حسنين عبد القادر ــ الصحافة كمصدر للتاريخ ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ .

١٦ ــ خليل صابات ــ الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٨ .

١٧ ــ شمس الدين الرفاعى ــ تاريخ الصحافة السورية ــ دار المعارف ــ مصر ــ جزءان .

١٨ ــ عبد الحميد البطريق ــ تاريخ أوربا الحديث ــ جامعة الرياض ــ السعودية ــ ١٩٧٨ .

١٩ ــ عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ــ تاريخ المسألة المصرية ــ مترجم عن تيودور رتشين ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٥٠ .

٢٠ ــ عبد العاطى جلال ــ الصحافة فى العالم ــ مترجم عن ب . دينوايبه ــ وزارة الثقافة ــ القاهرة .

٢١ ــ عبد الرحمن الرافعى ــ عصر اسماعيل ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٤٨ .

٢٢ ــ عبد العزيز توفيق جاويد ــ موجز تاريخ العالم ــ مترجم عن هـ.ج.ويلز ــ النهضة المصرية ــ القاهرة .

٢٣ ــ عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية فى مصر ــ جـ ١ ــ جـ ٢ ــ دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ ١٩٥٤ .

٢٤ ــ محسن محمد ــ حكايات صحفية ــ أخبار اليوم ــ القاهرة .

٢٥ ــ محمد عبد القادر حاتم ــ الرأى العام وتأثره بالاعلام والدعاية ــ مكتبة لبنان ــ بيروت ــ ١٩٧٣ .

٢٦ ــ محمد عزة دروزة ــ تركيا الحديثة ــ مطبعة الكشاف ــ بيروت ــ ١٩٤٦ .

٢٧ ــ محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل ــ نابليون ــ مترجم عن هربرت فيشر ــ دار المعارف ــ مصر .

٢٨ ــ محمد مصطفى غنيم ــ مخبرو الصحف ــ مترجم عن دافيد بوتر ــ دار الكاتب العربى ــ القاهرة .

٢٩ ــ محمود أدهم ــ فن الخبر ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٧٩ .

٣٠ ــ محمود الغندور ــ الاعلام ــ مترجم عن فرنان ترو ــ المنشورات العربية ــ بيروت .

٣١ ــ محمود سمهان ــ الصحافة ــ مطبعة الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٩ .

٣٢ ــ محمود محمد سليمة ــ الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى ــ مترجم عن دوان برادلى ــ النهضة العربية ــ ١٩٧٧ .

٣٣ ــ محمود نجيب أبو الليل ــ الصحافة الفرنسية فى مصر ــ القاهرة .

٣٤ ــ مروان الجابرى ــ الصحافة اليوم ــ مترجم عن توماس بيرى ــ أ . بدران ــ بيروت ــ ١٩٦٢ .

٣٥ ــ منير بكر التكريتى ــ الصحافة العراقية ــ مطبعة الارشاد ــ بغداد .



صدر للمؤلف

١ ــ أنشودة حب ــ شعر ــ الدار البيضاء ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ .

٢ ــ فن الخبر ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٧٩ .

٣ ــ فن تحرير التحقيق الصحفى ــ دار الشعب ــ القاهرة ١٩٧٩ .

٤ ــ هم والصحافة ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٨٠ .

تحت الطبع

١ ــ تحرير الأخبار الصحفية .

٢ ــ دراسات فى الصحافة المصرية .

٣ ــ فن الحديث الصحفى .



فهرس الكتاب

صفحة

☐☐ تقديم ٥
☐☐ يوليوس قيصر : « صحيفة كاملة من ٢٠٠٠ سنة » ١٠
☐☐ هنرى الثامن : « اضرموا النار فورا فى هذه الأوراق الخطرة » ١٨
☐☐ اليصابات : « اقطعوا يده حتى لا يكتب مقالة اخرى » ... ٢٦
☐☐ شارل الأول : « اليومية الكاملة تروى أبرز أحداث القرن السابع عشر » ٣٦
☐☐ جون آدامز : « هل يعود الرئيس الى قصره عاريا ؟ » ... ٤٤
☐☐ توماس جيفرسون : « حكومة بدون صحف أم صحف بدون حكومة » ٥٤
☐☐ بونابرت : « ايهما الأقوى .. الجيوش أم الصحافة ؟ » ... ٦٠
☐☐ وارين هاردنج : « هل مات الرئيس الأمريكى مقتولا ؟ » ... ٧٨
☐☐ لويس فيليب : « عندما ولدت حرية الصحافة » ٨٤
☐☐ سعيد : « لا .. ان الجرنالجية غير سواسية » ١٠٢
☐☐ اسماعيل : « رجل فعل الكثير .. ولكن ؟ ! » ١١٢
☐☐ عبد الحميد الثانى : « دولة الجرائد وسوء العاقبة » ١١٨
☐☐ لينين : « الدعاية والتنظيم الجماعى واثارة القلاقل والفضائح » ١٣٦
☐☐ أتاتورك : « منقذ الدردنيل والهجوم العاقل » ١٥٠
☐☐ فيصل الأول : « المهد الذهبى لا يدوم طويلا » ١٦٠
☐☐ ادولف هتلر : « العصابة التى تفبرك الرأى العام » ١٦٨
☐☐ موسولينى : « الدوتشى صحفيا .. ! » ١٧٨
☐☐ غاندى : « دستور للصحافة الشعبية » ١٩٠
☐☐ فرانكلين روزفلت : « رئيس جمهورية الصحفيين » ١٩٦
☐☐ شارل ديجول : « سلاح خطير جدا .. تلك هى الصحافة السرية » ٢٠٦
☐☐ ايزنهاور : « نصف لها .. ونصف عليها .. » ٢١٢
☐☐ جون كنيدى : « السلم والتقدم بطريقة صحفية » ٢٢٢
☐☐ المراجع ٢٣٣

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٠/٤٨٤١

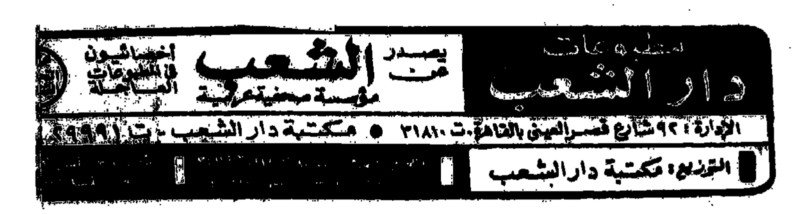
الترقيم الدولى ٣ – ١٥٦ – ٢٩٦ – ٩٧٧ ISBN

مطابع دار الشعب بالقاهرة



□□ فى هذا الكتاب ((هم .. والصحافة)) يجيب الدكتور ((محمود أدهم)) على الكثير من التساؤلات التى تدور حول طبيعة العلاقة بين رجال القمة السياسية وسيداتها أيضا من ملوك وملكات وأباطرة ورؤساء جمهوريات وحكام .. وبين رجال القمة الصحفية .. ! أو بين هؤلاء من جانب وبين صحافة بلادهم من جانب آخر .. لانها تتصل عن قرب بالتاريخ العام لدولهم . وبحياة هؤلاء .. وافكارهم .. ومواقفهم .. وبقوانين الاعلام فى بلد وآخر .. وبالفنون الصحفية نفسها فى نهاية الامر ..

□□ والكتاب بجانب كونه دراسة عميقة وجادة يلقى الضوء على العديد من القضايا والمواقف التى تواجه العاملين فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة !! والدور الذى تؤديه الصحافة .. ويؤديه الصحفيون خدمة لاوطانهم ومجتمعاتهم .. بصرف النظر عن النزعات المتطرفة .. سياسية كانت .. أم صحفية .!



١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م